التراث المسروق

الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة

جورج جي إم جيمس

ترجمة شوقي جلال

التراث المسروق

الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة

تأليف
جورج جي إم جيمس

ترجمة
شوقي جلال

هنـــداوي

التراث المسروق

جورج جي إم جيمس

Stolen Legacy

George G. M. James

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩ ٣٤٤٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٥٤.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٩٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ شوقي جلال.

المحتويات

سنوات العُمر وحصاد الهشيم	٧
مقدمة المترجم	١٥
مقدمة	٢٩
أهداف الكتاب	٣٥
الجزء الأول	٣٧
١- الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة	٣٩
٢- الفلسفة اليونانية المزعومة كانت غريبة عن اليونانيين وعن ظروف حياتهم	٤٩
٣- الفلسفة اليونانية سليل نظم الأسرار المصرية القديمة	٥٥
٤- المصريون علَّموا اليونانيين	٦٩
٥- فلاسفة ما قبل سقراط والتعاليم المنسوبة إليهم	٨١
٦- فلاسفة أثينا	١٠٥
٧- المنهاج التعليمي في نظام الأسرار المصري	١٤٩
٨- فقه إلهيات ممفيس	١٥٥
الجزء الثاني	١٦٩
٩- الإصلاح الاجتماعي من خلال فلسفة جديدة لتحرير أفريقيا	١٧١
ملحق	١٨١
ملاحظات	١٩٧

المراجع وأرقامها المثبتة في متن الكتاب ٢٠٩
ثبَت أبجدي للمصطلحات العربية والأسماء الواردة بالكتاب، ومقابلها الإفرنجي ٢١٣

سنوات العُمر وحصاد الهشيم

نشأتُ في أحضان الحركة الوطنية لاستقلال ونهضة مصر، التي استعانَت بالكفاح المُسلَّح حينًا، واستطاعَت — على مدى قرن من الزمان وحتى منتصف العشرين — أن تُعيد لمصر وعيَها بذاتها، بعد غيابٍ امتدَّ قرونًا بفعل قوى الكولونيالية والإمبريالية، ابتداءً من الفُرس، ومرورًا بالرومان والعرب والمماليك والأتراك.

ومع انتصاف القرن العشرين شَهِدت مصر تحوُّلًا سياسيًّا قسريًّا يحمل — ظاهريًّا — بعض شعارات الحركة الوطنية، وإن أنكَرها واستنكرها في الممارسة العملية، بدلًا من أن يكون امتدادًا لإيجابياتها بشأن الديمقراطية ونظام حكم المؤسَّسات والفصل بين السُّلطات، وتَرسَّخ مَطلب الحريات وحقوق وواجب الإنسان المصري العام في المشاركة المُنظَّمة مؤسَّسيًّا لإدارة شئون مجتمعه وبناء مستقبله.

البداية لي مع عام ١٩٣١م … مصر في وعيِ جيلي إرادةٌ وعزم صادقان على النهوض، التحرُّر من الاستعمار، العدالة الاجتماعية ومحاربة الفقر والفساد والحفاء، التحديث الاجتماعي واللحاق بالحداثة الأوروبية فنًّا وأدبًا وعلمًا وإنجازاتٍ مادية (تكنولوجيا) … ومصر قوةٌ إنتاجية واعدة، يحفظها حُلمٌ مُؤسَّس على تاريخٍ حضاري سالف وواقعٍ واعد، وإن ضاقت ساحته بصراع المتناقضات، ورؤًى مُبشِّرة في المستقبل الذي يليق بمكانة مصر … مصر فجرُ الضميرِ والمجدِ الحضاري التليد.

نشأتُ في واقع حضاري ثوري أسهَم في تأسيسه نِضالُ أجيالٍ ثلاثة قبل جيلي، استيقظَت بدايةً على ضوء مدافع الغرب، وأفاقَت وتململَت تدعو وتُحفِّز، تُبشِّر وتُنذِر، واستهلَّت مشروع التحديث إلى أن خطت أول الطريق في عهد «محمد علي» الذي أشرت في كتبي إلى أنه كان مُناسَبةً لا سببًا … ومن هنا مصر ثقافة جديدة … مصر الوطن والمواطَنة

تستوعب الموروث بعقل نقدي جديد ... ثقافة الوعي بالذاتية التاريخية بعد جهود متوالية من الغُزاة على مدى أكثر من ألفَي عام لطمسِ هذه الذاتية والانسلاخ عنها ... استعادت مصر اسمها وتاريخها على يدَي الأزهريِّ رفاعة الطهطاوي، واستعادت ذاتيتَها الوطنية على أيدي فلَّاحي مصر العسكريين أحمد عرابي ورفاقه.

تربَّيت مثلما تَربَّى جيلي على قِيم الحُرية والتحرير والتغيير ... ثقافة التسامح مع المذاهب الفكرية والعقائد الدينية ... كتُب مَن كتَب «لماذا أنا مُلحِد؟» مثل أدهم، أو «لماذا أنا مسلم؟» مثل عبد المتعال الصعيدي. وانتقدهما مَن انتقدهما دون أن يُفسِد النقدُ للودِّ قضيةً ... وكانت مصر قِبلة المُتعطِّشين إلى الحداثة من المُثقَّفين العرب ... ولم يكن الجوار بعدُ ناهضًا ولا مناهِضًا أو مُزاحِمًا ... مصر هي الكلمة، ومصر هي الفعل.

وشَهِدَت مصرُ التي عشتُها وملأَت عليَّ وجداني وعقلي الكثيرَ من أعلام الفكر والأدب والعلوم والفنون والرياضة ... كانوا النجوم الهادية، مثل مشرفة الذي ذاع عنه باعتزازٍ مصري أنه نظير آينشتاين، والشيخ علي عبد الرازق، والشيخ جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، وطه حسين، وسلامة موسى، ومختار النحات العظيم، ورءوف صروف، وشبلي شميل، وجورجي زيدان، وروز اليوسف، وهدى شعراوي، ومي، وسيد درويش، وداود حسني، ومحمد عبد الوهاب، وأم كلثوم ... ولمعت أسماءُ رياضيين دوليين في السباحة وكرة القدم والشيش ... هؤلاء وغيرهم نجومٌ سواطعُ تَهدينا إلى الطريق، وتُحفِّزنا للاقتداء بهم باسم مصر ومن أجل مصر.

وتعلَّمتُ في مدرسة ثانوية خيرية؛ أي للفقراء، ولكن استمعت فيها لأول مرة إلى فاجنر معزوفًا على شاشة مسرح المدرسة، وتربَّيت كما تربَّى أقراني على كتبٍ مثل «تاريخ الأديان في العالم» دون حساسية أو انحياز، ومجلات ثقافية مثل: «مجلتي»، و«الرسالة»، و«الثقافة»، و«الكتاب»، و«الكاتب»، و«المقتطف»، و«الفصول» ... ولن أنسى مجلةً تنويرية أسبوعية ساخرة هي «البعكوكة»، الواسعة الانتشار، وإحدى شخصياتها الأسبوعية الناقدة «الشيخ بعجر» الذي نقرأ على لسانه نقدًا ساخرًا للمتنطِّعين باسم الدين.

وشاهدَت مصر الغنية بالمتاحف العلمية نهضةً مُواكِبة من المدارس الفكرية والعلمية، فجاءت نشأةُ جامعة القاهرة ببعضِ الجهد النضالي والتحدي ضد الاستعمار، وضمَّت الجامعة أسماء أعلام أسهموا بجهدٍ مُتميِّز وتاريخي: شفيق غربال، وإبراهيم حسن، وأحمد أمين، في الأدب والتراث، ويوسف مراد مُؤسِّس مدرسة علم النفس التكاملي، ومصطفى زيور مُؤسِّس مدرسة علم النفس التحليلي، وعبد العزيز القوصي في علم النفس التربوي ... وغيرهم وغيرهم في العلوم والفنون والآداب.

ونشطت في مصر حركةُ الترجمة العلمية المرتبطة بالهدف القومي واستيعاب علوم وفكر العصر، وتوظيف ذلك لبناء مصر الجديدة، وإذا كانت جهود الترجمة في العصر الحديث بدأت على يدَي رفاعة الطهطاوي ومدرسة الألسن، فحَريٌّ أن نَذكر — بقدرٍ كبير من الزهو — لجنةَ التأليف والترجمة والنشر التي رأسها أحمد أمين، وقدَّمت ثروةً من الإنجازات البالغة الأهمية بمقاييس العصر، وكانت نموذجًا احتذَته مجتمعاتٌ عربية أخرى. وكم شعرتُ بالفَخَار عند زيارتي للجنة التأليف والترجمة والنشر في الرباط بالمغرب، وقال لي رئيسها إننا هنا نقتدي بمصر.

تحدَّدَ طموحي، مثل أقراني وأبناء جيلي، في النضال من أجل مصر الحُرة ... الواعية في اعتزاز بتاريخها ... الجادة في سعيها لبناء مجدها الحضاري العصري، اعتمادًا على سواعد وعقول أبنائها، والعمل على إنتاج وجودها الحديث المادي والفكري إبداعًا ذاتيًّا، وانتماءً نقديًّا إلى العالم المتقدِّم ... وكان طموحي أن أكون مثل مَن أُشرِبَت نفسي بعِلمهم وثقافتهم وقِيمهم، وأن أُسهِم إيجابيًّا في بناء مصر الحُرة/المستقلة/المنتِجة ...

وسعيتُ على الرغم من تعدُّد السُّبل إلى أن أكون إيجابيًّا في جهدي لذلك بمداوَمة الفكر والتفكير دون قيود غير العقل الناقد، والاطِّلاع على كل جديد من غير انحياز أو عُقَد، وأن أُتابِع فكر وجهود الساعين إلى ذلك من خلال التنظيمات والأحزاب ... واستطعتُ الانتصار على قيود ومحاذير الفقر بالاعتماد على نفسي، ولكن العَقَبة الأخطر في الطريق هي سنوات الاعتقال السياسي المُتقطِّعة على فتراتٍ دونَ محاكَمة، وبلغ مجموعها اثنتَي عشرة سنةً بدأت عام ١٩٤٨م، وحتى نهايتها ١٩٦٥م. وحاوَلت أن أنتصر على قسوة وآلام التعذيب في السجون والمعتقلات، من السجن الحربي إلى ليمان أبي زعبل؛ حيث كُنَّا نعيش حُفاة الأقدام، شِبه عُراة الأبدان، نَشقى في عمل تكسير الزلط تحت وَطْأة الشمس الحارقة، والسِّياط اللاهبة، والسِّباب المُقذِعة، والشتائم المُهِينة الجارحة، ولم أتخلَّ عن طموحي وجهدي من أجل مصر ... مصر العقل الجديد.

وبدأتُ الكتابةَ أول الأمر وأنا طالب بالجامعة، في سلسلة «كتابي» التي يُصدِرها حلمي مراد ... وأول موضوع كتبته عام ١٩٥٣م بعنوان «مُذكِّرات الولد الشقي»، وهو تلخيص لمذكرات تشارلز داروين. ولكنني لم أرَه بسبب الاعتقال.

ولكي أتجنَّب خيوطَ المنع والحظر رأيت أن أتكلَّم بلسانِ غيري، مع إضافة رأيي في مُقدِّمة وهوامش؛ ومن هنا اتَّخذتُ الترجمة وسيلةً لكي أبدأ مشروعي «تغيير العقل المصري العربي»، وصدَر لي عام ١٩٥٧م عن دار النديم كتابان هما: «السَّفَر بين الكواكب»، وهو

أول كتاب علمي مترجم عن علوم ورحلات الفضاء، صدَر بمناسبة إطلاق الكلبة لايكا إلى الفضاء. والكتاب الثاني «بافلوف، حياته وأعماله»، وهو أيضًا أول كتاب علمي مترجم عن هذا العالِم الروسي الفَذِّ الذي كنت أعتزم أن أرصد له جهدي في دراستي الجامعية العليا. ثم انقطعتُ عن الكتابة والترجمة ثانيةً سنواتٍ سبعًا بسبب الاعتقالات السياسية، وعلى الرغم من كل ما عانيتُه في المعتقلات تطوَّعتُ — وأنا المستقل سياسيًّا غير المنخرط في أي تنظيم — بعد هزيمة ١٩٦٧م، لكي أحملَ السلاح دفاعًا عن بلدي مصر، ولكن جهات الأمن السياسي استدعَتني وحذَّرتني وطالَبتني صراحة: «انت لأ ... تقعد في البيت.»

وواصلتُ جهدي في التحدُّث بلسان الآخرين، وقدَّمت ترجمةً لرواية «المسيح يُصلَب من جديد» تأليف نيقوس كازانتزاكيس، الذي عشقتُ كتاباته، وشعرت بنوع من التماهي معه. وتوالت الترجمات التي لا يَعنيني كَمِّيتها التي تجاوَزت الستين، ولكن يَعنيني أنها مختاراتي من بين قراءاتي، وملتزمة جميعها بمشروعي من الانتقال إلى العقل العلمي، والتحوُّل عن ثقافة الكلمة إلى ثقافة الفعل.

وبدأتُ التأليف في تكاملٍ مع مشروع الترجمة، وصدر لي أول كتاب عام ١٩٩٠م بعنوان «نهاية الماركسية!» وهدفي منه نقد الثقافة العربية في التعامُل النصي الأرثوذكسي مع الفكر العالمي، متخذًا الحديثَ المتواتر عن سقوط الماركسية مثالًا، مع فصل بعنوان «هل سقطت الليبرالية؟» وأتبعتُ هذا بكتابٍ عنوانه «التراث والتاريخ»، وهو رؤيةٌ نقدية لأخطاء ثقافية شائعة في حياتنا، وحاكمة لنا، عن العقيدة والموروث الثقافي وفهم التاريخ.

وصدر كتابي الثالث بعنوان «العقل الأمريكي يُفكِّر: من الحرية الفردية إلى مسخ الكائنات»، وهو دراسة أكاديمية تُعطي بانوراما لتطوُّر العقل الأمريكي السائد على مدى ١٦٠ عامًا، ابتداءً من الآباء المُؤسِّسين لتصحيح صورة أمريكا المُدَّعاة في حياتنا، ومجابَهة الحقيقة، وأُؤكِّد فيه العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع العملي نشأةً وتطوُّرًا، وأن الفكر هو مُنتَج الفعل الاجتماعي في تطوُّر جدلي مُطَّرد، مستشهِدًا بتطوُّر الفكر/الفعل الأمريكي في مجالات الفلسفة/العلم/الآداب والفنون، مُوثِّقًا ذلك بنصوصٍ لأئمة الفِكر الأمريكيِّين.

وبلغ مجموع مُؤلَّفاتي أربعة عشر عنوانًا، آخِرها «الشك الخلَّاق في حوار مع السلف»، وأعكف منذ سنوات على إصدار دراسة عن انتحار الحضارات ... كيف سقطت بفعل أبنائها وأوَّلُهم رجالُ الدين، حين تكون لهم السُّلطةُ دونَ العقل؛ أي لأسباب داخلية أولًا وليست خارجيةً فقط. وذلك في ضوء ما نشاهده اليومَ من جماعات تُدمِّر وتنتحر وتَنحر مَن حولها باسم إحياء حضارة تفكَّكت وسقطت وتأخَّر تأبينها قرونًا.

قضايانا المُلِحَّة عديدة ومتكاملة، ومن هذه القضايا التي عرضتها في كتبي:

(١) إعادة بناء الإنسان المصري الذي تعمَّد الغُزاة والحُكَّام المُستبدُّون انسلاخَه عن تاريخه وعن هُوِيته؛ ولذلك لا تتوفَّر نظريةٌ جدلية متكاملة لتاريخ مصر منذ القِدم، وقد حاوَلها صبحي وحيدة، والدكتور حسين فوزي سندباد مصري، ومحمد العزب. وتلزم الإجابة على سؤال: ماذا أصاب الإنسان المصري على مدى التاريخ حتى أصبح على هذه الحال من السلبية واللامبالاة؟ حتى لا نُردِّد ما قاله المقريزي وغيره: «قال الرخاء أنا ذاهب إلى مصر، فقال الذلُّ وأنا معك».

ثم إننا نعيش الآن في عصر أو حضارة الإنسان العام المشارِك إيجابيًّا، عن علمٍ وقدرةٍ، في إدارة شئون أُمَّته مع مسئوليته عن الإنسان والبيئة في العالم. ويتناقص هذا مع الظروف التاريخية وحياة الاستبداد والقهر التي صاغت الإنسان المصري، وباتت موروثًا اجتماعيًّا وثقافةً نافذة.

وحَرِي أن نتخلَّى عن الالتزام بإنجاز ما أُسمِّيه المعادلة المستحيلة؛ ألَا وهي نزعة المواءمة أو الجمع بين حضارة العلم والتكنولوجيا والعقل العلمي النقدي، وبين الموروث الثقافي المُتحجِّر الذي انتهى عصره. وإن أوَّل مَعالم الطريق إلى النهضة الحضارية إنما يتجلَّى بدايةً في سقوطِ هَيبة السلف والفكر السلفي وعبادة السلف في أذهان العامة، ومن ثَم إحلال ثقافة التغيير والتطوير باعتماد العقل العلمي النقدي؛ لذلك نُؤكِّد دائمًا أن لا نهضة لمصر إلا بنهضة الفلاح المصري في قُرى ونجوع الشمال والجنوب، هذا الفلاح هو مصر، الذي ظلَّ يحمل على فَودَيْه رسمًا نزعم سخريةً أنه عصفور … وهو حورس الحامي.

(٢) اتساقًا مع هذا نحن بحاجة إلى دِراسة العلاقة العكسية بين الاستبداد والإبداع … الاستبدادُ يصنع روبوتًا فضيلتُه الطاعةُ دون حق السؤال، والحريةُ هي صانعة الإنسان … الحرية كما يقول فيلسوف العلم دانييل دنيت هي القوة الحافزة للتطوُّر الخلَّاق للحياة منذ نشأتها حتى بلغت مرحليًّا أعلى صورها في صورة الجهاز العصبي للإنسان.

(٣) المُثقَّفون المصريون مسئولون أولًا وأساسًا عن واقع حال مصر الراهن؛ إذ بدأ المُثقَّف الحديث مُوظَّفًا تابعًا للسُّلطة الحاكمة وقد نشأ وتربَّى على ثقافة الطاعة، بينما المُثقَّف المستنير هو مَن يحافظ على مسافة نقدية فاصلة بينه وبين ذوي السلطان؛ أي سُلطة دينية، أو سياسية، أو عقائدية؛ لكي تتهيَّأ له فرصةُ الرؤى في عقلٍ نقدي يُنير بها الطريق إلى المستقبل.

(٤) سبَق أن ذكرتُ في كتابي «أركيولوجيا العقل العربي» أن التراث الثقافي الذي عاش ممتدًّا في الزمان التاريخي الاجتماعي، وإنْ أخَذ مُسمَّيات دينيةً لاحقة؛ هو التراث الهرمي في مصر … تراث هرمي مُثلَّث المعظمات، لا يزال يُقسِم باسمه المصريون (معظمًا ثلاثًا)، ويحمل هذا التراث صفات وخصائص البيئة والذهنية المصرية، وأراه تراث تحوت أو توت رب الحكمة والقلم في الديانة المصرية، وإن حمل حينًا اسمًا إغريقيًّا … وأرى أن هذا التراثَ هو الحاكمُ للثقافة الشعبية السائدة التي امتدَّت مع حالة الركود الاجتماعي قرونًا. وهذه الثقافة التي تصوغ ذهنيةَ المصري هي التي تُجهِض إرادة وفعالية الإنسان لحساب قوة مفارقة، لها القدسية والفعالية.

ويستلزم هذا تحوُّلًا حقيقيًّا وموضوعيًّا من ثقافة الكلمة والثبات إلى ثقافة الفعل والتغيير … من ثقافة اللسان إلى ثقافة اليد والأداة. وهذا هو ما سينقُلنا طبيعيًّا إلى ثقافة التناقض والحركة كشرط وجودي … الحركة مع التناقض … الفعالية بين «النحن والآخر» … الانتقال من ثقافة الإقصاء المُفضِية إلى الانشقاق والانقسام — دائِنا التاريخي — إلى ثقافة التناقض أو تلازم النقيضَين … إذ إن ثقافة الحركة الفكرية والمادية في جدل مشترك مطَّرد، لا تنشأ ولا تكون إلا بين نقيضَين «نحن والآخر»، ووجود كلِّ طرَفٍ رهْنُ وجودِ الآخر … ولهذا نشأ الحوار الذي هو صراع في إطار الوحدة، أو حركة في إطار التناقض … إن الصورة لا تكتمل ولا نفهمها إلا في دلالاتها الحركية؛ أي وجود النقيضَين، وإلا بدَت مواتًا … وهل الحياة إلا حركة بين نقائض؟!

ويكتمل ما سبَق بالحديث عمَّا اصطلحنا على تسميته أزمة الترجمة في العالم العربي. وسبَق أن تناولتُ هذا تفصيلًا في ضوءِ إحصاءاتٍ ذاتِ دلالة، سواء في كتابي «الترجمة في العالم العربي» أو في تقرير التنمية الإنسانية للأمم المتحدة ٢٠٠٣م. وتُؤكِّد الدراسة أن الترجمة مُتدنِّية أشد التدني، وطالَبنا — كما سبَق أنْ طالَب عميد الأدب العربي طه حسين — بإنشاء مُؤسَّسة عربية للترجمة. ولكن على الرغم من محاوَلات الإنقاذ وسَتر العورة وإنشاء مراكز ترجمة في عدد من البلاد العربية، مع رصدِ أموالٍ ضخمة في بلدان الخليج، فإنها تُؤكِّد جميعًا تشتُّتَ الجهود دونَ هدف استراتيجي جامع واضح مشترك.

وهذا ما أكَّده أيضًا التقرير العربي الأول للتنمية الثقافية؛ إذ أوضَح تقريرُ عام ٢٠٠٧م أن المُناخ السياسي المُتَّسم بالاستبداد والقهر وغياب الحريات أدَّى إلى انتعاش الظلامية والفكر الأصولي السلفي المتطرِّف. وأشار إلى أن هذا المُناخ هو المسئول عن انصراف الإنسان العربي عن ثقافة تحصيل العلم، وعن الاهتمام بالقراءة وبالبحث.

والرأي عندي أن واقع حال الترجمة، بعيدًا عن الشكليات والأرقام الصمَّاء، ليس أزمة، بل هو موقف ثقافي اجتماعي من المعرفة والإبداع والتجديد قرين الفعالية المجتمعية لإنتاج الوجود الذاتي. ولا يستقيم الحديث عن الترجمة دونَ الحديث عن الفعل الإبداعي المجتمعي والفضول المعرفي ... الفعل والفكر الاجتماعيان في اقترانٍ جدلي تطوُّري ... وهذا غير وارد في ثقافتنا؛ ثقافةِ الإقصاء والاكتفاء الذاتي بالموروث ... ولا يستقيم كذلك دونَ الحديث عن الإنسان، وتغيير الواقع بإرادة ذاتية، وبالانخراط كقوة فاعلة إيجابيًّا في الفعل والفكر العالميَّين؛ أي الانخراط في الحداثة انخراطًا إبداعيًّا ذاتيًّا تكامليًّا في تطوُّر مرحلي ... أعني الوحدة مع الصراع في العالَم الحديث؛ فهذا شرط التغيير الجذري الحضاري نحو واقع مصري يُبدعه الإنسان المصري.

والآن وقد تجاوزتُ التسعين من العمر انظر إلى الحياة نظرةَ مُودِّع، أراني أفتقد مصر التي كانت في خاطري، وأرى أن مصر على مستوى الإنسان العام تغوص على نحو غير مسبوق في وحل اللامعقول الموروث، مصر لم تَعُد مجتمعًا، بل أصبحت تجمُّعًا سكنيًّا، وقد أُضيفُ ما أضافه لي الصديقُ الأجلُّ أنور عبد الملك، وهو أنها باتت تجمُّعًا سكنيًّا لغرائزَ مُنفلِتة ... أفتقد مصرَ الحلم الحافز، مصر الوعي الموحد تاريخيًّا، مصر الوطن والمواطَنة، مصر الواقع المشحون بإرادة الفعل والفكر والحركة الجماعية ... مصر المستقبل ... أفتقد كل هذا ولا أرى غير فرط العمر والركض وراء السراب.

ولكن تحت الرماد جذوة نار قد تتأجَّج ويشتد لهيبها ... ومن بين رُكام الفوضى ينبثق الأمل ... هكذا علَّمنا التاريخ ... ومياه النيل لا ترتَدُّ أبدًا إلى وراء.

شوقي جلال

مقدمة المترجم

مصر ... الغياب الطويل
ومحاولة البحث في الجذور

هذا الكتاب صدمة، بكل ما تعنيه كلمة صدمة في إطار الفكر والتقليد ...

وكل ما تعنيه كلمة صدمة من مسئوليات وواجبات مستقبلية ... وليس وحده كذلك، فإن كتابات كثيرة حفلت بها الحياة الفكرية النقدية، وضعت بديهيات كثيرة موضع شك وتساؤل. وهذه هي سمة أساسية من سمات الصحوة ... صحوة الفكر المواكب لنشاط مجتمعي ... نشاط شامل العقل واليد في تحوُّل جذري نحو حقبة حضارية جديدة صدق العزم بشأنها ... بديهيات كثيرة تشكِّل مرتكز إطارنا الفكري، وحدَّدت — بالتالي — سلوكنا، بل وتصوراتنا للعديد من ظواهر حياتنا ... حكمت الفكر والسلوك ... وإذا بها، حين توضع على مائدة الحوار والتساؤل المنهجي، وتخضع للبحث العقلاني النقدي، لا تصمد طويلًا، على الرغم من صمودها في أذهان الناس قرونًا ... وتكون الصدمة التي تصل إلى حد الذهول وعدم التصديق.

من هذه البديهيات، على سبيل المثال، التي تحوَّلت إلى «حقائق فكرية» اجتماعية شغالة، أعني فاعلة في المجتمع، حاكمة للفكر والسلوك معًا، قولنا على سبيل المثال: إن العرب بدأت مسيرة حياتهم الاجتماعية من البداوة، أو — كما يقال — هم أعرق في البداوة، وأبعد عن الصنائع. ونأخذ كلمة العرب باعتبارهم اسم جنس من التجانس دون اعتبار لاختلافات فرضَها واقع جغرافي، ومن ثَم تاريخي وثقافي، أو ما اصطُلح على تسميته المحيط العقلي noosphere، وكأن اللغة، بمعنى النطق، لا بمعنى الفكر، هي المعيار الأوحد المحدِّد لطبيعة وخصوصيات المجتمعات وانتماءاتها الثقافية ... ونأخذ البداوة على الإطلاق،

دون اعتبار لحركة التاريخ واتساع النطاق الثقافي الحضاري، وكأنه نهر دافق ممتد من منبعه، أو منابعه المتباينة، حاملًا ماضيه مع حاضره الذي نعيشه الآن … كأن البداوة هي المبتدأ لكل مجتمع يحمل صفة العربي ثقافة راهنة، افترضنا تجانسها المطلق وقطيعتها المطلقة مع ما سبق وكان مبتدأ حقيقيًّا، وأغفلنا جوهر التطور — شكلًا ومسارًا ومحتوًى وتفاعلًا ونقصًا وزيادة — على الرغم من تناقض هذا الرأي مع وقائع التاريخ الجغرافي الثقافي الحضاري لعديد من المجتمعات. ومن البديهيات أيضًا، قولنا إن العرب لم يعرفوا نظام الدولة، وإن الدولة بدأت — أول ما بدأت — مع حدث سقيفة بني ساعدة وعهدها الذي هو أول دستور لدولة عرفها العرب في تاريخهم. وهكذا فقدنا الاتجاهات الأصلية الجغرافية، وفقدنا معها الموقع وتمايزه وتاريخه ونتاجه المادي والفكري … وكأن بلاد ما بين النهرين ووادي النيل لم تعرف النظام المركزي والدولة والبيروقراطية. ويبدو وكأن إطارنا الفكري تحكمه مقولة غير صريحة تقول إن تاريخنا لا يبدأ على أرضنا … وهي مقولة تهدم كل أسس العلم — منهجًا ومبحثًا ونظريات — ومن ثَم لن تهدينا بل تزيدنا ضلالًا. وإذا ضللنا الطريق لن نعرف إلى أين نسير، بل سنقنع بتهويمات تقتلع جذورنا من الواقع.

وكتابنا هذا يطيح بإحدى البديهيات التي ترسَّخت في الأذهان، وأضحت — شأن البديهيات الأخرى — لبنة أساسية، بل محورًا لإطار فكري حاكم، ننطلق منه وننظر إلى الأحداث على هديه وفي ضوئه، وإن خالفته الوقائع؛ كذَّبنا الواقع، وعُدنا إلى بديهيتنا إمامًا مطلقًا له الحاكمية.

ولهذا أقول إن هذا الكتاب صدمة لنا؛ إذ تتكشَّف لنا أسطورة كبرى ومؤامرة حكمت التاريخ، واستبدَّت بفكر الإنسانية، وهي جزء من سياسة عالمية امتدت قرونًا … وإذا كانت الحقيقة هي الطريق والمنطلق إلى الحرية، فإن التزييف هو الطريق إلى العبودية أو الاستعباد والضلال … وإذا كانت الإنسانية عاشت قرونًا أسيرة أوهام، إلا أن المعاناة الحقة، والآثار الجنائية، إنما وقعت على كاهل من سلبناهم الحقيقة، وزيَّفنا تاريخهم … فهؤلاء هم الضحية.

والتزييف لا يبدأ دائمًا من تأويل النص على نحوٍ يخلق أفقًا زائفًا لنشاط الإنسان؛ بل إنه قد يبدأ بابتداع النص فيكون كذبة في مبدئه، وضلالًا في مسيرته، وسلبًا لأفق الفعالية الصحيحة، ويضيع الطريق من صاحبه، وقد تلقن أسطورة تضخَّمت وترسَّخت مع التاريخ.

وإذا كانت الحضارة الخصبة الولودة المتجددة هي ثمرة حوار بين الإنسان/المجتمع وبين الواقع/البيئة — حاضرًا وتاريخًا — فإن مثل هذا الحوار لا يقوم على كذبة وإلا فإنه لن يكون منتِجًا أبدًا، ومن ثَم يظل المجتمع عقيمًا. وإنما شرط خصوبة الحوار هو الصدق … صدق الرؤية؛ أعني التزام الحقيقة على هدًى عقلاني نقدي مع الإنسان في تاريخه وحاضره وعلاقاته ومنظوره المستقبلي. ولعل في هذا مؤشرًا لجوهر أزمة وعينا بالتاريخ ومن ثَم أزمة الانتماء.

تزييف الوعي

إن مصر-أفريقيا، ومصر-العرب، ومصر-المتوسط في غيبة أو مغيبة عن حقيقة تاريخها بعد أن حجبته أقنعة مصطنَعة، وأساطير لبست ثوب الحقائق وباتت مرجعًا يُستشَهد به … روايات غير محقَّقة، أحاطت بها هالة ذات قدسية حينًا، أو أكاديمية حينًا آخر، وظلت محور صراع بين شعوب المنطقة؛ ولم نسأل أنفسنا عن جوهر هذا الصراع وحقيقته ومبتدئه وفعاليته في التاريخ، وطبيعة القوى المادية والروحية أو الثقافية المحرِّكة للبشر أو ما نسميه دينامية أحداث التاريخ.

اصطلحت قوًى عديدة على مناهضة تاريخ مصر-أفريقيا، وإدانته، وإن لم تتوافق زمانًا فقد اتفقت — رأيًا ورؤية — منذ سقوط الحضارة المصرية على أيدي الفرس إلى الغزو الأوروبي … فهي حينًا حضارة وثنية ملعونة، وحينًا آخر حضارة مجهولة المنشأ والفاعل … أو أقامها أناس بيض أسطوريون اختفوا من الوجود … من أين جاءوا؟ وإلى أين رحلوا؟ لا أحد يعلم. وتشكِّل هذه الرؤية في جميع الأحوال، وعلى تباينها «أسطورة فاعلة»، أو «حقيقة» اجتماعية شغالة، بل ومقدمة أكاديمية ومنطلقًا للفكر والسلوك.

نحكي عن غزوات القوى الخارجية لمصر مع تعاقب الزمن والعهود، ونصوغ الرؤية صياغة محايدة تخفي كل نوازع ودوافع ومظاهر الحركة والتناقض أو الصراع بين صفوف قوى المجتمع، سواء داخل مصر أو الزاحفة إليها، لماذا سقطت الحضارة المصرية؟ لا نجد إجابة تكشف لنا الأسباب وتاريخيَّتها وعوامل تحلُّلها. ما هو دور القوى الغازية — على تعدُّدها وتعاقبها وتعارضها — وحقيقة الصراعات بينها وبين مصر الحضارة، مصر القوة التاريخية الجغرافية العسكرية الاقتصادية أي الحاكمة للمنطقة؟ نتحدث عن هذه القوى وكأنها وافدة زائرة، وفدوا ضيوفًا على أرض مباحة أو مستباحة لهم أن يدخلوها آمنين … ونقول — على سبيل المثال — دخول أو فتح الفرس أو الرومان أو غيرهم مصر … ولكن

لماذا؟ وماذا حدث؟ ما هي الأطماع والصراعات والتناقضات؟ ما هي الآثار السلبية على مصر، والتي امتد تأثيرها وتفاقمت؟ وهل حقًّا شعب مصر، سمته وخصوصيته، الترحيب بالوافدين الغزاة ... أعني الاستكانة والاستسلام كما يشاع؟ أم كيف صاغت أحداث التاريخ وأقنعة الأيديولوجيا والظروف الاجتماعية ... أعني كيف صاغت عمليات التزييف الروحي، والنهب المادي، والواقع المأساوي استجابات الإنسان المصري؟ وما هو مدلول الحشود الوافدة الغازية؟ مدلولها الثقافي والجنسي. أعني إلى أي مدى أثَّرت جحافل الغزاة الذين استوطنوا في الثقافة السائدة التي اغتذى عليها الإنسان المصري؟ وكيف أثَّرت في التركيب الجنسي للإنسان المصري؟ وكيف انعكس هذا التزييف في حقيقة الانتماء للتاريخ والوعي بالتاريخ ووحدة التاريخ والمواطنة؛ بحيث كان حصاد السنين ما نراه اليوم؟

السقوط والعزل العنصري

إنني أزعم أن مصر واجهت محاولات خِصاء ثقافي على أيدي الغزاة جميعًا في تعاقبهم وصراعاتهم للاستئثار بالفريسة. وأزعم أن مصر عاشت في معزل عنصري «أبارتهيد» منذ تاريخ سقوط الحضارة المصرية إلى تاريخ انبعاث حركة النهضة الحديثة، أو عودة الروح المصرية على أيدي رفاعة الطهطاوي، أول من تحدث عن مصر الحضارة، وطالب بوحدة تاريخها، وأحمد عرابي أول من أطلق صيحة الفلاح المصري مطالبًا بحق المشاركة في صُنع القرار، وليس محمد علي كما هو شائع رسميًّا، والذي كان مناسبة لا سببًا. وحين أقول مصر فأنا أعني مصر الزراعة، اقتصادًا وجغرافية وثقافة ... مصر الفلاح والأرض السوداء ... التي عانت من سيطرة وسطوة الأجنبي الغازي وعدائه لثقافتها إلى حد القتل وفرض عليها العزلة.

جميع الغزاة — في تعاقبهم — ناصبوا الثقافة المصرية العداء القاتل، وجميع الغزاة، ابتداء من الفرس، عمدوا إلى تدمير ونهب ثروات مصر المادية والروحية ... إنهم لم يستنزفوا خيراتها الاقتصادية فحسب، بل عاثوا في أرضها فسادًا، ودمَّروا بيوت ومؤسسات الثقافة فيها. نهبوا الكتب، ودمَّروا المعابد، وأخرسوا الكهنة. لم تكن معابد مصر — المنتشرة في ربوعها — مجرد أماكن عبادة، يَؤمُّها المصلون لأداء طقوس ثم ينفضُّوا؛ بل كانت — في المحل الأول — المطبخ الثقافي ... أو ترسانة الثقافة ... للتثقيف، وصناعة الثقافة. وهي خزانة الوعي الثقافي الاجتماعي، تصُوغ رؤية المجتمع وإطاره الفكري. ولهذا كانت مستهدَفة — دائمًا — من الغزاة لتدميرها؛ رغبة منهم في تدمير منابع الثقافة المصرية

وإحكام السيطرة. ولم يكن الكهنة — في مجموعهم — مجرد رجال دين يلقُون مواعظ للتخويف والترويع، بل كانوا — بدرجاتهم وفئاتهم المختلفة — رجال علم: علم دنيا وعلم دين وصنَّاع معرفة. وقد كانت المعرفة — بجميع أشكالها — قدسية الطابع، إلهية الطبيعة حسب عقيدتهم ... والعارف العالِم رجل قدسي لما حظي به من علم ومعرفة ... ولهذا كتبوا علومهم للخاصة بلغة مقدسة هي الهيروغليفية. وحري أن نأتي هنا، بشهادة مؤرخ قديم غير مصري، هو ديودور الصقلي، وقد عاش في الإسكندرية في القرن الأول قبل الميلاد، ويدلي بشهادته فيقول: إن الفرس، بقيادة قمبيز أشعلوا النيران في كل معابد مصر، وحملوا معهم كلَّ الكنوز إلى آسيا، واقتادوا — قسرًا — عمالًا مصريين لبناء القصور الشهيرة، وبعض المدن في ميديا.[1] وهذا ما فعله كلُّ الغزاة، ابتداء من الفرس؛ انقضُّوا — في تعاقب — على الفريسة، ينهشون كنوزها، ويدمرون ثقافتها، ويستنزفون خيراتها. وكان الحدث الأكبر الذي قطع الحبل السري الواصل بين ثقافة المجتمع — كمؤسسة — وبين أبناء المجتمع حين أصدر كلٌّ من الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس، في القرن الرابع الميلادي، ومن بعده جوستنيان في القرن السادس الميلادي، مرسومًا بإغلاق المعابد المصرية وتحريم تعاليمها، وتجريم العبادة أو تلقي العلم فيها ... أي تسريح المؤمنين والقضاء على النظام الثقافي الاجتماعي. وكان هذان القراران المحاولة الرسمية السافرة لإلغاء الذاتية الثقافية المصرية لتبقى مجردة من كل مقومات البقاء والتطور في استقلال، ومن الفعالية الاجتماعية المميزة. إن الغزوات والحروب، حتى وإن تخفَّت وراء أقنعة أيديولوجية تتحدث عن نقل حضارة أو إبلاغ رسالة وتحقيق مدنية، إنما تهدف، أولًا وقبل كل شيء، إلى الهيمنة على عقول المجتمع الضحية، وقطع موارد الإمداد الثقافي، واستئصال منابع الذاتية الثقافية المعبِّرة عن وحدة المجتمع وتضامنه وانتمائه، وهذا هو عين ما استهدفته جميع الغزوات المتعاقبة، بقوة السيف والسلطان حينًا، وقوة التحريم والإدانة حينًا آخر، ليبقى المجتمع أعزل في حالة خواء ... إنه قتل الروح وبقاء الجسد يدر على الغازي عطاءً ماديًّا، وقد تحللت عوامل الترابط والتضافر المجتمعي، وسقطت أسباب الوعي التاريخي الاجتماعي، وأسباب الوجود المستقل والتفرد في الفكر والثقافة والقدرة على الفعل والتفاعل. ويتحوَّل المجتمع إلى تجمُّع بشري راكد عاطل من العطاء، مفكك الأواصر، بغير هدف مجتمعي

[1] شيخ أنتا ديوب: الأصول الزنجية للحضارة المصرية، ترجمة حليم طوسون، دار العالم الثالث، القاهرة ١٩٩٥م، ص١١٢.

مشترك يسعى إليه، وبغير حافز قوي إلى التغيير … وهكذا نعيش فرادى يضمنا مكان بغير زمان، وننتمي إلى تاريخ لم تجرِ أحداثه على أرضنا، وهل يستطيع مجتمع أن يتلاحم وتقوى أواصره ويسعى إلى تغيير واقعه نحو هدف واحد وموحد بدون ثقافة مجتمعية وليدة جهده ونشاطه ومعاناته؟ أليس هذا هو عين السقوط الحضاري؟ إن الحضارة هي التصدي — على الصعيد الاجتماعي — في تلاحم لعوامل التحدي والفناء من أجل البقاء وتغيير المجتمع في اتجاه القدرة على التجديد.

واقع ولا تاريخ

تتراوح حركة المجتمع ما بين حافز إلى التغيير … تغيير الواقع ومواجهة تحدياته ضد كل أسباب التحلل وفقدان الذاتية … وما بين نكوص أو رِدة إلى أصول. وهذه الرِّدة هي ميكانيزم أو آلية دفاعية عن الذات بسبب تعذُّر أو تعثُّر المواجهة وفقدان أدواتها. وتكون الكارثة أشد حال فقدان الوعي بالأصول والعيش في جمود. والشعب المصري في حالة الأبارتهيد أو العزلة والفردية والخِصاء الثقافي لتاريخه وتجريده من مقومات الفعل والعطاء والانتماء، وهي حالة فرضها عليه جميع الغزاة، عاش محرومًا من الأمرين معًا، عاطلًا من إمكانات التغيير والمواجهة … وعاطلًا من الوعي بالتاريخ وبالتضامن الاجتماعي الذي يشكِّل ملاذًا ووقاء، إلى حين، وقت الضعف؛ أو يكون عند الصحوة ركيزة للوعي النقدي العقلاني لتحويل الماضي إلى قوة دفع جمعي … وهكذا عاش قرونًا مأساة لا مثيل لها، من حيث بؤس الواقع وبؤس الوعي التاريخي.

نحن لم نصنع تاريخًا على مدى أكثر من ألفي عام … والوجود الإنساني جوهره تاريخ، وهو تاريخ وعي اجتماعي له مردوده العرفاني، وهو فعل ونشاط وإنتاج أبناء المجتمع الأصليين باعتبارهم شركاء متضامنين لا شركاء موصيين … وبدون ذلك، يبدو التاريخ مجرد امتداد ما دام افتقر إلى الفعل الواعي أو الفعل والوعي — معًا — كوجهين للوجود المجتمعي.

والتاريخ صناعة أو إنتاج الذات الاجتماعية لنفسها في إطار التحديات من أجل البقاء والوعي بالذات … وهو الخلق الموضوعي للذات الاجتماعية … وإذا غاب الوعي، غاب الفعل الهادف، وركد التاريخ أو انمحى … ولكن المصري عاش في حالة آنية متصلة، همُّه الخلاص الفردي، هربًا أو تملُّقًا أو كدحًا؛ فكل الغزاة حلُّوا عليه سادة. استوطنوا الأرض وعاشوا بغير انتماء إلى التاريخ أو الفعل الاجتماعي الجهيض أو إلى العقل المصري الأسير … وإن

اعتادوا — على مدى تعاقب موجاتهم طوال آلاف السنين — أن ينزح المهزوم منهم إلى داخل الصفوف. ولكن ماذا أثمر التسلط الأجنبي؟ وما هي الآثار الثقافية على المجتمع بفعل غزوات وعمليات استيطان واسعة لجماعات بشرية غريبة أو مغتربة.

إن الذاتية الإنسانية بفضل التاريخ، أي بفضل الفعل الحر، تغدو أكثر ثراء معرفيًّا، ومن ثَم ارتقاء حضاريًّا يستوعب الماضي ونشاط الحاضر ورؤى المستقبل.

ويفسر لنا هذا حالة فقرنا — الفقر الفكري والتاريخي والوعي البائس — وهو ما نسميه — إيجازًا — التخلف وتعطُّل إرادة التغيير. وحين يدخل الماضي مجال الوعي العقلاني النقدي فإنه يحرك فينا نوازع الفعل والتغيير وإنتاج الوجود ومواجهة التحديات لأن الماضي، بدون وعي به، هو الغريزة وحياة الآنية والفناء في اللحظة الراهنة، ونفي للهدف والأمل والتطلعات على الصعيد المجتمعي. ولهذا نقول إنه مع سقوط الحضارة المصرية لم يعُد الوجود المجتمعي للإنسان المصري بمثابة مشروع حر يستمد حريته من العمل الإنساني والخبرة الحياتية المجمَّعة ... بل أضحت الحرية حرية فرد في الطاعة والانصياع. ولم يعد التاريخ تاريخ فعالية، أو فعل الإنسان/المجتمع، بل أسقط الفعل، ولم يبق غير الحيلة أو التحايل على المستوى الفردي، أو التوحد مع السلطان؛ وهذا هو جذر الفهلوة.

الاهتراء الثقافي

المجتمع المصري طُمِست صورته المشتركة أو الجماعية إثر سقوط حضارته وإهدار ثقافته التي هي حصاد وعيه المعرفي في التاريخ ... لم يعُد بالإمكان أن يدرك الإنسان المصري، كمجتمع، نفس الأشياء وفق ذات الإطار الموحد، باعتبارها واقعًا مشتركًا؛ إذ بات الواقع فرديًّا. ومع اختفاء إحساسنا بواقع مشترك، وبقضية مشتركة قومية؛ فقدنا أداتنا الوسيطة المشتركة، وفقدنا الحافز المشترك، والهم المشترك للتعبير وتواصل الخبرات ... تشرذم المجتمع إلى تجمُّع سكني. ومع تمزق الشمول المجتمعي، ومع فقدان الخبرة الفردية لخصوصيتها الكلية، أي العامة المشتركة تحلَّلت الثقافة إلا من أساطير، وتفكك التضامن الاجتماعي أو ساد مناخ الاهتراء الثقافي.

انتفى مناخ العمل الجمعي الموحد وقواعده؛ مما أفضى إلى حالة أنوميا أو خواء اجتماعي؛ إذ لم يعد الوجود الفردي راسخ الجذور في وسط اجتماعي ثابت ومتكامل وموحد. وفقدت الحياة معناها الذي يضفيه عليها الإنتاج الاجتماعي، وفَقَدَ النشاط دلالته وهدفه، وانتفى النشاط الفكري المجتمعي؛ فالغنى الروحي لا يتأتَّى بدون عمل جمعي

للإنسان/المجتمع، لأن هذا العمل يصنع الأمل، ويحفز إلى التغيير والإبداع؛ إذ يعبِّر — في صورة مجسدة — عن قدرة الإنسان على التأثير والخلق، ومن ثَم الثقة بالنفس.

ولعل في هذا إجابة على سؤال، إذا كانت مصر لها فخر الريادة والسبق الحضاري فلماذا توقفت عن العطاء؟ وفي هذا أيضًا بيان للفارق بين عمل جمعي إنتاجي في اتصال تاريخي، وبين عمل فردي هو الكدح بعينه، وقد سقطت عنه رابطة المجتمع. والعمل الذي فقدته مصر هو الإنتاج الجمعي الذي يجسِّد الخبرة الإبداعية والمهارة الاجتماعية وقيم المجتمع في التاريخ، ويرمز إلى وحدة المجتمع وتضامنه، وإلى عناصر تميزه أو تمايزه في إطار إيكولوجي تاريخي لأنه رهن السياق البيئي في شموله، جغرافيًّا وتاريخيًّا وثقافيًّا أو إنسانيًّا بوجه عام، ولهذا يقترن جمود المجتمع بجدب عرفاني وتحلل ثقافي.

النشاط المجتمعي شرط إنتاج المعرفة

إن إنتاج أبسط الأدوات يشتمل — ضمنًا — على إنتاج معرفة ومهارات وقيم، أو بعبارة أخرى، إن الأداة هي معرفة ومهارات وقيم مجسَّدة في موضوع أو شيء. والعمل والإنتاج من حيث هما نشاط جمعي منهجي هادف ومنظم، ومن حيث هما صياغة وحلول لمهام وإنجازات لأهداف محددة مجتمعيًّا جرى إعدادها فكريًّا قبل نتائج العمل واستجابة لمهام العمل واتساقًا مع وسائله، أي كانت موضوع تأمل وتحليل وتفكير، ومحاولة وخطأ وتنظير وتراكم معرفي تاريخي ومراجعة قِيَمية، فإنهما — بذلك كله — يمثِّلان أنشطة لكائن أو مجتمع قادر على المعرفة، ويمتلك وعيًا أو عقلًا بالمعنى الاجتماعي التاريخي لمصطلح الوعي.

وفي ضوء هذا نقول إن الحدث التاريخي هو فعل إنساني اجتماعي، ونشاط مجتمعي هادف يترسب في الوعي كخبرة تاريخية للمجتمع تتراكم، ليس كميًّا، بل يتمثَّل تراكمها في تطور كيفي للمعرفة والسلوك والإنجازات … معرفة متطورة متباينة هي الإبداع في تفرده الثقافي المعبِّر عن خصوصية إيكولوجية للإنسان/المجتمع/البيئة في التاريخ، وما يفرضه هذا السياق من مهام وتحديات للبقاء.

ولهذا أيضًا نقول إن الحدث التاريخي المجتمعي حدث هادف لا يحدث بسبب، أعني ليس مجرد رد فعل ميكانيكي شأن الحدث في الطبيعة، وإنما يحدث من أجل. لا يصنعه الماضي، لزومًا واضطرارًا ميكانيكيًّا بل يصنعه المستقبل، أي الهدف الاجتماعي حين يكون المجتمع نشِطًا فعالًا له فكره ورؤيته. وبذا يكون الفعل الإنساني، أو لنقل التاريخ في

اتصاله، هو مشروع وجود وليس مجرد أحداث أو وقائع متجاورة أو متعاقبة، ولا مجرد نتيجة لفعل خارجي. وهنا يتكامل — جدليًّا — الفعل الإنساني المجتمعي والنشاط المعرفي؛ حيث تكون المعرفة هي حصاد سياق النشاط الإنساني في المجتمع، وجماع التطور والنمو في التاريخ أو الزمان، وتكون حافزًا لفعلٍ اجتماعي جديد، ويشكِّلان — معًا — وعي الإنسان في التاريخ، ورؤية المجتمع للذات والمستقبل.

أما المجتمع الذي تسوده فردية قاهرة، بفعل قسر يحطم البنية الحضارية للمجتمع ... فردية تقطع علاقات التداخل والتفاعل بين أبنائه، وتحجب فعاليته وترابطه الجمعي بين أبنائه، وبينه وبين المجتمعات الأخرى (شأن مصر بعد انهيارها الحضاري)، مثل هذا المجتمع يفقد قدرته على العطاء الإبداعي الجمعي، أي يفقد إرادة جمعية للبناء والتغيير وإبداع المعرفة ... مثال ذلك خبرة المجتمع عن الطقس والفصول والتقويم السنوي وغير ذلك مما أبدعه المصريون القدماء، هذه الخبرة ليست وليدة تأمل فردي، بل تأمل أجيال المجتمع في تعاقب وترابط ومصالح مشتركة تشكِّل بؤرة اهتمام النشاط الاجتماعي وحياة في جغرافيا مشتركة.

وحين نتحدث عن العمل والمعرفة حري بنا أن ندرك أنه ليس أي نشاط يفضي إلى فكر، ويولِّد معرفة علمية ... بل نشاط منهجي مشترك يعكس مصالح مشتركة ... نشاط استقصائي ومجتمعي متفاعل وفق خطوات وقواعد متعارف عليها. النشاط الاستقصائي هو بذرة التجريب، بذرة حوار الذهن مع الواقع لفهم الظاهرة، ومراجعة الواقع في إطار شهادة مجتمعية ... حوار الذهن مع نفسه (الذي هو رصيد خبرات مجتمعية)، ومع الواقع إزاء الظاهرة ... وهو حوار نقدي يلتمس الخطأ والصواب دون تقليد أو انقياد؛ فالذي أنشأ الحضارة، وأقام الثقافة هو جدل الإنسان مع الواقع من جهة، وحواره النقدي مع النص الموروث من جهة أخرى. فإن تفاعل الإنسان من حيث هو مجتمع مع الواقع، وجدله معه — بكل ما ينتظم في هذا الواقع من أبنية اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية — هو الذي ينشئ الحضارة، ويدفعها قُدُمًا ماديًّا وروحيًّا.

أثر تجفيف منابع الثقافة المصرية

ومع جفاف منابع الثقافة القومية، وغياب العمل المجتمعي المعبِّر عن العلاقة الإبداعية بين الإنسان والبيئة في صورة معرفة، ومع تعاقب الغزاة والتسلط؛ غاب الوعي التاريخي أو الوعي بالتاريخ، وتعطَّلت قدرة المجتمع على صياغة صورة عن ذاته ممتدة من الماضي

إلى مستقبل يهدف إليه بجهده، علمًا وعملًا، عبر الحاضر. فالأمة تفكر لنفسها وبنفسها، أي يكون لها فكرها المستقل، ويتوفر لها ركن من أركان الإرادة الجمعية حين تعي ذاتها التاريخية في استجابة لتحديات مفروضة على هدي مشروع عملي مستقبلي. والوعي بالتاريخ الذي أعنيه هو إطار نَسَقي للوعي بالذاتية القومية في بُعدي الزمان والمكان، أعني تاريخية علاقة المجتمع بالبيئة في امتداد زماني وعلاقته بالآخر، أي بالمجتمعات الأخرى، سلبًا وإيجابًا، في سياق الفاعلية.

لهذا سقطت الحضارة؛ إذ إنها رهن التحرر والانتماء ... التحرر في إدارة الأدوات الثقافية إدارة واعية على الصعيد المجتمعي، وبدون التحرر تسقط الإرادة المجتمعية، وينتفي نفوذ المجتمع في تطوير وإبداع ثقافته، وفي الحوار مع الثقافات الأخرى، لأن الحضارة — أيضًا — تحرر الوعي بالذات أو الانتماء الواعي ... وإذا سقط هذا الوعي سقطت مشاعر النحن وحركة النحن ... وانتفى الشعور بالأزمة على صعيد المجتمع في شموله وهو أساس الحافز إلى التغيير، وانتفى الشعور بالتحدي المشترك، والفعل المشترك، والصورة المشتركة للمجتمع، ويبقى للناس الوعي بالتمزق، والوعي بالخواء وتفاهة الحياة، ولا نستطيع أن نقول هناك عقل مصري جمعي يواجه التحدي، ويستجيب، بفضل قدراته المجتمعية، فكرًا وثقافة وإنتاجًا، والحضارة استجابة فكرية ومادية منتظمة مجتمعيًّا ضد أسباب الفوضى والتمزق، وضد عوامل الفناء.

الانتماء فعل مجتمعي نشِط

والانتماء رهن وعي بالذاتية القومية على امتدادها التاريخي الاجتماعي، في سياق فعل مجتمعي نشط وهادف، تزدهر وتتعزز من خلاله هذه الذاتية؛ إذ إن هذا الوعي ذروة التلاحم بين الذات الجمعية وبين الواقع الحي كعملية تاريخية، أو هو تعبير عن إدراك أبناء المجتمع لخصائصهم كشخصية قومية متمايزة لها بُعدها التاريخي، ولعناصر ثقافتهم ممثَّلة في السلوك والقيم والعواطف والآمال والطموحات والمصالح المشتركة، وكل ما يشكِّل قوة ربط وتلاحم، ويمثل عامل تضامن ووحدة على الصعيد القومي، ويسبغ على النشاط العملي الاجتماعي طابع الوحدة والتجانس. وتتحقق، من خلاله، للمجتمع رؤية مشتركة لُحمتها وسَدَاها، تاريخه وخصوصيته، وحصاد ذلك مجسَّد في ثقافته، وجهده في تغيير الطبيعة وبناء حضارته ونظرته إلى المستقبل وإلى الحياة بعامة، ثم إدراك المرء لنفسه كعنصر متمايز عن الطبيعة التي يغيرها، وكوحدة في مجتمع متكامل يشكِّل نسقًا تاريخيًّا

له لغته ورموزه وطقوسه وعقائده وقِيمه وسلوكه وأسلوبه في التعامل مع النفس ومع الآخر، مجتمعًا وطبيعة.

والوعي بالذاتية القومية ليس نسقًا سلبيًّا، بل إنه عنصر نشط إبداعي فعَّال لأنه وليد التلاحم الإنتاجي بين الذات والمجتمع والطبيعة، والذي يعبَّر عنه في صورة منتج حضاري ورغبات وحاجات مطردة التغيير تدفع إلى مزيد من الإنتاج الإبداعي المعبِّر عن خصائص الذات الخالقة، وعن صورة انعكاس العالم الموضوعي في أذهان أبناء المجتمع، وعن ثراء هذا العالم. وبقدر ما يكون الوعي صورة للانتماء الاجتماعي، وبقدر ما يكون استيعابًا نقديًّا لثقافات الماضي وإمكانات الواقع، بقدر ما يكون تعبيرًا عن الحاجات والتطلعات الجمعية التي تشكِّل حافزًا مستمرًّا للبحث العملي والعلمي — معًا — في سياق حركة ممتدة متعددة الأبعاد.

ولعلنا في إطار هذا الفهم ندرك خطر المعزل العنصري الذي فرضه الغزاة المتعاقبون على الشعب المصري، وما أفضى إليه، هذا العزل والتسلط، من تجفيف لمنابع الثقافة، وقطع كل صلة تربط المصري بجذوره التاريخية، ولم يبقَ له غير الأسطورة، ولم يعُد لشعب مصر حضور فعال على ساحة التفاعل الاجتماعي والبناء والتغيير، ولم تعُد له قضية قومية.

البحث في الجذور

إن التحرك على طريق النهضة يستلزم، من بين أمور أخرى، إجراء دراسة حالة وصولًا إلى تشخيص جيد وفهم سليم للإنسان المصري؛ فهو العدة والهدف، الوسيلة والغاية. وإن الفهم الأعمق للإنسان والمجتمع يكون من خلال فهم ومعرفة البيئة التاريخية في نشوئها وتطورها، وصراعاتها ومعاناتها، والمواقف المختلفة، والغذاء الفكري وتحولاته ... إلخ، وسياق هذا كله وانعكاسه في الفكر والسلوك، ليس الهدف رواية وقائع، بل دراية بكيف حدثت الوقائع، وماذا فعلت بالإنسان المصري، وما هو طريق الإصلاح ... إصلاح بيئة المجتمع، وتصحيح التاريخ، وإيقاظ الوعي على هدي حس تاريخي صادق، ليكون هذا كله مقدمة أساسية لفعل مجتمعي نشِط يعبِّر عن إرادة جمعية وهدف مستقبلي مشترك. إنها قضية قومية لها أولوية قصوى، وهي إشكالية علمية أيضًا، سوف تتعدد وتتباين، وقد تتصارع بشأنها الآراء إلى حين تصحيح النهج والمسار.

لهذا كله، قلت إن الكتاب يمثِّل صدمة، بكل ما تعنيه كلمة صدمة من مسئوليات وواجبات علينا أن نضطلع بها، أفرادًا ومؤسسات، في مجالات الحياة العامة والسياسية

والإعلامية والعلمية والتعليمية وفي التنشئة الاجتماعية. وإن ما سوف يتمخض عنه الحوار العلمي والبحث الأكاديمي بشأن موضوع وقضايا هذا الكتاب، وغيره من كتب سارت على نفس النهج، لا بد وأن يكون مؤشرًا لمنحى جديد في حياتنا حتى نخطو أولى خطواتنا على طريق النهضة في مواكبة مع التغيير المادي للمجتمع وفعالية أبنائه.

إنني أتوقع، على سبيل المثال، أن تكون قضايا هذا الكتاب موضوعًا لأطروحات علمية في الدراسات العليا، في الفلسفة والتاريخ والاجتماع، وغير ذلك من علوم وثيقة الصلة. وقد يكون من الملائم أن تتضمن دروس التاريخ، بل والمطالعة، في المدارس مقتطفات من آراء العلماء في حضارة مصر، ومختارات من الأدب المصري القديم أسوة بالأدب في مراحله المختلفة حتى الحديث، وأن تتضمن دراسات عن إنجازات مصر في مجال السبق الحضاري في الفلك والفلسفة والطب والأخلاق والدين ... إلخ. وحري بنا أن نعيد صياغة دروس الرياضيات والفلسفة لنقول كمثال: نظرية فيثاغورس التي تعلمها في مصر: أو نقول معبد دلفي المصري في اليونان، أو فلاسفة اليونان تلامذة الفلسفة المصرية، وليس في هذا خطأ ... بل الخطأ هو البقاء أسرى تزييف التاريخ إذا ما ثبتت التهمة، والخطأ أن نظل ضحية مشاعر الدونية وحدود التحريم دون مسوَّغ موضوعي: والخطأ أن نردد، مع خصوم الحضارة المصرية القديمة، قولهم إن هي إلا أساطير أولين، أو إن التنقيب في أطلال الماضي مضيعة للوقت أو رِدة إلى وثنية مزعومة، وعلينا أن نقطع صلتنا بكل هذا الماضي «الهمجي»، واللحاق بالعالَم الحديث الذي بات قرية صغيرة بلا حدود قومية، وإن العلم سوف يحل مشكلاتنا، وقد كفانا عناء البحث عن حل لقضايانا الحاضرة وأزمتنا الراهنة، وإن البحث عن الماضي مشكلة محلية وثانوية باتت غير ذات موضوع.

والغريب أن دعاة هذا الرأي — جميعًا — هم أعلى الأصوات في الدعوة إلى التمسك بالتراث ... ولكن تراثهم هم، ويكفي أن نقول إن الغرب — على سبيل المثال — حين شرع في ثورة التحديث لم ينكر ماضيه، ولم يستنكره، بل إن التحديث اعتمد على الولاء الإبداعي للماضي، وليس قطع الصلة به، وهذا هو ما ندعو إليه: إيمان عقلاني نقدي بوحدة التاريخ المصري في اطراده ومراحله المتعاقبة وصولًا إلى العصر الحديث، وإيقاظ الوعي به على نحو موضوعي صادق.

علم التاريخ الذي نريده

لهذا لا نريد التاريخ روايات صماء، ولا نثار أحداث، ولا رؤية تصادر على الفهم الموضوعي؛ فلم يعُد التاريخ رواية حدث، ولا مجرد تأويل لهذا الحدث من منطلق التسليم به أو الانتقاء

الأيديولوجي، بل التاريخ إسقاط العلوم الاجتماعية على الماضي في ضوء حركة مستقبلية. ومن ثَم فأهم ما يعني المؤرخ الآن، الذي يؤمن بأن التاريخ هو الزمان الوجودي والفعل الواعي للإنسان/المجتمع/البيئة، هو فهم التحولات المادية والنفسية التي أثَّرت — بقوة ووضوح — على العوامل الإنسانية الحاكمة للحياة، واستكشاف الأطر المعرفية التي جرت في سياقها وعلى ضوئها الأحداث؟ كيف تشكَّلت، وكيف تكوَّنت؟ ولماذا؟ وفهم العوامل الأساسية الصانعة للإنسان منتِج التاريخ، وفهم الظروف؛ البؤس، المجاعات، والتسلط، والعلاقات، والطقوس ... إلخ، أسبابها وآثارها على الإنسان/ المجتمع؛ لهذا فإن فهمنا للإنسان المصري منطلقه تاريخية الوجود؛ الفعل والفكر ... ولكننا نتحدث عن نهضة وتغيير، وصحوة وانتماء ... إلخ، دون تحليل نقدي لمعنى مصر والمصريين في ضوء التاريخ كظاهرة وعملية نشوئية تكوينية دينامية نتعامل معها، وباعتباره موضوعًا للوعي النقدي، وأداة لإنتاج المستقبل.

إنني إذ أقدم هذا الكتاب لستُ من دعاة الردة، ولا تجاوز مراحل التاريخ أو الافتئات عليها، كما أنني لست من دعاة الإغراق في البحث عن الذات بالمعنى المبهم، أو تصور أن الذات وجودٌ مضى، نبحث عنه، ونستعيده من بين أطلال الماضي. ذلك لأن الذات القومية وجودٌ متصل وفعالية ممتدة وتفاعلٌ مطرد ... ولا أومن بالتحيز إلى نهج بذاته عند الدعوة إلى البحث عن الذات، أو تعريفها مسبقًا. فإن التحيز لغير الواقع الموضوعي والمنهج العلمي، يفضي إلى حجب حقائق تاريخية، ومن ثَم يدفع إلى الافتعال ... وهو ما نعاني منه، وأحد أسباب اختلال الأنا وقصور الفعل. والتحيز يفضي — عادة — إلى تضييق مجال البحث عن الهوية الثقافية، وحصره — دون مقتضى — في أي من الدوائر النظرية الثلاث؛ الدينية أو القومية أو الإقليمية بالمعنى اللاتاريخي. وواقع حالنا — اللاتاريخي — حافل بمحاولات افتعال صورة للذات ليست هي الحقيقة، وإنما إشباع لهوًى طغى، والتزام أو انسياق، أو لِنقُل انصياع لمحورية هي بطبيعتها منافية للعلم ... حينًا محورية أوروبية خضوعًا لهيمنة الفكر الأوروبي، وحينًا محورية ذاتية تمثِّل أيديولوجية ماضوية ضيقة الأفق، تنطوي على رِدة إلى واقع محدود هو أيضًا لا تاريخي وغير دينامي ... ونحن، في جميع الأحيان، نردد الوافد بعد اقتلاع الجذور.

إننا في مصر، كدائرة لواقع له تاريخه وامتداده العضوي والفكري الأفريقي والعربي والمتوسطي، بحاجة إلى التزام منهج التحليل والتركيب لتحديد صورة الذات التي تولَّدت

في تعاقب زمني حضاري، صعودًا أو هبوطًا؛ وأسهم هذا كله — بإيجابياته وسلبياته — في صياغة تراث، نحن في مسيس الحاجة إلى دراسته سوسيولوجيًّا. وإن سبر أغوار نفسنا الاجتماعية، أو وعينا أو تراثنا الواعي وغير الواعي لا يكون إلا باعترافٍ منا بالبعد الزماني، وبالفاعلية والتفاعلية أو الانفعالية الإنسانية في التاريخ ... والنفاذ إلى البعد الزماني يعني نفاذًا إلى العمق النابع من دراسة المجتمع باعتباره تجمعًا ديناميًّا لقوى تعبِّر عن ذاتها وتتجلى في صيرورة مطردة ومتصلة ... الكشف عن البعد الإنساني في التاريخ وعاء التراث باعتباره امتدادًا ... ولن يكشف لنا هذا غير فهم العمليات الاجتماعية والمؤسسات الاجتماعية في الزمان.

وفي هذا الاتجاه يضع مؤلف كتاب «التراث المسروق» عناصر فلسفة جديدة هي فلسفة تحرير ووفاء أو رد اعتبار للإنسان الأفريقي ... وهدفها هو تحرير أنفسنا وتحرير أوروبا وكل أصحاب الأقنعة الأيديولوجية من أخطاء التاريخ، ومن ممارسات غير موضوعية بل عنصرية وعرقية.

ولا ريب في أن هذا الكتاب، شأن كل الأعمال التي تتصف بجرأة الريادة، قد تشوبه بعض المآخذ، من حيث التأويل أو الاستنتاجات، على الرغم من صواب جزئيات المعلومات. من ذلك، مثلًا، أننا لا نستطيع أن نقول إن الثقافات، شأنها شأن الجوامد في حركتها، تنتقل من مجتمع إلى آخر، أي من بيئة إنسانية واجتماعية وطبيعية إلى بيئة أخرى انتقالًا آليًّا، فتكون نسخة طبق الأصل، على مدى الحياة المغايرة، دون أن تظهر عليها بصمة البيئة الجديدة، خاصة إذا كانت بيئة نشطة، ولها عناصر تميُّزها وتفرُّدها، ولها مجالات تفاعلها. هذه وغيرها، من قضايا علمية، تجعل إشكاليته منطلقًا لدراسات هامة «وجادة» وموضوعية التماسًا للحقيقة. فالسبيل الوحيد إلى النهوض هو التفكير والعمل من خلال الحقيقة ... حقيقة التاريخ وحقيقة الواقع الراهن؛ هداية صائبة لخطونا نحو مستقبل نحن صُنَّاعه.

شوقي جلال

مقدمة

خصائص الفلسفة اليونانية

بدايةً أوضح أن مصطلح الفلسفة اليونانية أو الإغريقية هو تسمية خاطئة؛ حيث لا وجود لفلسفة لها هذه الخصوصية، لقد استحدث المصريون القدماء مذهبًا دينيًّا شديد التعقيد سُمِّي نظام الأسرار، والذي كان أيضًا أول مذهب عن الخلاص.

ويرى هذا المذهب أن جسد الإنسان سجن النفس التي يمكن لها أن تتحرر من قيودها البدنية، وذلك عن طريق التمرس على فروع المعرفة، من فنون وعلوم؛ وبذا ترتقي وتسمو من مستوى الوجود الفاني إلى مستوًى إلهي خالد، وكان هذا هو مفهوم الخير الأسمى الذي يتعين على جميع الناس أن ينشدوه وأن يطمحوا إليه؛ كما أصبح أساسًا لجميع المفاهيم الأخلاقية. وكان نظام الأسرار المصري نظامًا يتوخى السرية، كما كانت العضوية فيه رهن المبادرة الشخصية والتعهد بالحفاظ على السرية. ويتلقَّى المؤمن أو المريد المبتدئ التعاليم شفاهة، وتتدرج هذه التعاليم وفق مراتب متصاعدة. وطوَّر المصريون — في ظل ظروف السرية والتكتم هذه — نظمًا سرية للكتابة والتعليم؛ وحظروا على أعضائها تدوين ما يتلقونه.

وبعد الحظر الذي فرضه المصريون قرابة خمسة آلاف سنة على دخول الإغريق مصر سمحوا لهم بدخولها بغرض تلقي العلم، واستطاع اليونانيون الدخول — لأول مرة — عن طريق الغزو الفارسي لمصر، ثم عن طريق غزو الإسكندر الأكبر. ومن ثَم فإن اليونانيين القدماء، منذ القرن السادس ق.م. وحتى موت أرسطو (٣٢٢ق.م.) استثمروا — إلى أقصى حدٍّ — الفرصة التي أتيحت لهم لتعلُّم كل ما يستطيعون تعلُّمه من الثقافة المصرية، وتلقَّى غالبية التلاميذ تعاليمهم مباشرة من الكهنة المصريين. ولكن عقب غزو

الإسكندر الأكبر لمصر تم نهب وسلب المعابد والمكتبات الملكية غنيمة. وحولت مدرسة أرسطو مكتبة الإسكندرية إلى مركز أبحاث، ولهذا لا غرابة؛ إذ يتأكد لنا أن الإنتاج الوفير — على نحو استثنائي وغير مألوف — من الكتب المنسوبة إلى أرسطو أمر مستحيل تمامًا من حيث القدرة الطبيعية طوال حياة فرد بذاته.

إن تاريخ أرسطو أساء إليه أكثر مما نفعه؛ إذ حرص على تجنُّب أي إشارة إلى زيارته مصر، سواء لحسابه الخاص أو في صحبة الإسكندر الأكبر حين غزا مصر. وإخفاء هذا التاريخ يثير الشك فيما يتعلق بحياة أرسطو وإنجازاته. قيل إنه قضى عشرين عامًا تلميذًا يتعلم بين يدَي أفلاطون، الذي كان الإغريق يعتبرونه فيلسوفًا آنذاك، وإلى أن تخرج أرسطو ليُوصَف بأنه أعظم علماء عصره في الزمن القديم، بيد أن بالإمكان أن نطرح هنا سؤالين:

(أ) كيف استطاع أفلاطون أن يعلِّم أرسطو علومًا لم يكن أفلاطون نفسه يعرفها؟

(ب) لماذا تعيَّن على أرسطو أن يقضي عشرين عامًا يتعلم على معلم صفر اليدين لن يتعلم منه شيئًا؟

إن هذه الرواية التاريخية غير قابلة للتصديق، ونلحظ، مرة أخرى، ورغبة في تجنب أسباب الشك في عدد الكتب الاستثنائي المنسوبة إلى أرسطو، يروي لنا التاريخ أن الإسكندر الأكبر منح أرسطو أموالًا ضخمة للحصول على الكتب، وهنا أيضًا تبدو رواية التاريخ بعيدة عن التصديق، مثلما يتعيَّن أن نوضح النقاط الثلاث التالية:

(أ) إن شراء كتب في العلم يعني أنها متداوَلة؛ بحيث يستطيع أرسطو ضمان حصوله عليها.

(ب) إذا كانت الكتب متداوَلة قبل شراء أرسطو لها، مع افتراض أنه لم يزُر مصر أبدًا، فلا بد وأن تكون هذه الكتب متداولة بين فلاسفة اليونان.

(ج) وإذا كانت الكتب متداولة بين فلاسفة اليونان، فإننا نتوقع أن يكون موضوع هذه الكتب معروفًا قبل زمن أرسطو؛ ومن ثَم لا يمكن أن نصدق أنه هو صاحبها، أو أنه أضاف أفكارًا جديدة عن العلم.

نقطة أخرى لها أهمية كبرى يتعين أن نضعها في الاعتبار، وهي موقف حكومة أثينا تجاه ما يُسمَّى الفلسفة اليونانية، والتي اعتادت أن تنظر إليها باعتبارها فلسفة أجنبية المنشأ، وتعاملت معها على هذا الأساس. ونحن لسنا بحاجة سوى إلى دراسة موجزة للتاريخ تبيِّن لنا أن فلاسفة اليونان — قديمًا — كانوا مواطنين غير مرغوب فيهم، وأنهم كانوا — طوال فترة بحوثهم — ضحايا اضطهاد شرس على أيدي السلطة الحاكمة في أثينا.

فها هو أناكساجوراس أودعته السلطات السجن ثم نفته. وأُعدِم سقراط وبِيع أفلاطون في سوق النخاسة، وقُدِّم أرسطو للمحاكمة ثم نُفي. أما أسبقهم جميعًا، وهو فيثاغورس، فقد طردته السلطات، وأبعدته من كروتون إلى إيطاليا ... هل نتخيل بعد ذلك أن اليونانيين القدماء تحولوا فجأة، وزعموا أنهم أصحاب ذات التعاليم التي اضطهدوها أول الأمر ونبذوها صراحة؟ إنهم كانوا يعرفون — يقينًا — أنهم يعمدون إلى نهب ما ليس لهم، وما لم ينتجوه، وسوف نكتشف، ونحن نتقدم في دراستنا هذه خطوة بعد خطوة، المزيد من الدلائل والبراهين التي تفضي بنا إلى نتيجة محددة مفادها أن فلاسفة اليونان لم يكونوا أصحاب الفلسفة اليونانية، وإنما أصحابها هم الكهنة المصريون وشرَّاح النصوص المقدسة والرموز السرية.

مات أرسطو عام ٣٢٢ق.م. أي قبل سنوات غير طويلة منذ أن ساعده الإسكندر الأكبر على ضمان الحصول على الكتب العلمية من المكتبات الملكية ومن المعابد في مصر. ولكن على الرغم من هذا الكنز الفكري العظيم كانت وفاة أرسطو علامة على موت الفلسفة بين الإغريق الذين لم تكن لديهم — على ما يبدو — القدرة الطبيعية على النهوض بهذه العلوم والتقدم بها. وترتب على ذلك، حسب رواية التاريخ، أن اضطر اليونانيون إلى دراسة علم الأخلاق الذي اقتبسوه — بدورهم — من مفهوم أو مبدأ الخير الأسمى Summum Bonum المصري.

ويتعين أن نذكر هنا الفيلسوفيْن الأثينيين الآخرين، أعني سقراط وأفلاطون؛ إذ اشتهرا — في التاريخ — كفيلسوفين ومفكرين عظيمين. ويعرف كل تلميذ الآن أنه حين يسمع أو يقرأ عبارة «اعرف نفسك» إنما يسمع أو يقرأ كلمات نطق بها سقراط. غير أن الحقيقة هي أن الجدران الخارجية للمعابد المصرية تحمل نقوشًا موجَّهة إلى المريدين الجدد، من بينها وصية تخاطب كلًّا منهم قائلة «اعرف نفسك»، ونَقَل سقراط هذه الكلمات عن المعابد المصرية، ولم يكن هو صاحبها. والملاحَظ أن جميع معابد نظم الأسرار المصرية الموجودة، سواء داخل أو خارج مصر، تحمل هذه النقوش، تمامًا شأن النشرات الأسبوعية التي تصدرها الكنائس الحديثة.

وبالمثل، يعتقد كل تلميذ أنه حين يسمع أو يقرأ أسماء الفضائل الأربعة الرئيسية إنما يسمع أو يقرأ أسماء الفضائل التي حددها لنا أفلاطون، ولكن لا شيء أكثر تضليلًا من هذا؛ ذلك لأن نظم الأسرار المصرية اشتملت على تسع فضائل. واقتبس أفلاطون، من هذا المصدر، ما عُرِف باسم الفضائل الرئيسية الأربعة: العدالة، والحكمة، والاعتدال، والشجاعة. وإنه

لأمر مثير للدهشة حقًّا أن يظل العالم الغربي يزجي المديح والثناء إلى اليونانيين القدماء — على مدى القرون — لإنجازات فكرية تخص — دون شك — المصريين أو شعوب شمال أفريقيا.

خاصية أخرى للفلسفة اليونانية لافتة للنظر، وهي أن غالبية فلاسفة اليونان اتخذوا من تعاليم فيثاغورس مثالًا لهم، ومن ثَم لم يضيفوا جديدًا في مجال الفلسفة. واشتمل مذهب فيثاغورس على مبادئ:

(أ) الأضداد.
(ب) التناغم.
(ج) النار.
(د) العقل، والذي يتألف من ذرات نارية.
(هـ) الخلود، والذي يتمثل في تناسخ الأرواح.
(و) الخير الأسمى أو غاية الفلسفة.

وتبدَّت هذه المبادئ — بطبيعة الحال — في مذاهب كلٍّ من هيرقليطس وبارمينيديس وديمقريطس وسقراط وأفلاطون وأرسطو.

الخاصية الثانية للفلسفة اليونانية هي استخدامها في الأدب، أي أن تكون مادة في عمل أدبي للانتفاع بها؛ ذلك أن نظام الأسرار المصري كان أول نظام أسرار عرفه التاريخ؛ وكان نشر تعاليمه ممنوعًا منعًا باتًّا. ويفسر لنا هذا السبب في أن مريدين مبتدئين، من أمثال سقراط، لم يكتبوا فلسفتهم، ولماذا أحجم البابليون والكلدانيون، وقد كانوا وثيقي الصلة بالمصريين، عن الإفصاح عن هذه التعاليم ونشرها.

وهكذا يبين — بوضوح تام — مدى سهولة أن تزعم أمة طموحة، بل وغيورة، أنها صاحبة مجموعة من المعارف غير المكتوبة، والتي تجعلها عظيمة في أعين العالم البدائي. ويتكشف لنا بطلان الزعم بسهولة إذا ما تذكرنا أن اللغة اليونانية القديمة كانت أداة لترجمة العديد من منظومات التعاليم التي عجز اليونانيين عن أن ينسبوها إلى أنفسهم. ومن هذه التعاليم ترجمة الكتب المقدسة العبرية إلى اليونانية القديمة، والمسماة الترجمة السبعينية[١] Septuagunt، وترجمة أناجيل العهد الجديد، وأعمال الرسل إلى اليونانيين،

[١] الترجمة اليونانية للعهد القديم، وقام بها ٧٢ عالمًا يهوديًّا في ٧٢ يومًا. (المترجِم عن قاموس المورد)

والتي لا تزال تحمل اسم العهد الجديد اليوناني. والملاحظ أن الفلسفة المصرية غير المكتوبة، والتي تمت ترجمتها إلى اليونانية القديمة، هي وحدها فقط التي لقيت هذا المصير البائس؛ تراث سرقه الإغريق.

وفي ضوء الأسباب سالفة الذكر وجدتني مضطرًّا إلى تناول موضوع هذا الكتاب على النحو الذي التزمت به؛ أعني:

(أ) أن أعيد وأكرر مرارًا، وسبب ذلك أن منهج الفلسفة اليونانية هو استخدام أساس مشترك لتفسير مبادئ مذهبية عديدة ومختلفة.

(ب) اقتباس وتحليل المبادئ المذهبية؛ ذلك لأن هدف هذا الكتاب الإبانة وتأكيد المنشأ المصري، وهو ما لا يتم — على نحو مُرضٍ — دون عرض وإبراز المبادئ المذهبية.

إن الفلسفة اليونانية أشبه بنوعٍ من الدراما، أبطالها الإسكندر الأكبر ومعه أرسطو وخلفاؤه في المدرسة المشائية، والإمبراطور الروماني جوستنيان. لقد غزا الإسكندر الأكبر مصر، واغتصب المكتبة الملكية في الإسكندرية ونهبها، واصطنع أرسطو مكتبة لنفسه من الكتب المنهوبة؛ بينما شغلت مدرسته المبنى واتخذته مركزًا للبحث. وأخيرًا ألغى جوستنيان، الإمبراطور الروماني، المعابد والمدارس المختصة بالفلسفة، وهو اسم آخر لنظام الأسرار المصري الذي زعم اليونانيون القدماء أنه إنتاجهم، وأنهم هم أصحابه؛ وبفضله تلقَّوا — زيفًا وبهتانًا — الثناء والتكريم من العالم على مدى قرون طويلة باعتبارهم أعظم المفكرين والفلاسفة. إن أصحاب هذا الإسهام الحضاري هم — حقًّا وصدقًا — المصريون والقارة الأفريقية، وليسوا الأوروبيين والقارة الأوروبية. ونحن نتساءل، أحيانًا، في دهشة: لماذا يستشعر أبناء القارة الأفريقية أنهم في مثل هذا المأزق الاجتماعي؟ غير أن الإجابة واضحة تمامًا.

إنه لولا هذه الدراما عن الفلسفة اليونانية وممثليها لأصبح لقارة أفريقيا شهرة أخرى مغايرة؛ ولحظيت بمكانة مرموقة ومحترمة بين أمم العالم. غير أن هذا الوضع التعس للقارة الأفريقية ولشعوبها هو — على ما يبدو — ثمرة تشويه الحقائق وحرفها، والذي اتخذ دعامة أقيم فوقها الانحياز العرقي، أعني الرأي العالمي التاريخي الزاعم أن القارة الأفريقية متخلفة، وشعوبها متخلفة، وحضارتهم — كذلك — حضارة متخلفة.

أخيرًا فإن التضليل في حركة الترويج للفلسفة اليونانية يبدو سافرًا وفاضحًا إلى أقصى مدًى عند الإشارة — عمدًا — إلى أن نظرية المربع المقام على وتر المثلث قائم الزاوية هي

نظرية فيثاغورس؛ وهو زعم أخفى الحقيقة قرونًا عن أعين العالم، وهو قمين بأن يعرف أن المصريين هم الذين علَّموا فيثاغورس واليونانيين الرياضيات التي عرفوها.

وأود أن أذكر هنا أنه من بين الكتب الكثيرة التي أعانتني على إنجاز كتابي هذا الكتب التالية:

Henri Frankfort:

– The intellectual Adventure of Man.

– The Egyptian Religion.

Eva Sandford:

– The Mediterranean World in Ancient Times.

جورج جي إم جيمس

أهداف الكتاب

هدف هذا الكتاب إرساء دعائم علاقات أفضل بين الأعراق، وذلك بالكشف عن حقيقة أساسية بشأن إسهام القارة الأفريقية في الحضارة الإنسانية. ولا بد وأن يستقر — في الأذهان — أن أول درس في الإنسانيات هو أن نجعل الناس يدركون دورهم وإسهامهم في الحضارة. والدرس الثاني تعليمهم أمور حضارات الآخرين. وعن طريق بذر الحقائق بشأن حضارات كل شعب على حدة، سوف يتولَّد، بالتالي، فهمٌ أفضل فيما بينهم، وتقدير صائب سديد من بعضهم إلى البعض الآخر. وترتكز هذه الفكرة على مفهوم العقل الموجه الأعظم: عليك أن تعرف الحقيقة، وسوف تجعلك الحقيقة حرًّا. ومن ثَم فإن الكتاب محاولة للإبانة عن أن أصحاب الفلسفة اليونانية الحقيقيين ليسوا هم اليونانيين القدماء، بل شعب شمال أفريقيا الذي اصطلحنا على أن نسميهم المصريين، وإن الثناء والتكريم الذي حظي بهما اليونانيون — زيفًا — على مدى قرون إنما أحق بهما شعب شمال أفريقيا والقارة الأفريقية بالتالي، ومن ثَم فإن هذه السرقة — للتراث الأفريقي — على أيدي اليونانيين القدماء قادت إلى رأي عالمي خاطئ يقضى بأن القارة لم تسهم بشيء في تاريخ الحضارة، وأن شعوبها — بالتالي — شعوب متخلفة بطبيعتها؛ هذا هو التضليل الذي أضحى أساسًا للانحياز العرقي، والذي أضرَّ بجميع الشعوب الملونة.

ظلَّ العالَم قرونًا طويلة مخدوعًا بشأن المنشأ الأول للفنون والعلوم، وظلَّ سقراط وأفلاطون وأرسطو قرونًا طويلة موضعَ تأليه، زيفًا وبهتانًا، باعتبارهم رموزًا لعظمة الفكر؛ وظلَّت القارة الأفريقية قرونًا تحمل اسم القارة المظلِمة؛ لأن أوروبا استأثرت بشرف نقل الفنون والعلوم إلى العالَم.

وإني لسعيد أي سعادة إذ أستطيع أن ألفت أنظار العالم إلى هذه المعلومات، وبهذه يمكن من ناحية أن تصل الحقيقة إلى جميع الأعراق والمعتقدات، ومن ثَم تتحرر من تلك

الانحيازات التي أفسدت العلاقات الإنسانية. ويمكن، من ناحية أخرى، أن يتحرر كل من هم من أصل أفريقي من عبودية عقدة النقص؛ ويدخلون حقبة جديدة من الحرية يشعرون خلالها بأنفسهم أحرارًا، لهم كل الحقوق والامتيازات الإنسانية.

الجزء الأول

الفصل الأول

الفلسفة اليونانية
فلسفة مصرية مسروقة

(١) تعاليم نظم الأسرار المصرية تصل إلى بلدان أخرى قبل أن تصل إلى أثينا بقرون طويلة

يروي التاريخ أن فيثاغورس عاد إلى جزيرة ساموس — مهبط رأسه — بعد أن تلقَّى ثقافته في مصر، وأسس في بلدته مذهبه الديني لفترة قصيرة، هاجر بعدها إلى كروتون (٥٤٠ق.م.) في جنوب إيطاليا؛ حيث تعاظم شأن مذهبه — بدرجة كبيرة — إلى أن تم طرده نهائيًّا من ذلك البلد. وقيل لنا أيضًا إن طاليس (٦٤٠ق.م.) الذي تلقى — هو الآخر — تعليمه في مصر، هو ورفيقه أنكسماندر وأناكسيمانز، كانوا جميعًا من مواطني أيونيا في آسيا الوسطى التي كانت قلعة من قلاع مدارس نظم الأسرار المصرية؛ حيث واصلوا طقوسهم وتعاليمهم هناك (انظر: ١٩٥، ٢٠٥)، وقيل لنا — بالمثل — إن أكزينوفان (٥٧٦ق.م.) وبارمينيديس وزينو وملیسوس كانوا أيضًا من مواطني أيونيا وهاجروا إلى إيليا في إيطاليا، واستقروا هناك ونشروا تعاليم نظم الأسرار المصرية.

وبلغنا — بالمثل — أن هيرقليطس (٥٣٠ق.م.) وأمبيدوقليس وأنكساجوراس وديمقريطس كانوا أيضًا من مواطني أيونيا، وعنوا بأمور الطبيعيات؛ لذلك فإننا، حين نتعقب مسار ما سُمِّي الفلسفة اليونانية نجد أن تلامذة أيونيا عادوا إلى موطنهم الأصلي بعد أن تلقَّوا تعليمهم على أيدي الكهنة المصريين؛ هذا بينما هاجر البعض الآخر إلى أنحاء أخرى من إيطاليا؛ حيث استقروا هناك.

ومن ثَم يوضح لنا التاريخ أن البلدان المجاورة لمصر أَلِفت — جميعها — نظم الأسرار المصرية قبل أثينا بقرون طويلة، البلد الذي حكم بالإعدام على سقراط عام ٣٩٩ق.م.

(انظر [٢]، ص١١٢، ١٢٧، ١٧٠، ١٧٢).[١] مما اضطر أفلاطون وأرسطو إلى الهرب من أثينا إنقاذًا لحياتهما. وسبب ذلك أن الفلسفة كانت أمرًا غريبًا أجنبيًّا غير معروف لديهم، ولهذا السبب نفسه يحق لنا أن نتوقع أن يبادر الأيونيون أو الإيطاليون بادعاء أنهم أصحاب فلسفة نظرًا لاقترانها بهم قبل الأثينيين بزمن طويل، خاصة وأن الأثينيين كانوا دائمًا ألد أعدائهم إلى أن غزا الإسكندر مصر، وهي الغزوة التي يسَّرت لأرسطو فرصة الوصول إلى مكتبة الإسكندرية دون عائق.

لم يبذل الأيونيون أو الإيطاليون أي محاولة لادعاء أنهم أصحاب الفلسفة، لأنهم يعرفون تمامًا أن المصريين هم أصحابها الحقيقيون. ومن ناحية أخرى، فإن تلامذة أرسطو الأثينيين اضطلعوا، بعد وفاته، ودون سندٍ من الدولة، بوضع مؤلف عن تاريخ الفلسفة، والتي كانت معروفة آنذاك باسم «سوفيا» أو حكمة المصريين، الأمر الذي كان سائدًا وتقليدًا متَّبعًا في العالم القديم. ونظرًا لأن هذا المصنَّف الدراسي قد وضعه تلامذة ينتمون إلى مدرسة أرسطو؛ فقد جرت العادة في مرحلة تالية من التاريخ على تسميته — خطأً — الفلسفة اليونانية، على الرغم من حقيقة أن اليونانيين القدماء كانوا ألد أعدائها وأشد مضطهديها، ودأبوا — عن عمد — على التعامل معها باعتبارها بدعة أجنبية. ولهذا السبب نقول إن ما يُسمَّى الفلسفة اليونانية إنما هو فلسفة مصرية مسروقة انتشرت أول الأمر في أيونيا ثم منها إلى إيطاليا وبعدها إلى أثينا. ويجب أن نتذكر أنه خلال هذه الفترة البعيدة من التاريخ اليوناني؛ أعني الفترة الممتدة من حياة طاليس إلى حياة أرسطو (٦٤٠ق.م. إلى ٣٢٢ق.م.) لم يكن الأيونيون مواطنين يونانيين، بل كانوا بداية رعايا مصريين، ثم بعد ذلك رعايا للفرس (انظر [٢]، ص٣٧، ٤٦، ٥٨، ٦٦، ٨٣، ١١٢، ١٢٧، ١٧٠، ١٧٢، وانظر [٣]، ص٣٤، ٣٩، ٤٥، ٥٣. وانظر [٤]، ص١٥، ١٣، ٢١، وانظر [١]، ص١٥٧، ١٩٥، ٢٠٠).

(وإن عرضًا موجزًا لتاريخ الإمبراطورية المصرية القديمة من شأنه أن يوضح لنا — أيضًا — أن آسيا الوسطى أو أيونيا كانت هي الأرض القديمة للحيثيين، ولم يكن لهؤلاء اسم آخر غير هذا في الزمن القديم).

ويروي لنا كل من ديودور، ومانيتو، أحد كبار الكهنة المصريين، أنه تم العثور على نصبين في العرابة المدفونة Nysa Arabia أحدهما للإلهة إيزيس والثاني للإله أوزيريس.

[١] الرقم الأول دال على المرجع حسب التسلسل المثبَت في نهاية الكتاب، والأرقام التالية دالة على الصفحات. (المترجم)

ومنقوش على الثاني قول الإله إنه قاد جيشًا عبر الهند إلى منابع نهر الدانوب حتى وصل إلى مشارف المحيط. معنى هذا — بطبيعة الحال — أن الإمبراطورية المصرية — خلال فترة زمنية باكرة جدًّا — لم تكن تشمل فقط جزر بحر إيجة وأيونيا، بل امتدت حتى الأطراف البعيدة من الشرق.

وعلمنا أيضًا أن سنوسرت الأول من الأسرة الثانية عشرة (حوالي ١٩٠٠ق.م.) غزا كل المنطقة المطلة على الساحل الشرقي للهند إلى ما وراء نهر الجانجز وحتى المحيط الشرقي. وقيل أيضًا إن غزواته شملت مجموعة جزر كيكلاديس[٢] وجزءًا واسعًا من أوروبا.

ثانيًا، تؤكد رسائل تل العمارنة، التي تم العثور عليها في الحكومية للملك المصري إخناتون، أن الإمبراطورية المصرية امتدت حتى غرب آسيا وسوريا وفلسطين، وأن سلطان مصر ظل — على مدى قرون عدة — صاحب السيادة والقوة الأعظم في العالم القديم، وكان هذا في الأسرة الثامنة عشرة أي حوالي ١٥٠٠ق.م.

وعرفنا أيضًا أنه خلال حكم تحوتمس الثالث امتد سلطان مصر، وتجاوز ساحل فلسطين ليشمل — جنوبًا — المنطقة الممتدة من النوبة وحتى آسيا الشمالية.

(٢) شكوك مطلَقة في تأليف مذاهب فردية مستقلة

كلما حاول المرء قراءة تاريخ الفلسفة اليونانية القديمة يكتشف غيابًا كاملًا لمعلومات جوهرية عن الحياة الباكرة، وعن ثقافة النشأة الأولى لمن يُسمَّون فلاسفة اليونان بدءًا من طاليس وحتى أرسطو. ولن نجد كاتبًا أو مؤرخًا واحدًا يعترف بأنه يعرف أي شيء عن تعليمهم في مطلع حياتهم. وإنما كل ما يقال لنا بشأنهم عبارة عن: (أ) تاريخ ومحل ميلاد مشكوك فيهما، (ب) مذاهبهم ومعتقداتهم، ولكن بقي العالم كله يتساءل في دهشة من هم؟ ومن أين تلقَّوا تعليمهم؟ ومن المتوقع — بطبيعة الحال — أن رجالًا احتلوا مكانة المعلمين بين أقاربهم وأصدقائهم وأقرانهم لا بد وأن يكونوا ذائعي الصيت ومعروفين جيدًا، ليس فقط بين ذويهم وأقرانهم، بل وبين المجتمع كله. ولكن الأمر على العكس من ذلك؛ إذ إننا نجد رجالًا جديرين بأن يحتلوا مكانهم وسط أول معلمي الفلسفة في التاريخ، والذين شبُّوا

[٢] جزر كيكلاديس Cyclades مجموعة جزر يونانية، مساحتها أكثر من ألف ميل مربع، وتقع جنوب بحر إريجه، وعاصمتها هيرموبوليس في جزيرة سيروس. (المترجم)

وترعرعوا من الطفولة إلى سن الرجولة، وعلَّموا تلاميذ لهم، يقدمهم لنا التاريخ باعتبارهم غير معروفين، ولا نجد أي آثار تحدثنا عن حياتهم المنزلية أو الاجتماعية أو التعليمية في باكر حياتهم وفي سن نشأتهم.

وهذا أمر لا يصدقه عقل، ومع هذا فهو الواقع؛ إذ إن تاريخ الفلسفة اليونانية قدَّم للعالم عددًا من الرجال لا يُعرَف عن حياة كل منهم سوى أقل القليل وربما لا شيء على الإطلاق، ولكنه يتوقع أن يسلم العالم بأنهم المؤلفون الحقيقيون الذين صاغوا المبادئ الفلسفية المنسوبة إليهم.

ونظرًا لغياب الدليل الأساسي يتردد العالم في الاعتراف بهم على هذا النحو، ذلك لأن حقيقة الفلسفة اليونانية بأكملها تشير إلى اتجاه مغاير تمامًا.

إن كتاب «الطبيعة» الذي يحمل عنوان Peri Physeos أي «عن الطبيعة» هو العنوان المشترك الذي أَلَّف عنه التلاميذ اليونانيون القدماء المعنيون بالطبيعة. ويقال إن أقدم نسخة يرجع تاريخها إلى القرن السادس ق.م.، وهو قول يشير — عادة — إلى البقية المتخلفة عن كتاب الطبيعة تحت اسم الشذرات Fragments (انظر [٣]، ص٦٢) ونحن لا نعتقد أن التلاميذ من المريدين المبتدئين الحقيقيين وضعوا كتابًا عن «الطبيعة» نظرًا لتعارض هذا مع قواعد نظم الأسرار المصرية التي اقترنت بها المدارس الفلسفية، والتزمت بقواعد سلوك هذه النظم في أعمالها. لقد كانت مصر محور جماع الحكمة القديمة، وانتشرت منها المعارف الدينية والفلسفية والعلمية إلى الأقطار الأخرى، عن طريق الأعضاء الجدد المنتمين إلى هذه النظم. وظلت هذه التعاليم — على مدى أجيال وقرون — في صورة تراث وتقليد، إلى أن غزا الإسكندر الأكبر مصر، وبدأت حركة أرسطو ومدرسته في جمع التعاليم المصرية، ثم الزعم بأنها فلسفة يونانية (انظر[١٢]، ص١٦).

نتيجة لذلك، فإن كتاب «عن الطبيعة» (Per Physeos) غير ذي قيمة، هذا إذا كان له قيمة أصلًا، كمصدر معتمد لعمليات التأليف، ذلك لأن التاريخ لا يذكر سوى أربعة أسماء باعتبارهم مؤلفين له، وهم؛ أنكسماندر، وهيراقليطس، وبارمينيديس وأنكساجوراس، ويطلب — بعد ذلك — من العالم أن يقر بأنهم أصحاب الحق الذين أبدعوا تأليف الفلسفة، لا لشيء إلا لأن ثيوفراستوس وسكستوس وبروقلوس وسمبليكوس، وهم من تلامذة الإسكندرية، قد احتفظوا، حسبما قيل، ببقايا أو مقطوعات قليلة منه، والتي تحمل اسم الشذرات. وإذا كان كتاب «عن الطبيعة» هو معيار التأليف في الفلسفة اليونانية فإنه سيقصر — تمامًا — عن تحقيق هدفه، ما دمنا، وأننا إزاء زعم يقول إن أربعة فلاسفة

فقط هم الذين ألَّفوه، ولديهم بعض البقايا المتخلفة عن أعمالهم. وحسب هذه الفكرة، فإن جميع الفلاسفة الآخرين الذين لم يكتبوا تحت أي عنوان «عن الطبيعة» وليس لديهم بقايا أو شذرات منه لم يكتبوا في الفلسفة اليونانية، وهذا هو قياس الخلف الذي يقودنا إليه كتاب «عن الطبيعة».

لقد كانت مدارس الفلسفة الكلدانية واليونانية والفارسية جزءًا من نظام الأسرار المصري القديم، وكانت هذه المدارس تُدار سرًّا حسب أوامر المحفل الأعظم أو الأوزيرياكا[٣] Osiriaca الذي أصبحت تعاليمه شائعة ومطبَّقة في جميع المدارس، ونظرًا للالتزام بمتطلبات السرية كان محظورًا — تمامًا — كتابة أو نشر التعاليم، ومن ثَم فإن المريدين الجدد الذين حققوا نجاحات في ممارساتهم وتثقيفهم وارتقوا إلى مرتبة السيد أو المعلم كانوا يحجمون عن نشر تعاليم نظم الأسرار المصرية أو الفلسفة.

ونتيجة لذلك، فإن أي نشر أو ترويج للفلسفة لا يمكن أن يصدر مباشرة عن الفلاسفة الأصليين أنفسهم، وإنما عن أحد طريقين إما عن طريق أصدقاء مقربين إليهم يعرفون آراءهم، كما هو الحال بالنسبة إلى كل من فيثاغورس أو سقراط، أو عن طريق أشخاص مهتمين سجلوا تعاليمهم الفلسفية التي أضحت رأيًا شائعًا وتقليدًا رائجًا. ومن ثَم لا عجب أن يلجأ التاريخ، بسبب غياب التأليف الأصلي، إلى حيلة قبول رأي أرسطو باعتباره المرجع الأوحد المحدد وجهة إبداع الفلسفة اليونانية (انظر مقدمة ١٣). ولهذا السبب تحيط شكوك هامة وكثيرة بما يُسمَّى الإبداع اليوناني للفلسفة (انظر [٣]، ص٣٥، ٣٩، ٤٧، ٥٣، ٦٢، ٧٩، ٢١٠، ٢١١، ٦٢٧؛ وانظر [١٢]، ص١٦؛ وانظر ثيوفراستوس ومقدمة (١٣)).

(٣) وقائع التأريخ الزمني لفلاسفة اليونان تخمين محض

لا يذكر التاريخ شيئًا عن الحياة الباكرة لفلاسفة اليونان وتثقيفهم. ولا يصدق هذا فقط على الفلاسفة السابقين على سقراط، بل وعلى سقراط نفسه وأفلاطون وأرسطو الذين يظهرون في التاريخ بعد أن بلغوا الثامنة عشرة، ويبدءون في التعليم وهم في سن الأربعين.

[٣] الأوزيرياكا أو الأوزيرية، وتعني مقر المحفل الأعظم القيادي لجميع المحافل أو المعابد التابعة له داخل وخارج مصر. ويشبه حديثًا — على سبيل القياس — دار البابوية أو دار الإمامة الكبرى الذي يقوم بدور التنظيم والتوجيه والإفتاء والإدارة، ويضم أكبر فقهاء ومعلمي نظم الأسرار المصرية العارفين بالعلوم والفنون والرموز. ومثل هذا النظام يتجاوز الطابع المحلي، ويؤمن بعالمية الرسالة. (المترجم)

وكانوا — كمجموعة من الرجال — أشخاصًا غير مرغوب فيهم من قِبَل الدولة personae non gratae؛ ومن ثَم كانوا موضع اضطهاد مما اضطرهم إلى التخفي والعمل سرًّا. ولم يحتفظوا — بسبب هذه الظروف — بتسجيلات عن أنشطتهم، وذلك بهدف إخفاء هويتهم. وعقب غزو الإسكندر الأكبر مصر والاستيلاء على المكتبة الملكية في الإسكندرية ونهبها، بدأ تنفيذ خطة أرسطو في اغتصاب الفلسفة المصرية بأيدي أعضاء مؤسسته: ثيوفراستوس وأندرونيكوس الروديسي وإيوديموس، الذين وجدوا أنفسهم على الفور في مواجهة مشكلة وضع تأريخ زمني لمراحل تاريخ الفلسفة (انظر مقدمة (٢)، ص١٣).

واشتمل هذا الجهد على قدر كبير من التخمين لتحديد تواريخ ميلاد الفلاسفة الذين لم يكن الجمهور يعرف عنهم سوى القليل جدًّا. وحدث منذ القرن الثالث ق.م. (٢٧٤–١٩٤ق. م.) أن عمد أراتوستين الرواقي إلى وضع تأريخ زمني لفلاسفة اليونان. كذلك خلال القرن الثاني (١٤٠ق.م.) وضع أبوللودوروس تأريخًا آخر، وتواصلت هذه الجهود خلال القرن الأول ق.م. (٦٠–٧٠ق.م.)؛ إذ وضع أندرونيكوس الرئيس الحادي عشر للمدرسة المشائية تأريخًا زمنيًّا آخر.

واستمرت هذه المشكلة طوال القرون الأولى، وانتقلت إلى عصرنا الحاضر، ذلك لأننا نجد جميع الكُتَّاب المحدثين، فيما يبدو، الذين يؤلفون في موضوع الفلسفة اليونانية، عاجزين عن الاتفاق بشأن التواريخ الخاصة بميلاد ونشأة الفلاسفة. ويبدو أن الاستثناء الوحيد يتعلق بالفلاسفة الأثينيين الثلاثة؛ أعني سقراط وأفلاطون وأرسطو؛ إذ من المعتقد أن تاريخ ميلاد كل منهم مؤكد، وثمة اتفاق عام بين المؤرخين بشأنهم. بيد أننا إذا ما تطرقنا إلى الفلاسفة السابقين على سقراط تواجهنا حالة من التشوش والخلط وعدم اليقين. ولعل أمثلة قليلة تكفي شاهدًا على حالة البلبلة والشك فيما يتعلق بطبيعة التأريخ الزمني للفلاسفة اليونانيين.

(١) يحدد ديوجين لايريتوس تاريخ ميلاد طاليس من ٦٤٠ق.م. بينما نجد وليام تيرنر في كتابه «تاريخ الفلسفة» يحدد التاريخ في ٦٢٠ق.م. ويذكر فرانك ثيلي Thilly أنه ٦٢٤ق.م. ويعود به إي كي روجرز إلى فترة باكرة في القرن السادس ق.م. ويذكر دبليو جي تينيمان أنه ٦٠٠ق.م.

(٢) يحدد ديوجين لايريتيوس تاريخ ميلاد أناكسيمانز بأنه ٥٤٦ق.م. هذا بينما يحدده دبليو فندلبراند W. Windelbrand بأنه في القرن السادس ق.م. ويذكر فرانك ثيلي أنه ٥٨٨ق.م. بينما نجد هذا التاريخ عند بي دي ألكسندر هو ٥٦٠ق. م، وعند إي كي روجرز القرن السادس ق.م.

(٣) يعتقد ديوجين — صادقًا — أن بارمينيديس مولود في عام ٥٠٠ق.م. بينما نجد كلًّا من فوللار وثيلي وروجرز يسقطون تاريخ الميلاد لأنه، على حد قولهم، غير معروف.

(٤) يحدد تسلر تاريخ ميلاد أكزينوفان بأنه ٥٧٦ق.م. بينما يحدده ديوجين ٥٧٠ق.م. ويصرح غالبية المؤرخين الآخرين أن تاريخ ميلاده غير معروف.

(٥) ولا يعرف ديوجين تاريخ ميلاد زينو، ويقول عنه إنه شبَّ خلال الفترة ٤٦٤–٤٦٠ق.م. بينما يحدد وليام تيرنر تاريخ الميلاد بأنه ٤٩٠ق.م. شأنه — في هذا — شأن فرانك ثيلي وبي دي ألكسندر، هذا بينما يصرح كلٌّ من أ. ك. روجرز، وو. ح. تينيمان بأنه غير معروف.

(٦) وعند الحديث عن هيرقليطس يقدم تسلر الافتراضات التالية؛ إذ يقول: إذا كان قد توفي عام ٤٧٥ق.م. وافترضنا أنه قد بلغ الستين من العمر وقت الوفاة فلا بد وأن يكون مولودًا في عام ٥٣٥ق.م. وبالمثل يفترض ديوجين أنه شبَّ فيما بين عامي ٥٠٤ و٥٠٠ق.م. هذا بينما يحدد وليام تيرنر تاريخ ميلاده بأنه ٥٣٠ق.م. ويحدده وندلبراند ٥٣٦ق.م. ويذكر كل من فوللر وتينيمان أنه شبَّ عام ٥٠٠ق.م.

(٧) وفي معرض الحديث عن فيثاغورس نجد تسلر، الذي لا يعرف تاريخ ميلاده، يفترض أنه وُلِد فيما بين عامي ٥٨٠ و٥٧٠ق.م. هذا بينما يفترض ديوجين، بدوره، أنه وُلِد بين عامي ٥٨٢ و٥٠٠ق.م. ويذكر وليام تيرنر وفوللر وروجرز وتينيمان أن تاريخ ميلاده غير معروف.

(٨) أما عن أمبيدوقليس فإن ديوجين يحدد تاريخ ميلاده بأنه ٤٨٤ق.م. هذا بينما يحدده كل من تيرنر ووندلبراند وفوللر، وبي دي ألكسندر وتينيمان بأنه ٤٩٠ق.م. ويصرح كل من أ. ك. روجرز وآخرين بأنه غير معروف.

(٩) وفي معرض الحديث عن أنكساجوراس، فإن كلًّا من تسلر وديوجين يحدد تاريخ ميلاده بأنه ٥٠٠ق.م. ويتفق معهما كل من وليام تيرنر، وأ. ج. فوللر، وفرانك ثيلي. بينما يحدده ألكسندر ٤٥٠ق.م. ويصرح أ. ك. روجرز وآخرون بأنه غير معروف.

(١٠) وعند الحديث عن ليوكيبوس يكاد يجمع المؤرخون — عن بكرة أبيهم — على أنه لم يكن موجودًا.

(١١) أما سقراط (٤٦٩–٣٩٩ق.م.) وأفلاطون (٤٢٧–٣٤٧ق.م.) وأرسطو (٣٨٤–٣٢٢ق.م.) فهم الفلاسفة الثلاثة الوحيدون الذين نعرف أن تواريخ ميلادهم ووفاتهم لم تكن محل تخمين بين المؤرخين، غير أن سبب هذا الإجماع ربما يرجع إلى أنهم كانوا أثينيين،

وأدانتهم — قضائيًّا — حكومة أثينا التي تحرت عنهم — بطبيعة الحال — واحتفظت بسجل عن حالاتهم (انظر [٤]، ص١٠٤).

ملحوظة

يجب ألا يغيب عن البال في ضوء الدراسات المقارنة السابقة عن التأريخ الزمني للفلاسفة اليونانيين ما يلي:

(أ) تباين التواريخ بسبب التخمين.

(ب) الفلاسفة السابقون على سقراط غير معروفين لأنهم أجانب أو غرباء على حكومة أثينا، وربما لم يكن لهم وجود.

(ج) يلزم عن هذا أن كلًّا من الفلاسفة السابقين على سقراط، علاوة أيضًا على سقراط وأفلاطون وأرسطو، قد اضطهدتهم حكومة أثينا بسبب إدخال مذاهب أجنبية إلى أثينا.

(د) بناء على هذه الحقائق لا يسعنا النظر إلى أي زعم جاء بعد ذلك على لسان اليونان بادعاء ملكية أو تأليف هذه المذاهب ذاتها التي نبذوها واضطهدوها، وإنما يتعيَّن النظر إليها باعتبارها بالضرورة اغتصابًا.

(٤) تصنيف تاريخ الفلسفة اليونانية كان خطة أرسطو ونفَّذتها مدرسته

عندما قرر أرسطو تأليف مصنَّف عن تاريخ الفلسفة اليونانية، فإنه عرض — بالضرورة — رغبته هذه على تلميذيه ثيوفراستوس وإيوديموس، ذلك لأنه لم يكد يفرغ من كتابه «الميتافيزيقا» حتى تبعه ثيوفراستوس بنشر ثمانية عشر كتابًا عن مذاهب الطبيعيين. وبالمثل بعد أن نشر ثيوفراستوس كتابه «مذاهب الطبيعيين» قدم إيوديموس تواريخ مستقلة لكل من الحساب والهندسة والفلك وفقه الإلهيات، وكانت هذه بداية مذهلة بسبب ضخامة عدد الكتب العلمية، واتساع نطاق الموضوعات التي عالجتها هذه الكتب، وآثار هذا الوضع، عن صواب، شكوك العالم، حين تساءل عن مصدر هذه المؤلفات العلمية.

وحيث إن ثيوفراستوس وإيوديموس كانا، في الوقت نفسه، من تلامذة أرسطو، ونظرًا لأن غزو الإسكندر الأكبر لمصر جعل المكتبة الملكية في الإسكندرية تحت أيدي اليونانيين لأغراض البحث، إذن لا مناص من أن نتوقع أن الرجال الثلاثة، وهم أرسطو الصديق الحميم للإسكندر، وثيوفراستوس وإيوديموس، لم يعكفوا فقط على البحث والتنقيب في

كتب مكتبة الإسكندرية، وإنما لا بد — أيضًا — أنهم استعانوا بكتبٍ يسَّرت لهم فرص مواكبة بعضهم بعضًا على نحو متقارب دون فارق زمني في إصدار المؤلفات العلمية. (انظر [٣]، ص١٥٨–١٥٩). وطبيعي أن كانت هذه الكتب، التي استعانوا بها، كانت إما غنيمة حرب استولوا عليها من المكتبة أو مؤلفات صنَّفوها هم (لاحظ أن مؤلفات أرسطو تكشف عن العلامات الدالة على كتابة الهوامش، وأنثيوقراستوس وإيوديموس كانا، في الوقت نفسه، تلميذين من تلامذة مدرسة أرسطو) (انظر [٣]، ص١٢٧).

ولعل من الملائم أن نذكر هنا أسماء تلامذة أرسطو الذين شاركوا بقسطٍ نشط دعَّم الحركة تجاه تأليف تاريخ للفلسفة اليونانية.

(أ) ثيوفراستوس الليسبوسي (٣٧١–٢٨٦ق.م.) الذي خلف أرسطو رئيسًا للمدرسة المشائية، ويقال، كما ذكرنا في موضع آخر، أنه ألَّف ثمانية عشر كتابًا عن مذاهب الطبيعيين، من هم هؤلاء الطبيعيون؟ مصريون أم يونانيون؟ يكفي أن نتأمل هذين السؤالين.

(ب) إيوديموس الروديسي، معاصر لثيوفراستوس، وحضر معه أيضًا مدرسة أرسطو، ويقال إنه ألَّف في تاريخ الحساب والهندسة والفلك والإلهيات على نحو ما ذكرنا آنفًا. فما هو مصدر معلوماته عن تواريخ العلوم، والتي لا بد لها لكي تنشأ وتتطور من أن تستغرق آلاف السنين من تاريخ أي أمة؟ مصر أم اليونان؟ يكفي أن نتأمل هذا.

(ج) أندرونيك الروديسي، وهو من الكُتَّاب التلفيقيين في مدرسة أرسطو، والمشرف على تحرير كتبه (٧٠ق.م.).

والملاحظ أن مؤلفات هؤلاء الرجال، وكذا كتاب «الميتافيزيقا» لأرسطو قد احتوت على موجز نقدي لمذاهب جميع الفلاسفة السابقين. وتؤلِّف هذه الكتب — على ما يبدو — نواة تصنيف ما سُمِّي تاريخ الفلاسفة اليونانية (انظر [٢]، المقدمة، وص٧–١٤).

وكانت الخطوة التالية هي تنظيم رابطة سُمِّيت «الدراسة العلمية لكتابات أرسطو»، وأعضاء هذه الرابطة هم ثيوفراستوس وأندرونيك. وكان كلاهما على علاقة وثيقة بمدرسة أرسطو، وتركزت مهمة هذه الرابطة في تحديد هوى الأدب ومذاهب الفلسفة مع ذكر اسم المؤلف المزعوم لكل منها. وفي سبيل استكمال هذا العمل عمدت الرابطة إلى تشجيع خريجي مدرسة أرسطو وأصدقاء المدرسة للمشاركة في عمل بحث عن مؤلفات أرسطو وكتابة تعليقات عليها.

علاوة على هذا، شجعت الرابطة العلمية — كذلك — إجراء بحث لاستعادة ما سُمِّي «الشذرات» أو بقايا كتاب قيل إنه كان موجودًا يومًا، وهو الكتاب الذي يحمل عنوانًا مشتركًا «عن الطبيعة Peri Physeos».

ونلاحظ هنا — مرة أخرى — أن أولئك الذين اضطلعوا بمهمة البحث في كتاب «عن الطبيعة» أو بقاياه هم خريجو مدرسة أرسطو وأصدقاء المدرسة، غير أن جهودهم لتأكيد حقيقة التأليف باءت بالفشل.

(أ) لم يجد ثيوفراست سوى سطرين اثنين من كتاب «عن الطبيعة»، والذي قيل — افتراضًا — إن مؤلفه أنكسماندر.

(ب) قيل إن سكستوس وبروقلوس — في القرن الخامس الميلادي — وسمبليكوس — في القرن السادس الميلادي — قد عثروا على نسخة من كتاب «عن الطبيعة» الذي من المفترض أن مؤلفه هو بارمينيديس.

(جـ) علاوة على ما سبق اقترن اسم سمبليكوس — أيضًا — بنسخة أخرى من كتاب «عن الطبيعة» الذي من المفترض أن مؤلفه هو انكساجوراس.

وما أكثر ما قيل عن كتاب «عن الطبيعة» و«الشذرات»، وما أكثر ما قيل عن محاولات «الرابطة العلمية» من أجل دراسة مؤلفات أرسطو، وقد فشلت جميعها لعدم توافر دليل يثبت وجود الكتاب كما أوضحنا في موضع آخر.

وإن استعادة نسختين وسطرين من كتاب «عن الطبيعة» ليس برهانًا على أن فلاسفة اليونان أَلَّفوا كتابَ «عن الطبيعة»، أو حتى إن الأسماء المنسوب إليها الكتاب هم — فعلًا وحقًّا — مؤلفوه الأصليون. ولعل الواضح — يقينًا — أن هدف الرابطة العلمية هو أن تدق على طبلة أرسطو، وترقص على ذات اللحن. فقد كانت فكرة أرسطو هي تأليف كتاب عن تاريخ الفلسفة، وكانت مدرسة أرسطو وخريجوها هم الذين أنجزوا الفكرة حسبما قيل لنا.

الفصل الثاني

الفلسفة اليونانية المزعومة كانت غريبة عن اليونانيين وعن ظروف حياتهم

حقبة الفلسفة اليونانية (٦٤٠–٣٢٢ق.م.) كانت حقبة حروب داخلية وخارجية؛ ومن ثَم لم تكن ملائمة لظهور فلاسفة.

يدعم التاريخ الحقيقة القائلة بأن اليونانيين— منذ أيام طاليس وحتى أيام أرسطو — كانوا، من ناحية ضحايا حالة من التفكك الداخلي؛ وعاشوا، من ناحية أخرى، في توجس دائم خوفًا من غزو قد يأتيهم على أيدي الفرس، العدو المشترك للدول-المدن.

ونتيجة لذلك، فإنهم حين تتوقف الحروب المشتعلَة فيما بينهم يجدون أنفسهم غارقين في حرب ضد الفرس الذين هيمنوا، وأصبحوا سادة عليهم. وكان الإقليم الممتد من آسيا الوسطى حتى وادي الإندوس قد اتحد، ابتداء من القرن السادس ق.م. تحت سلطة فارس وحدها؛ وبقيت إيران، الإقليم الأساسي في فارس، وحدة طبيعية حتى يومنا هذا. لقد كان التوسع الفارسي أشبه بكابوس جاثم على صدر اليونانيين الذين كانوا يفزعون من الأسطول الفارسي الذي لا يُقهَر، ونظموا أنفسهم في جماعات واتحادات بغية مقاومة عدوهم (انظر [١]، فصل ١٢، ص١٩٥). وثمة ثلاثة مصادر تلقي الضوء على ظروف الفوضى والمشكلات التي شهدها تاريخ اليونان آنذاك:

(أ) غزوات الفرس.
(ب) جماعات التحالف والاتحادات.
(ج) حروب البليبونيز.

(أ) غزوات الفرس

عقب غزو الفرس لجزر أيونيا (وقد تكون هي الحيثيين القدماء) واتخاذهم سكانها رعايا فارسيين، استولى يوليكريتس (٥٣٩–٥٢٤ق.م.) على جزيرة ساموس، وجعل منها مدينة ذائعة الصيت (انظر [١]، فصل ٩). وفيما بين عامي ٤٩٩–٤٩٤ق.م. ثار الأيونيون ضد الفرس، ولكنهم ألحقوا بهم هزيمة في مدينة ليد. واستولوا — أيضًا، في الوقت نفسه — على قبرص وميليتوس (انظر [١]، ف١٢)، وفي صيف عام ٤٩٠ق.م. تلاقت القوات اليونانية والفارسية في خليج ماراثون غير أن الطرفين المتحاربين، وبعد قتال متلاحم بالأيدي، انسحبوا، ولكن لكي يعود كل طرف قوة أكبر بغية تجدد القتال. ومن ثَم، وبعد مرور عشر سنوات، تم تنظيم التحالف الهلليني للعمل ضد الفرس، وتم إرسال ملك إسبرطة «ليونيدس» على رأس الجيش الهلليني للاستيلاء على الممر القائم عند ثيرموبيلاي إلى أن يحقق الأسطول انتصارًا حاسمًا (انظر [١]، ف١٢، ص٢٠٢). وبناء على ذلك، وخلال شهر أغسطس من عام ٤٨١ق.م. رست سفن أسطول الفرس، حسب أمر أكزيركس، في خليج باجاساي، بينما رست سفن أسطول اليونان قبالة رأس أريتميزيوم، وانتظر الطرفان فرصة مواتية للهجوم. وبدأ الفرس يحاولون اختراق صفوف اليونانيين في الوقت الذي عمدت فيه إحدى فرقهم، بمساعدة سرية من خائن يوناني، إلى المرور بمحاذاة جبل شديد الانحدار والوصول إلى مؤخرة مواقع اليونانيين وأُخِذ اليونانيون على غرة، ومن ثَم اضطروا إلى الانسحاب دون مقاومة، وتم ذبح جميع الإسبرطيين القائمين بحراسة ثيرموبيلاي؛ واستولى الفرس على الممر (انظر [١]، ف١٢، ص٢٠٢). وبعد هزيمة اليونانيين في ثيرموبيلاي انسحبوا إلى سالاميس، حيث التقوا — ثانية — مع الفرس في معركة بحرية، وكان ذلك في آخر سبتمبر عام ٤٨١ق.م.، وأسفرت المعركة البحرية عن تدمير واسع النطاق للسفن من الجانبين دون حسم المعركة لصالح أحدهما … وانسحب الطرفان المتحاربان: الفرس إلى ثيسالي؛ واليونانيون إلى أتيكا (انظر [١]، ف١٢، ص٢٠٣).

وجددت أثينا — في تحالف مع المدن الساحلية والجزرية — المقاومة ضد الحكم الفارسي التزامًا بهدف ثابت للتحرر من الهيمنة الفارسية. وكانت هذه المجموعة تؤلف — معًا — ما سُمِّي اتحاد أو كونفيدرالية ديلوس، الذي قام بالعديد من الاشتباكات البحرية، ولكن دون نجاح يُذكَر أو مع إحراز نجاح ضئيل. وفي عام ٤٦٧ق.م. جرت معركة نهر يورميدون وخسرها اليونانيون، وخسروا فيها عددًا كبيرًا من السفن، وبعد

ثمانية عشر عامًا (٤٤٩ق.م.) وقع اشتباك بحري آخر مقابل جزيرة قبرص، ولكن دون حسم المعركة لصالح أي من الطرفين؛ ومن ثَم احتفظ الفرس بالسيادة على اليونانيين (انظر [١]، ف١٢، ص٢٠٥) وفي هذه الأثناء حصلت إسبرطة — بموجب بنود معاهدة ميليتوس (٤١٣ق.م.) — على معونات من الفرس من أجل بناء أسطول شريطة الاعتراف بسيادة الفرس على الأيونيين وحلفائهم، وهذا هو ما عملته إسبرطة كتهديدٍ لأطماع أثينا.

ولكن لم يمضِ وقت طويل على عقد معاهدة ميليتوس حتى استسلم اليونانيون أنفسهم لسلطان الفرس وهيمنتهم، وخلال شتاء عام (٣٨٧، ٣٨٦ق.م.) وقَّعت المدن الأيونية، كل على حدة، شروط السلم التي حددها ملك الفرس وقبلت أخيرًا الحكم الفارسي، وتفاوض بشأن هذه المعاهدة مبعوث إسبرطي خوَّله ملك الفرس سلطة فرض نصوصها وأحكامها (انظر [١]، ف١٣ و١٥، ص٢٢٥، ٢٥٥).

(ب) التحالفات

باستثناء مقاومة اليونانيين للفرس، باعتبارهم عدوًّا مشتركًا، فإن دراسة جماعات التحالف تكشف عن العداء وروح العدوان المميزة للعلاقات القائمة آنذاك بين الدول-المدن اليونانية ذاتها.

واتساقًا مع هذا، وقَّعت ولايات بليبونيز في عام ٥٠٥ق.م. معاهدات فيما بينها، تعهدت بمقتضاها شن حرب ضد إسبرطة التي استوعبتهم تحت نفوذها. وفي هذه الأثناء أحيا أرسطو جوراس التحالف الأيوني (٤٩٩؛ ٤٩٤ق.م.) لمقاومة العدوان الفارسي. واستعاد التحالف الهلليني علاقات الصداقة بين أثينا وأيجينا (٤٨١ق.م.) والذي تحوَّل — فيما بعد — إلى اتحاد ديلوس (٤٧٨ق.م.) على نحو ما ذكرنا في موقع آخر، وسارت طيبة على نفس النهج في اتساق مع الاتجاه العام للعصر، ونظمت تحالف بيوتيان، وهو نوع من اتحاد الدول – المدينة بغية الدفاع عن النفس وشن العدوان (انظر [١]، ف٩، ص١٥٠؛ ف١٢، ص٢٠١).

وفي عام ٣٧٧ق.م. تم تنظيم اتحاد أثيني ثان، ولكن تشكَّل هذا الاتحاد بغية إحباط أهداف شعب لاكيدايمونيا، وإرغامهم على الاعتراف بحق الأثينيين وحلفائهم (انظر [١]، ف١٥، ص٢٦٠)، واستطاع — بالمثل — تحالف أياتوليا المؤلَّف من دول وسط اليونان أن يسيطر في عام ٢٩٠ق.م. على دلفي، وانتهك — مرارًا — حقوق أكايا في إقليم بليبونيز. هذا بينما نظم أنتيجونوس دوسون في عام ٢٢٥ق.م. تحالفًا هللينيًّا آخر

بهدف إعاقة طموحات إسبرطة وحلفائها الأيونيين (انظر [١]، ف١٨، ص٣١٧، ٣١٩) (انظر [١٥]، ص٢٠٦–٢٠٩، ف١١، ١٦ ص١٢١، ١٢٧، ١٤٢؛ ١٧ ص٢١٦–٢٢٩، ٢٤٠–٢٤١، ٢٥٩–٢٦٩، ٤٧١–٤٧٢، ١٨ ف١٨ ص٢٠، ٢١).

(ج) حروب البليبونيز: (٤٦٠–٤٤٥ق.م.) و(٤٣١–٤٢١ق.م.)

اتساقًا مع أطماع أثينا في السيطرة على شعوب أيونيا والشعوب الأخرى المجاورة؛ شن بريقليس حملة شملت عددًا من الحلفاء والغزوات، امتدت من ثيسالي إلى أرجوس؛ ومن إيوبويا إلى نوباكتوس، وأكايا والجزر الرئيسية في بحر أيونيا.

وتمثلت النتائج الصافية فيما يلي:

(أ) أقامت أثينا تحالفًا مع بويتيا وفوركيس ولوكريس على الرغم من معارضة إسبرطة.

(ب) تم الاستيلاء في عام ٤٥٦ق.م. على أيجينا وإرغامها على دفع الجزية.

(ج) في عام ٤٥١ق.م. استعادت أثينا علاقة الصداقة مع إسبرطة بفضل وساطة سيمون، شريطة حل التحالف بين أثينا وأرجوس.

(د) وفي عام ٤٤٧ق.م. هزمت الأقلية المنفية، من حكام طيبة، الأثينيين في كورونيا، وأعادوا تأسيس تحالف بوينيا تحت قيادة طِيبة.

(هـ) وفي عام ٤٤٥ق.م. تم توقيع سلام الثلاثين عامًا، وعقب تمرد إيوبيا وميجارا غزت إسبرطة أتيكا؛ والتمس بيرقليس عقد اتفاق سلام، وفقدت أثينا جميع ممتلكاتها من المستعمرات (انظر [١]، ف١٣، ص٢٢٠).

وأدت حرب البليبونيز الثانية (٤٣١–٤٢١ق.م.)، شأن الأولى، إلى إثارة روح عامة للتمرد بين الدول-المدينة اليونانية ضد الإمبريالية الأثينية، وأصبحت إسبرطة هي العدو الرئيسي.

وكانت النتيجة الصافية لهذه الحرب كما يلي.

(أ) في عام ٤٣٥ق.م. اندلعت الحرب بين كورسيرا وكورنثة وساعدت أثينا كورسيرا.

(ب) في عام ٤٣٢ق.م.

(١) حاصرت أثينا بوتيدايا لرفضها هدم أسوارها الجنوبية وطرد القضاة الكورينثيين.

(٢) استُبعِدت ميجارا من الأسواق اليونانية لإضعافها حتى تخضع.
(٣) خطط تحالف بليبونيزيا لشن الحرب ضد أثينا وبويوتيا، واضطرت فوكيس ولوكريس إلى خوض حرب ضد أثينا وكورسيرا وعدد قليل من الدول الشمالية.

(ج) في عام ٤٣١ق.م.

(١) هاجمت طيبة بلاتايا؛ وفي الوقت الذي احتل فيه أحد جيوش بليبونيزيا أتيكا، شنَّ أسطول أثينا غارة ضد شعب البليبونيز.
(٢) إزاء عجز بيرقليس عن الدفاع عن أتيكا دفاعًا جيدًا اضطر إلى نقل السكان المدنيين كل ربيع إلى المنطقة الواقعة بين أسوار أثينا وبيرايوس، وفي هذه الأثناء عمل أسطول أثينا ضد تجارة بوتيدايا وساحل بليبونيز وكورينثيا.

(د) في عام ٤٢٨ق.م.

(١) تمردت ميتلين وجميع مدن ليسبوس.
(٢) وقعت مذبحة وحشية لحكام الأقلية في كورسيرا.

(هـ) في عام ٤٢٥ق.م.

(١) وقعت قوة من لاكوتيا في الأسر عند بيلوس، وأقيمت قلعة بواسطة ديموستين وكليون.
(٢) تم تحصين كيتيرا ومواقع أخرى ضد شعوب البليبونيز.
(٣) استولى براسيداس من إسبرطة على أمفيبوليس؛ وكان براسيداس حرض الحلفاء الأثينيين على التمرد. وبعد مقتل براسيداس وكليون في معركة جرت في ٤٢٢ق.م. خوَّلت أثينا نيكياس التوسل لعقد سلم (انظر [١]، ف١٣، ص٢٢٠–٢٢١).

ويتضح ما يلي من دراسة أسباب ونتائج حروب البليبونيز:

(أ) الدويلات اليونانية كانت غيورة من بعضها البعض.
(ب) الرغبة في التسلط والتوسع أفضت إلى حالة مستمرة من العدوان والحرب فيما بينهم.
(ج) حالة الحرب المستمرة بين الدول-المدينة لم تكن مواتية لظهور فلاسفة.

وقبل الانتقال لبحث الافتراض التالي، أود أن أقول إن من الحقائق المقبولة أن تطور الفكر الفلسفي يستلزم بيئة خالية من الاضطرابات، ومن أسباب القلق. وإن الفترة المتفق على أنها فترة إنتاج الفلسفة اليونانية (أي من طاليس إلى أرسطو) كانت النقيض تمامًا لحالة السلم والهدوء؛ ومن ثَم ليس لنا أن نتوقع منها أن تنتج فكرًا فلسفيًّا. ولم تكن العقبات التي حالت دون نشأة وتطور فلسفة يونانية هي فقط الحروب الأهلية المتكررة، والدفاع المستمر ضد الغزو الفارسي، بل وأيضًا خطر أن تعمد حكومة أثينا إلى إبادة الفلسفة واستئصالها باعتبارها العدو الألد.

(د) الفلسفة تستلزم بيئة ملائمة:

أرى لزامًا الآن أن أضيف الاقتباس التالي الذي يصف لنا هذه الحقبة: «إذ على الرغم من كثرة الشرور الطبيعية التي تحدق بالبشرية، إلا أننا أضفنا إليها الحروب والصراعات الأهلية بعضنا ضد بعض، حتى بلغ الأمر حد إعدام البعض في مدنهم دون مبرر عادل، فضلًا عن نفي آخرين مع زوجاتهم وأطفالهم، واضطر كثيرون، بسبب البحث عن طعامهم اليومي، إلى الموت وهم يقاتلون ضد شعوبهم هم، من أجل خاطر العدو» (أيزوكرات) (انظر [١٦]، ف٨؛ [١٥]، ف٢٢؛ [١٧] ف١٠؛ [١٨] ف٢٧، ٢٨، ٢٩).

الفصل الثالث

الفلسفة اليونانية سليل نظم الأسرار المصرية القديمة

(١) النظرية المصرية عن الخلاص أصبحت هدف الفلسفة اليونانية

أول نظرية عن الخلاص هي النظرية المصرية. لقد كان أهم أهداف نظم الأسرار المصرية — قديمًا — هو تأليه الإنسان، أي التشبُّه بالآلهة، كما أنها علَّمت الناس أن نفس الإنسان إذا ما تحررت من قيود البدن يمكن للمرء أن يصبح شبيهًا بالله، ويرى الأرباب في هذه الحياة، ويبلغ مرتبة الكشف الصوفي، ويتصل بالأرواح الخالدة (انظر [١٢]، ص٢٥).

ويعرِّف أفلوطين هذه التجربة بأنها تحرر العقل من وعيه المتناهي عندما يغدو واحدًا ومتوحدًا مع اللامتناهي. وهذا التحرر ليس فقط حرية النفس من عوائق البدن، بل وأيضًا حرية النفس من عجلة التناسخ أو إعادة الميلاد. واشتملت هذه الحرية على عملية متصلة من المجاهَدات والرياضات أو التطهر لكل من الجسد والنفس. ونظرًا لأن نظام الأسرار المصري يقدم للإنسان خلاص النفس، فإنه — بالتالي — يؤكد — بقوة — على خلودها. إن نظام الأسرار المصري القديم، شأنه شأن الجامعة الحديثة، محور ثقافة منظمة، يلتحق به المرشحون للتلمذة من المريدين باعتباره المصدر الأول للثقافة قديمًا. ويرى بيتشمان أن نظام الأسرار المصري كانت له ثلاث مراتب يشغلها الطالب:

(١) البشر الفانون، أي الطلاب الذين يخضعون لفترة التجربة والاختبار، ويجرى تلقينهم العلوم، وإن لم يعاينوا بعد تجربة الكشف الباطني أو البصيرة.

(٢) الأذكياء، أي أولئك الذين عاينوا تجربة الكشف الباطني أو البصيرة وتلقَّوا العقل الكوني Nous.

(٣) الخالقون أو أبناء النور الذين توحدوا أو اتحدوا مع الضوء (أي تحقق لهم الوحي الروحي الحق).

ويقدم و. مارشام آدمز في كتابه «كتاب السيد أو المعلم» Book of the Master وصفًا لهذه المراتب باعتبارها مراتب متكافئة لدرجات التلقين، والكشف، والكمال. ويمارس الطلاب المريدون رياضات ومجاهَدات فكرية، وتنسكًا وزهدًا في الأمور البدنية. مع فترات اختبار ومواجهة محن أو ابتلاء لتحديد مدى ملاءمة كل منهم للمضي قُدُمًا على الطريق إلى عملية أكثر جدية وجلالًا ورهبة من عملية التلقين الحالية.

ولم يكن تعليم الطلاب يتألف فقط من عملية تثقيف لهم بالفضائل العشرة التي كانت تمثِّل شرطًا للسعادة الخالدة، بل يتألف — أيضًا — من الفنون العقلية التي تستهدف تحرير أو انعتاق النفس. وكان هناك — أيضًا — إذنٌ بالالتحاق بنظم الأسرار الأعظم، حيث يتعلم المريدون الذين أثبتوا كفاءة فلسفة الخاصة (انظر [١٢]، ص٢٤–٢٥). ويتعلم المريدون قواعد اللغة والخطابة والمنطق باعتبارها مباحث دراسية ذات طبيعة أخلاقية معنوية؛ إذ إنها أداة تطهير الإنسان من النوازع البشرية اللاعقلانية. وبذا يتم تثقيف المريد ليصبح شاهدًا حيًّا للعقل الإلهي القدسي أو اللوجوس. وتُعتبَر علوم الهندسة والحساب علومًا سامية تتعلق بالفضاء والعدد؛ حيث إن استيعابها يهيئ — لصاحبها — مفتاحًا لكل مشكلات الوجود العياني، وأيضًا حل المشكلات الطبيعية التي تحيِّر العقول الآن بسبب استخدام المناهج الاستقرائية. ويتناول علم الفلك المعلومات المتعلقة بالقوى الكامنة في الإنسان وتوزيعاتها ومصير الأفراد والأعراق والأمم. أما الموسيقى أو التناغم فتعني الممارسة الحية للفلسفة؛ أي تصحيح الحياة البشرية لملاءمتها في تناغم مع الله إلى أن يتم توحد الروح الشخصي مع الله حين تسمع الروح وتشارك في موسيقى الأفلاك السماوية، وكانت للموسيقى — أيضًا — وظيفة علاجية. ولذلك استخدمها الكهنة المصريون لشفاء الأمراض. هذه هي النظرية المصرية عن الخلاص التي يتثقف بها المرء ليغدو شبيهًا بالرب وهو على الأرض، ومؤهلًا — في الوقت نفسه — للسعادة الأبدية؛ وتتحقق بفضل مجاهدات الفرد وتعلمه الفنون والعلوم من ناحية، والتزامه حياة الفضيلة من ناحية أخرى. ولم يكن هناك وسيط بين الإنسان وخلاصه على نحو ما نرى في النظرية المسيحية. وسوف نعيد الإشارة إلى هذه الموضوعات باعتبارها جزءًا من المنهاج التعليمي لنظم الأسرار المصرية.

والآن بعد أن عرضنا — بإيجاز — النظرية المصرية عن الخلاص، والهدف منها، نحاول أن نفحص الفلسفة اليونانية وهدفها؛ لبيان ما إذا كان ثمة اتفاق بين الاثنين أم لا.

(٢) ظروف التطابق بين المنظومتين المصرية واليونانية

(أ) محاكمة واضطهاد الفلاسفة اليونانيين

إن تعرض فلاسفة اليونان للمحاكمة والاضطهاد هو أحد الأوضاع المألوفة لنا جميعًا؛ ذلك أن عديدين من الفلاسفة قدمتهم سلطات أثينا للمحاكمة الواحد بعد الآخر بتهمة مشتركة، وهي إدخال آلهة غريبة عن البلاد. وتعرَّض كلٌّ من أنكساجوراس وسقراط وأرسطو لمحاكمات مماثلة لذات الاتهام. وأشهر هذه المحاكمات محاكمة سقراط، والتي جاء نصها كالآتي: «ارتكب سقراط جرمًا تمثَّل في عدم الإيمان بآلهة المدينة وإدخال آلهة أخرى جديدة، وارتكب — أيضًا — جريمة إفساد الشباب.» والآن، إذا ما حاولنا اكتشاف هذه الآلهة الجديدة يتعين الرجوع إلى الرأي العام الذي أثاره أرستوفان (٤٢٣ق.م.) ضده، نجده كالآتي: «سقراط آثم، فاعل للشر، يشغل نفسه بالبحث في أمور تحت الأرض وفي السماء؛ ويزين أسوأ الأسباب لتبدو وكأنها الأفضل، ويعلِّم الآخرين هذه الأمور نفسها» (انظر [١٩]، ف١–١٠و٢٠؛ ١٠٧١).

واضح إذن أن سقراط اقترف إثمًا أغضب حكومة أثينا حين التزم دراسة الفلك، وربما درس معه الجيولوجيا. وتم اضطهاد الفلاسفة الآخرين لذات السبب، بيد أن دراسة العلم كانت شرطًا مسبقًا لعضوية نظام الأسرار في مصر، وكان الهدف منها تحرير النفس من عشرة قيود بدنية. وإذا درس فلاسفة اليونان العلوم فإنهم بذلك يستوفون شرط العضوية في نظام الأسرار المصري، ويحققون الهدف منه، سواء عن طريق اتصال مباشر بمصر أو مدارسها أو محافل تابعة للنظام خارج الإقليم.

(ب) حياة الفضيلة شرط تفرضه نظم الأسرار المصرية

لم تكن الفضائل مجرد أفكار نظرية تجريدية أو مشاعر أخلاقية، بل هي خصال إيجابية تتم عن بسالة وقوة الروح. فالاعتدال يعني التحكم الكامل في الطبيعة الانفعالية. والثبات — أو الجلد — يعني التحلي بهذه الشجاعة على نحو لا يجعل المحنة تحرفنا بعيدًا عن هدفنا. والحكمة تعني بصيرة عميقة تلائم ملكة التنبُّؤ. والعدالة تعني استقامة الفكر والعمل دون زيغ أو انحراف. علاوة على هذا، فإننا حين نقارن بين المذهبين الأخلاقيين يبين لنا أن الأعظم يحتوي الأقل، ويفيد — أيضًا — بأنه الأصل الذي نشأ عنه التالي من

حيث الزمان. لقد كان مطلوبًا من المريد المبتدئ — في نظم الأسرار المصرية — أن يكشف — أولًا — عن الصفات التالية التي تتحلى بها النفس:

(١) التحكم في الفكر.
(٢) التحكم في السلوك.

وهذان هما الأمران اللذان سمَّى أفلاطون الجمع بينهما العدالة (استقامة الفكر والعمل دون زيغ أو انحراف).

(٣) ثبات الغرض وهو ما يعادل الجَلَد.
(٤) التوحد مع الحياة الروحية أو المثل العليا السامية. وهو مكافئ الاعتدال، من حيث إنه صفة يبلغ المرء مرتبتها حين يُقهِر طبيعته الانفعالية وينتصر عليها.
(٥) البينة على امتلاك رسالة في الحياة.
(٦) البينة على الالتزام بالأوامر الروحية أو أوامر رجال الدين في نظم الأسرار المصرية، ويؤلف جماع ذلك مكافئًا للحكمة أو البصيرة العميقة والشفافية والمهابة وهو ما يلائم ملكة التنبؤ.

وثمة شروط أخرى كان يتطلبها المذهب الأخلاقي لنظم الأسرار في مصر القديمة:

(٧) التحرر من السخط حين يعاني المرء اضطهادًا، أو يقع عليه خطأ، وهذا هو ما كان يُعرَف بالشجاعة.
(٨) الثقة في سلطة السيد (باعتباره المعلم).
(٩) الثقة في قدرة المرء على التعلم، وهاتان الصفتان تُعرفان باسم الوفاء.
(١٠) الاستعداد أو التهيؤ لاستهلال المرحلة.

ونجد — دائمًا وأبدًا — هذا المبدأ في نظم الأسرار المصرية التي عرفتها مصر القديمة؛ إذ تقول: «يظهر السيد (المعلم) حين يكون التلميذ مستعدًّا لذلك.» وهذا معادل شرط الكفاءة في جميع الأحيان، لأن ما هو أقل من ذلك يكون ضعفًا.

يبدو واضحًا — بجلاء — الآن أن أفلاطون اقتبس الفضائل الأربعة الرئيسية من الفضائل العشر المصرية. ويتضح كذلك أن الفلسفة اليونانية هي سليل نظم الأسرار المصرية.

(ج ١) كان هناك المحفل الأعظم في مصر

يربط المدارس والمحافل الصغرى في العالم القديم

كانت هناك مدارس لتلقين الأسرار، أو ما يمكن أن نسميها — بشكل عام — المحافل الصغرى في اليونان، وفي الأقطار الأخرى خارج مصر، والتي تؤدي دورها ونشاطاتها وفقًا لتعليمات الأوزيرياكا، أي المعبد أو المحفل الأعظم المصري . وكثيرًا ما كان يشار إلى هذه المدارس باعتبارها مذاهب خاصة أو فلسفية لطقوس دينية سرية، ومؤسسوها من مريدي نظم الأسرار المصرية. وكان المعبد الأيوني في ديديما ومحفل أو معبد إقليدس في ميجارا، ومحفل فيثاغورس في كروتونا، والمعبد الأورفي في دلفي، علاوة على مدارس أفلاطون وأرسطو. وبناء على هذا نخطئ إذا ما افترضنا أن من يُسمُّون فلاسفة اليونان أقاموا مذاهب جديدة خاصة بها هم أصحابها ومبدعوها، ذلك لأن فلسفتهم، إنما جاءتهم على أيدي كبار العلماء من الكهنة المصريين عن طريق نظم الأسرار المصرية (انظر [١٢]، ص٥٩). وكان المحفل الأعظم المصري يتولى إدارة وتوجيه نظم الأسرار، ويسمح، علاوة على هذا، بتبادل الزيارات بين المحافل الصغرى المختلفة لضمان تقدم الإخوة الأعضاء في العلوم السرية.

وقيل لنا — عن لسان أفلاطون في محاورة طيماوس — أن الطامحين إلى المعرفة الصوفية قد زاروا مصر ليبدءوا حياة المريدين، وهناك قال لهم كهنة معبد سايس: «إنكم أيها اليونانيون لستم سوى أطفال» في نظام الأسرار، ولكنهم سمحوا لهم بالالتحاق بغية تحصيل معارف تؤهلهم للارتقاء في سعيهم للتقدم الروحي. وبالمثل يحكي لنا يامبليكوس مراسلة بين أنيبو وفورنيري تتعلق بعلاقات الأخوَّة القائمة بين العديد من المدارس أو المحافل التعليمية الموجودة في الأقطار المختلفة، وكيف تبادل أعضاؤها الزيارات وحيوا وساعدوا بعضهم بعضًا في مجال العلوم السرية، وكيف أن أكثرهم تقدمًا التزم مساعدة وتلقين إخوته في المراتب الأدنى (انظر [٢٢]؛ [٢١]؛ [٢٣]).

وبعد أن أوضحنا أن المحفل الأعظم لنظم الأسرار المصرية — قديمًا — كان مركزه مصر، وكانت له الولاية على جميع المحافل والمدارس التابعة له في العالم القديم خارج مصر لم يبق لنا الآن إلا أن نبين أن المحفل الأعظم كان له وجود فعلي ومادي، ووصولًا إلى ذلك يتعين إثبات أمرين: الأول وصف المعبد المصري، والذي تعتبر المحافل الحديثة — التي تحمل أسماء مختلفة ولها طقوسها — صورة طبق الأصل له. ثانيًا، وصف الأطلال الفعلية المتخلفة عن المحفل الأعظم أو الأسمى في مصر القديمة.

(جـ٢) وصف المعبد المصري

هنا أقتبس من مرجعين من الثقات في الحديث عن المعبد المصري، الأول سي إتش فيل، وكتابه «نظم الأسرار القديمة» ص١٥٩، حيث يقول: «كانت المعابد المصرية محاطة بأعمدة تسجل عدد أبراج الفلك، وعلامات دوائر البروج أو دوائر الكواكب. وكان المفترض أن كل معبد بمثابة الكون الأصغر أو رمز لمعبد هو الكون كله أو القبة السماوية المرصعة بالنجوم المسماة معبدًا». والمرجع الثقة الثاني هو ماكس موللر الذي وصف المعابد المصرية في كتابه «الأساطير المصرية» ص١٨٧–١٩٣، وجاء في وصفه ما يلي:

«بُنيت المعابد المصرية من الحجارة، بينما بُنيت الساحات الخارجية بالآجر المصنوع من الطين. وثمة طرق واسعة تفضي إلى المعبد ملائمة للمواكب.»

أما المدخل المباشر فتحف به التماثيل على الجانبين التي تضم تماثيل لأبي الهول وحيوانات أخرى. ويتشكل السور الأمامي من برجين مرتفعين كأن كلًّا منهما صرح كامل، ويُطلَق عليهما اسم «البوابتان»، وتتصدرهما مسلتان من الجرانيت، وتؤدي البوابتان — مباشرة — إلى فناء واسع؛ حيث يتجمع حشد المصلين ويشاهدون الأضاحي. وتفضي قاعة محفل المصلين — مباشرة — إلى قاعة رجال الدين والكهنة. وتلي قاعة الكهنة — مباشرة — الغرفة الأخيرة، وتسمى Adytum أو قدس الأقداس. وهذا مكان لا يدخله سوى كبير الكهنة. وكان هذا هو موضع المقام أو المزار المقدس، ومستقر الرب. وكان كل معبد صورة تحاكي العالم؛ الأسقف مغطاة برسوم تمثِّل السماء والنجوم، بينما الأرض — مثل المرج — تجمع بين اللونين الأخضر والأزرق. وكانت هناك شعائر لتنظيف المعبد يلزم تنفيذها في جميع الأوقات، ولا يمكن التغاضي عنها. ويتعيَّن على المصلين، قبل دخولهم المعبد، أن يطهروا أنفسهم — طهارة كاملة — في مجرى مائي قريب. وأصبح هذا الطقس في أزمنة تالية احتفالًا شعائريًّا يتمثل في رش المصلين بالماء المقدس قبل دخول المعبد.

واضح من الوصف السابق أن محافل العبادة الماسونية الحديثة ليست وحدها محافل تحاكي المعبد المصري القديم، بل وأيضًا محافل العبادة القديمة للتطابق التام بينها من حيث الزخرفة الداخلية. غير أن بيوت العبادة، من الدرجتين الوسطى والدنيا، بما في ذلك المقامة خارج مصر، كان لا بد وأن يتوفر عليها مجلس يدير شئونها، وهو ما يحدث الآن في جميع المعابد. وأبدأ هنا باقتباس من كلام سي إتش فيل؛ حيث يقدم في

كتابه «نظم الأسرار قديمًا» ص١٨٢، ١٨٣ وصفًا كاملًا لموقع المحفل الأعظم والأشهر في الأقصر، والذي يقول فيه:

(جـ٣) موقع المحفل الأعظم في العصر القديم

على بُعد مسافة قصيرة من دندرة، حيث صعيد مصر الآن، نشاهد أغرب مجموعة من الأطلال المعمارية، التي لا مثيل لها في أي بقعة من العالم، والمعروفة باسم معابد المدينة القديمة طِيبة. كانت طيبة — في عصرها الزاهي — تشغل مساحة واسعة على ضفتي النيل. وتمثل المدينة — آنذاك — حاضرة أمة تجارية كبرى لمصر العليا قبل أن تكون ممفيس عاصمة الأمة الثانية في مصر السفلى. وأيًّا كانت عظمة الآثار المعمارية للثانية، إلا أن الآثار المعمارية للأولى تجاوزتها بمراحل. وإن تصوير هذه الآثار المعمارية بالقلم أو بالفرشة لن يعطينا غير فكرة باهتة عن المدينة في صورتها الكاملة. ونرى المدينة في صورتها الراهنة أشبه بمدينة عمالقة وقد أصابها الدمار عقب معركة طويلة، وخلَّفت أطلال المعابد المختلفة لتبقى شاهدًا على وجودها.

إن معبد الأقصر (حيث كان يلتقي أعضاء المحفل الأعظم من المريدين) ينتصب فوق منصة مرتفعة تتألف من بناية بالآجر، تغطي مساحة طولها أكثر من ألفي قدم، وعرضها أكثر من ألف قدم (لاحظ الشكل المستطيل الذي أصبح نمطًا لجميع دور العبادة والكنائس في العالم).

وكان هذا المعبد محطَّ اهتمام أعضاء جميع الطرق أو الرهبانيات القديمة، خاصة جميع أعضاء تلك الطرق والرهبانيات الذين اعتادوا، ربما أكثر من غيرهم، على العبادة في قدس أقداس النار السرية. ويطل هذا المعبد على الضفة الشرقية للنيل، وهو الآن أطلال في حالة يُرثى لها. غير أن السجلات تقول إن حجمه ذا النِّسب المذهلة تجعل الرائي ينسى أوجه النقص فيه الآن. وقد أزيل — منذ ما يقرب من ربع قرن مضى — الجزء الأكبر من أعمدة الجدران الداخلية والخارجية، بعد أن انهارت لاستخدامها في أغراض أخرى. وأسس هذا المعبد الفرعون أمينوتيس أو أمنحوتب الثالث الذي شيد الجزء الجنوبي الذي يشتمل على بهو أعمدة ضخم يطل على النيل. غير أن الدمار الذي لحق بالمبنى أخفى — لسوء الحظ — هذه الحقيقة. ويطل المدخل الرئيسي للمعبد جهة الشرق، أما الغرف المقدسة — عند الطرف العلوي للسهل — فهي تقترب من النيل. وعلى الرغم من عظمة معبد الأقصر إلا أن معبد الكرنك فاقه عظمة وضخامة، وإن المسافة الفاصلة بين هذين الصرحين

العظيمين تساوي ميلًا ونصفًا، ونجد على طول هذا الطريق صفَّين من تماثيل لأبي الهول موضوعة بفاصل اثني عشر قدمًا بين كل منها، وعرض الطريق ستون قدمًا. وكان هذا الطريق — وقتما كان في حالته المثلى الكاملة — يمثِّل أغرب مدخل شهده العالم، ولو أن لدينا القدرة على أن نرسم من وحي خيالنا صورة لمواكب المريدين المهيبة ذات الجلال التي اعتادت — دائمًا وأبدًا — أن تمرَّ عبر هذا الطريق، والمشاركة في احتفالات الالتحاق، فإننا سنعجز عن تصوير عظمة وأبهة الجو المحيط ومنظر الألوان الجليل والحُلي والزخارف المهيبة التي يتحلى بها المشاركون في الموكب. ولن نستطيع كذلك أن نصور الموسيقى التي تصدح محافظة على إيقاع الخطو الثابت والمنتظم لذلك العدد الضخم من الناس ... فيا لبؤس الأذن المثقفة في القرن العشرين. ولكن أه لو أن الزمن لم يطمس هذه الألحان المرتجفة التي ترنمت بها شفاه الجماهير الحاشدة على مدى الزمان، وأولئك الذين استهل تاريخهم أعمق الأماني التي خفق بها القلب البشري كأنها مسار نهر قوي جبار ... لا بد وأن مصر كانت — وقت تشييد هذه المعابد — أمة حربية شجاعة، ذلك لأن سجلات معاركها الحربية خلَّدتها نقوش عميقة لا تزال راسخة — حتى الآن — تستثير إعجاب أفضل خبراء الآثار. ولقد كانت — أيضًا — أمة على درجة عالية من الحضارة، وذات طبيعة تؤهلها لتحمُّل النفقات التي تقتضيها ثقافة الفنون. إنها بفنها المعماري المذهل تجاوزت جميع الأمم التي ظهرت على سطح الأرض.

إنني مقتنع — تمامًا — بهذه الإشارات والاقتباسات التي تؤكد وجود المحفل المصري الأعظم لنظم الأسرار قديمًا، ومقتنع بأنه كان موجودًا — حقًّا وفعلًا — منذ حوالي خمسة آلاف عام أو يزيد، شامخًا على ضفتي النيل في مدينة طِيبة، وإنه كان البيت الديني الكبير الوحيد في العالم القديم، وقد عثرنا على أطلاله في مصر. وكان هو الهيئة الحاكمة أو السلطة العليا المسئولة — بالضرورة — عن إدارة وتوجيه الطقوس الدينية السرية ونظام الأسرار المصري القديم، علاوة على المدارس الفلسفية وبيوت العبادة أو المحافل الصغرى التي أنشئت تابعة له.

(جـ ٤) إعادة بناء معبد دلفي

احترق معبد دلفي عن آخره عام ٥٤٨ق.م. وأعاد بناءه أماسيس أو أحمس ملك مصر من أجل الأخوَّة بأن خصص له منحة مالية تزيد عن الحاجة ثلاث مرات، بما يساوي ألف طالين Talen (وحدة نقدية قديمة. (المترجم)) و٥٠ ألف رطل من الشب. وتفيد

المعلومات المتاحة أن المعبد نظَّم أعضاءه في رابطة دينية مشتركة لحماية أنفسهم ضد العنف السياسي وغيره. بَيْدَ أنهم كانوا فقراء إلى حدٍّ يتعذر معه توفير الأموال اللازمة لهم من الأعضاء، ومن ثَم قرروا جمع تبرعات من مواطني اليونان.

وبناءً عليه طافوا في جميع الأراضي يسألون العونَ والمساعدة، ولكن باءت جهودهم بالفشل، وقرروا زيارة الأُخوَّة في مصر. وفاتحوا الملك أماسيس أو أحمس في الأمر والذي لم يتردد، باعتباره المعلم أو السيد الأعظم، في التقدم لإعادة بناء المعبد، وقدم منحة تعادل ثلاثة أمثال المبلغ اللازم.

ملحوظة هامة

حري بنا هنا ملاحظة الآتي:

(١) اعتاد اليونانيون النظر إلى معبد دلفي باعتباره مؤسسة أجنبية ولذلك؛
(٢) لم يكن اليونانيون يتعاطفون تجاهه، وعمدوا للسبب نفسه إلى تدميره حرقًا.
(٣) واضح تمامًا أن معبد دلفي كان شعبة تتبع نظام الأسرار المصري، وأقيمت في اليونان.

(انظر [١]، ص١٣٥، ١٣٩)؛ ((٢٤)، ص٣٦٣ ك٢).

(٣) إلغاء كل من الفلسفة اليونانية ونظم الأسرار المصرية يؤكد وحدتهما

منذ غزو الإسكندر الأكبر لمصر شرع اليونانيون، الذين استهوتهم دائمًا نظم العبادة السرية على أرض النيل، محاكاة العقيدة الدينية المصرية في صورتها الكاملة. وانتشرت الديانة المصرية أثناء الاحتلال الروماني في إيطاليا، وأيضًا في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، بما في ذلك بريتاني في شمال فرنسا.

وانحصر تمثُّل الديانة المصرية في الأرباب والدورة الأوزيرية وإله العالم السفلي الرب سيرابيس المصري اليوناني، واستهدفت المحاكاة الوثيقة للتقاليد القديمة لأرض النيل. ونظرًا لفخامة وروعة العمارة والنقوش الهيروغليفية على جدران المعابد والمسلات وتماثيل أبي الهول المقامة أمام الأقداس، وملابس الكهنة الكتانية ورءوسهم ووجوههم الحليقة، والشعائر المتصلة إلى ما لا نهاية والمبهمة، كل هذا ملأ نفوس اليونانيين رهبة، ومن ثَم

اعتقدوا أن الطقوس السرية المثيرة للدهشة تمثِّل أساسًا لهذه الغوامض، ولهذا أيضًا وقفت الديانة المصرية حائلًا في طريق انتشار المسيحية الصاعدة.

ولا ريب في أن نجاح الديانة المصرية يرجع، من ناحية، إلى النزعة المحافظة، كما يرجع، من ناحية ثانية، إلى التجريدات الفلسفية الغامضة التي تؤلف الديانة اليونانية الرومانية. ولهذا فإن الإيمان القوي للمصريين، بالإضافة إلى الأشكال السرية لعبادتهم، أفضى كلُّ هذا إلى الاعتقاد، الذي ساد بين القدماء جميعًا في كل أنحاء الأرض، وهو الاعتقاد بأن مصر ليست — فحسب — أرضًا مقدسة، بل إنها أقدس الأراضي أو الأقطار قاطبة، وإنها مستقر الآلهة حقًّا.

وأصبح النيل مركز الحجيج وقِبلتهم في العالم القديم؛ يحج إليه الناس من جميع الأقطار، حيث يعاينون مظاهر الوحي المذهلة، والكرامات الروحية التي تتهيأ لهم، ثم يعودون وقد استقر في نفوسهم إيمان بأن النيل مهبط أعمق المعارف الدينية قاطبة.

أخفق الإغريق في محاكاة النزعة المحافظة المصرية، ولم يكن هذا مآلهم داخل المدن ذات الغالبية السكانية اليونانية، بل وفي أوروبا — أيضًا — حيث شوَّهوا الآلهة والمقدسات المصرية بما أضفوا عليها من أسماء وأساطير يونانية وآسيوية؛ وانحطوا بالآلهة إلى مجرد شخصيات حلولية غامضة. ولهذا، كمثالٍ، لم يتبقَّ لكل من إيزيس وأوزيريس سوى القليل جدًّا من أصلهم المصري (انظر [٢٥]، ص٢٤١–٢٤٣). ومثلما أخفقوا في النهوض بالفلسفة المصرية أخفقوا كذلك في النهوض بالديانة المصرية. وعلى مدى القرون الأربعة الأولى، في الحقبة المسيحية، ظلت العقيدة الدينية المصرية موصولة بكل قوتها وعنفوانها. ولكن بعد مرسوم الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس — في نهاية القرن الرابع الميلادي — الذي أمر — بمقتضاه — بإغلاق المعابد المصرية، بدأت المسيحية في الانتشار بسرعة أكبر، وبدأت تذوي كل من الديانة المصرية وديانة اليونان معًا. ولكن الديانة المصرية ظلت باقية مستمرة في جزيرة فيلة عند الشلال الأول للنيل بفضل سكان المنطقة البليميين. Blemmyans والنوباديين Nobodians النوبيين الذين رفضوا اعتناق المسيحية، وحين خشيت الحكومة الرومانية من تمردهم سعت — بكل الوسائل — إلى استرضائهم.

ولكن خلال القرن السادس الميلادي أصدر الإمبراطور جوستنيان مرسومًا آخر لقمع هذه البقية الباقية من معتنقي الديانة المصرية، ولنشر المسيحية بين النوبيين. وطوى النسيان العقيدة المصرية بموت آخر كهنتها، الذي كان يعرف قراءة وشروح «كتابات كلمات الآلهة» (أي اللغة الهيروغليفية). وظل السحر الشعبي هو المجال الوحيد الذي

يحتفظ ببعض الممارسات المتخلفة كبقايا أثرية للعقيدة التي أضحت ديانة عالمية، أو الاحتفاظ بتمثال إيزيس وحورس الذي اعتاد الناس إلى النظر إليه باعتباره يمثِّل السيدة العذراء وطفلها.

ولا تزال نفوس الناس تحمل مشاعر الإعجاب والرهبة إزاء هذه العقيدة الدينية التي تُعتبَر — بحقٍّ — أغرب العقائد جميعها، غير أن المعلومات، التي أثبتها الكُتَّاب الكلاسيكيون، عن هذه العقيدة قاصرة. إن غزو نابليون لمصر قد أحيا اهتمام الغرب من أجل حل رموز النقوش المصرية القديمة والكتابات المثبتة عل ورق البردي، بهدف فهم وتقييم هذه الحضارة الأولى والأسبق بين الحضارات القديمة (انظر [٢٥]، ص٢٤١–٢٤٥، ف٨؛ و[١]، ص٥٠٨ و٥٤٨ و٥٥٢–٥٦٨).

تفيدنا الاقتباسات — سالفة الذكر — بالمعلومات والحقائق التالية:

(١) نظم الأسرار المصرية تحولت إلى الديانة التي اعتنقها العالم القديم، وانتشرت في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، بما في ذلك إيطاليا واليونان وآسيا الوسطى، وأنحاء مختلفة من أوروبا حتى وصلت إلى مقاطعة بريتاني في شمال فرنسا. واستمرت هذه العقيدة تحت مسميات متباينة بعد فترة طويلة من تاريخ صدور مرسوم التسامح الذي أصدره جوستنيان منحة إلى المسيحيين.

(٢) كانت مصر هي الأرض المقدسة في نظر العالم القديم يحج إليها الناس لينعموا بتجليات الإلهامات المذهلة والكرامات الروحية، هذا فضلًا عن الاقتناع السائد بين القدماء بأن مصر مهبط الوحي وأرض الآلهة.

(٣) إن المرسوم الذي أصدره ثيودوسيوس في القرن الرابع الميلادي، وكذا المرسوم الذي أصدره جوستنيان في القرن السادس الميلادي أدَّيا إلى إلغاء نظام الأسرار المصري، كما أدَّيا كذلك إلى إلغاء المدارس الفلسفية، المنبثقة عن هذا النظام، الموجودة خارج مصر، سواء في اليونان أم في غيرها.

(٤) إن إلغاء نظم الأسرار المصرية هيَّأ فرصة لاعتناق المسيحية، وأصبحت المشكلة على النحو التالي: شعرت الحكومة الرومانية أن مصر مُنيت بهزيمة مسلحة، وجثت على ركبتيها، ولكن حتى تستكمل الغزو، يلزم إلغاء نظم الأسرار المصرية التي كانت لا تزال تتحكم في العقل الديني للعالم القديم، ومن ثَم لا بد من توفر عقيدة دينية عالمية جديدة تحل محل الديانة المصرية . وهذه العقيدة الدينية الجديدة التي ستحل محل نظم الأسرار لا بد وأن تكون مثل هذه النظم، قوة وشمولًا عالميًّا، ووصولًا إلى هذا يتعين عمل أي

شيء لتعزيز نفوذها. ويفسر لنا هذا سبب النمو السريع للمسيحية عقب صدور مرسوم جوستنيان بشأن التسامح.

(٥) منذ أن ألغى مرسوما ثيودوسيوس وجوستنيان كلًّا من نظم الأسرار في مصر ومدارس الفلسفة في اليونان؛ بدا واضحًا تطابق طبيعة نظم الأسرار المصرية وطبيعة الفلسفة اليونانية؛ كما وضح أن الفلسفة اليونانية انبثقت عن نظم الأسرار المصرية.

(٤) كيف أعطت أفريقيا ثقافتها للعالم الغربي

سبق أن ذكرنا أن نظم الأسرار المصرية ومدارس الفلسفة في اليونان أُغلِقت جميعها بناء على مرسوم ثيودوسيوس في القرن الرابع الميلادي، ومرسوم جوستنيان في القرن السادس الميلادي (٥٢٩م)، ونتيجة لذلك خيَّم الظلام الفكري على أوروبا المسيحية وعلى العالم اليوناني الروماني طوال عشرة قرون. وتلاشت المعرفة على مدى هذه الحقبة. وكما ذكرنا، في موضع سابق، فإن اليونانيين لم يكشفوا عن أي قوى إبداعية، وعجزوا عن التطور تأسيسًا على المعارف التي تلقَّوها من المصريين (انظر [٢٦]، ص١٤١، ١٥٣؛ [٢]، ص٣١).

وخلال فترات الغزو الفارسي، ثم اليوناني فالروماني، فرَّت أعداد غفيرة من المصريين لا إلى المناطق الصحراوية والجبلية فحسب، بل وإلى الأقطار المجاورة في أفريقيا والجزيرة العربية وآسيا الوسطى، حيث عاشوا هناك وطوروا — سرًّا — تعاليم نظامهم الديني المتمثل في نظام الأسرار. وخلال القرن الثامن الميلادي غزا بربر المغرب، وهم من مواطني موريتانيا في شمال أفريقيا، إسبانيا وحملوا معهم الثقافة المصرية التي احتفظوا بها. ولقد كانت المعرفة — في العصور القديمة — متمركزة، بمعنى أنها تنتمي إلى أب مشترك ونظام مذهبي مشترك، وهما — هنا — تعليم الحكمة، أو مبادئ نظم الأسرار في مصر، والتي سماها اليونانيون سوفيا Sofia وتعني الحكمة.

مفاد هذا الكلام أن أبناء شعب شمال أفريقيا كانوا جيران المصريين، وأصبحوا وعاء الثقافة المصرية التي نشروها في أنحاء كثيرة واسعة في أفريقيا وآسيا الوسطى وأوروبا. وأظهر المغاربة — خلال احتلالهم لإسبانيا — براعة في الكشف عن عظمة الثقافة والحضارة الأفريقية. واشتهرت المدارس والمكتبات التي أسَّسوها هناك في كل أنحاء عالم العصر الوسيط؛ فكانت منهلًا لغرس ونشر العلوم والتعليم، واقترنت هذه الشهرة الواسعة بمدارس قرطبة وطليطلة وأشبيلية وسرقوسة، حتى إنها، أسوة بالأب

الأول مصر، استهوت طلابًا لها من جميع أنحاء العالم الغربي، وظهر من بينهم أشهر من عرف العالم من أساتذة أفريقيين في مجالات علوم الطب والجراحة والفلك والرياضيات. غير أن هؤلاء الناس — من أبناء شمال أفريقيا — قدموا ما هو أكثر من أن يميزهم فقط عن إسبانيا. لقد كانوا — حقًّا وفعلًا — القيمين على الثقافة الأفريقية باعتراف الجميع، وهي الثقافة التي تطلَّع إليها العالم ابتغاء التنوير، وبناءً عليه فإن الفلسفة والفروع الأخرى للعلوم تم بذرها ونشرها عبر اللغة العربية. وشملت ما يلي:

(أ) كل ما يُسمَّى أعمال أرسطو في الميتافيزيقيا وفلسفة الأخلاق والطبيعيات.
(ب) ترجمة ليوناردو بيزانو للعلوم الرياضية إلى العربية.
(ج) ترجمة جيديو أحد رهبان أريزو للنوتة الموسيقية.
(انظر [٢٦]، ف٩).

علاوة على هذا حافظ المغاربة على اتصالهم المستمر بمصر الأم: ذلك أنهم أقاموا خلفاء في بغداد وفي قرطبة وفي القاهرة عاصمة مصر (انظر [٢٧]، ص٢١٦–٢١٩) وجدير بالذكر هنا أن جميع القادة العظام للديانات الكبرى في العصر القديم كانوا مريدين لنظام الأسرار المصري: ابتداء من موسى، الذي كان كاهنًا مصريًّا، ووصولًا إلى المسيح.

ولعل من المهم أن نعرف أن العلماء الأوربيين، من أمثال روجر بيكون وجوهان كيبلر وكوبرنيك وغيرهم، قد حصلوا على معارفهم العلمية عن طريق مصادر عربية أو بربرية مغربية. وجدير بالذكر — أيضًا — أنه — وعلى مدى العصور الوسطى — كانت المعارف الأوروبية عن الطب تأتي من هذه المصادر نفسها (انظر [٢٨]، ص٣٧٠، ٦٢٩، ٦٦٥، ٥٧٢؛ و[٢٩]، ص١٠٧، ١٢٨، ١٢٩؛ و[١٢]، ص٥٩، ٦١، ٧٤، ٧٥، ١٠٩).

الفصل الرابع

المصريون علَّموا اليونانيين

(١) نتائج الغزو الفارسي

(أ) إلغاء قيود الهجرة على اليونانيين، وفتح أبواب مصر على مصراعيها للبحث اليوناني

نظرًا لممارسة القرصنة، التي اشتُهر بها الأيونيون والكاريون[١] اضطر المصريون إلى إصدار قوانين لتقييد هجرة اليونانيين ومعاقبة من ينتهك منهم القانون بالإعدام، أي التضحية بالضحية. ولم يكن مسموحًا لليونانيين، قبل عهد بسماتيك، بتجاوز شاطئ مصر الدنيا. ولكن تم تعديل هذه الشروط في عهده وفي عهد أماسيس أو أحمس؛ وبدأ المصريون — لأول مرة في تاريخهم — يستخدمون الأيونيين والكاريين جنودًا مرتزقة في الجيش المصري (٦٧٠ق.م.) ونظموا التفسير عن طريق هيئة مسئولة عن التفسير؛ وبذا بدأ اليونانيون يحصلون على معلومات مفيدة عن ثقافة المصريين.

وعلاوة على هذه التغيُّرات، ألغى الملك أماسيس — أو أحمس — القيود المفروضة على اليونانيين، وسمح لهم بدخول مصر والاستقرار في «نوكراتيس» وحوالي هذا الوقت، أي في عهد أحمس، غزا الفرس — بقيادة قمبيز — مصر، وانفتحت أبواب البلاد على مصاريعها ليقوم اليونانيون بأبحاثهم.

---

[١] نسبة إلى كاريا، وتقع قديمًا جنوب غرب آسيا الوسطى، ولها ساحل ممتد على بحر إيجة، وعاصمتها هاليكارناسوس. (المترجم)

(ب) نشوء التنوير الإغريقي

لم يهيِّئ الغزو الفارسي فقط لليونانيين فرصة مواتية للبحث؛ بل حفزهم أيضًا على خلق تاريخ نثري لأيونيا؛ إذ لم يكن لليونانيين، حتى ذلك الحين، سوى معارف قليلة أو غير دقيقة عن الثقافة المصرية، غير أن اتصالهم بمصر أسفر عن نشوء عصر تنوير لهم (انظر [٣٠]، ص٣٣٨؛ [٣١]، ك٢، ص١١٣؛ [٣٢]، ص٣٨٠؛ [٣٣]، ٨٠٢، [٣٤]، ك٩، ص٤٩).

(ج) طلاب من أيونيا وجزر بحر إيجة يزورون مصر لتلقي العلم

تمامًا مثلما يحدث في عصرنا هذا؛ حيث تجتذب الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا طلابًا من جميع أنحاء العالم لما تتميز به هذه البلاد من ريادة وقيادة في مجال الثقافة. كذلك كان الحال في العصور القديمة؛ إذ كانت مصر صاحبة القدح المعلَّى في مجال زعامة الحضارة، وتدفق عليها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم؛ يلتمسون الالتحاق بنظام الأسرار أو نظام الحكمة فيها.

وبدأت هجرة اليونانيين القدماء إلى مصر بغرض تلقي العلم نتيجة الغزو الفارسي (٥٢٥ق.م.) واستمرت الهجرة إلى أن استولى اليونانيون على مصر، وتيسر لهم الحصول على المكتبة الملكية بعد غزو الإسكندر الأكبر للبلاد. وتحولت الإسكندرية — آنذاك — إلى مدينة يونانية ومركزًا للأبحاث، وعاصمة للإمبراطورية اليونانية الوليدة، في ظل حكم البطالمة. وظلَّت الثقافة المصرية باقية، وازدهرت باسم اليونانيين وتحت سيطرتهم، إلى أن صدر مرسوم ثيودوسيوس — في القرن الرابع الميلادي — ومرسوم جوستنيان — في القرن السادس الميلادي — وبمقتضاهما أغلقت السلطات معابد ومدارس نظم الأسرار المصرية على نحو ما ذكرنا سابقًا (انظر [٢٤]، ك٢، ص٥٥؛ [١]، ص٥٦٢، ٥٧٠).

أما عن القول إن مصر كانت أعظم مركز تعليمي في العالم القديم أمَّه اليونانيون، شأن غيرهم، لتلقي العلم، فهذه حقيقة يمكن الرجوع فيها ثانية إلى أفلاطون في محاورته طيماويس؛ حيث يخبرنا أن اليونانيين الطامحين إلى الحكمة اعتادوا زيارة مصر للالتحاق والتتلمذ هناك؛ وأن كهنة سايس اعتادوا الحديث عنهم بوصفهم أطفالًا في نظم الأسرار.

وفيما يتعلق بزيارة طلاب العلم من اليونانيين لمصر لتلقي العلم، فإننا نورد ما يلي لا لشيء سوى لإثبات حقيقة تؤكد أن العالم القديم كان ينظر إلى مصر باعتبارها المركز التعليمي، وأن جماعات مختلفة، مثل اليهود واليونانيين، اعتادوا زيارة مصر لتلقي علومها.

(١) يُروى أنه في أيام حكم أماسيس زار طاليس (الذي قيل إنه وُلِد حوالي عام ٥٨٥ق.م.) مصر، وتتلمذ على أيدي الكهنة المصريين الذين قبلوه مريدًا مبتدئًا لتلقي نظم الأسرار والعلوم المصرية. ويُروى أيضًا أن طاليس أثناء إقامته في مصر تعلَّم الفلك ومساحة الأراضي وفن القياس والهندسة وفقه الإلهيات المصري (انظر [٣٥]، مادة طاليس، [٢]، ص٣٤، ٢٤ مادة طاليس).

(٢) ويُروى أيضًا أن فيثاغورس، وهو من مواطني ساموس، سافر — مرات عديدة — إلى مصر لتلقي العلم، ووجد لزامًا عليه، شأن كل طموح إلى العلم، أن يضمن رضا وعطف الكهنة. وأفاد ديوجين أن علاقة صداقة جمعت بين بوليكراتيس — من جزيرة ساموس — وبين الملك أماسيس — ملك مصر — وأن بوليكراتيس سلَّم فيثاغورس رسائل ليقدم بها نفسه إلى الملك الذي قدمه بدوره إلى الكهنة؛ أولًا إلى كاهن هليوبوليس، ثم إلى كاهن ممفيس، وأخيرًا إلى كهنة طيبة. وقد أهدى فيثاغورس إلى كل منهم كأسًا ذهبية (انظر [٣١] ك٣، ص١٢؛ [٣٤]، ك٨، ص٣؛ وانظر أيضًا Pliny N. H 36.9 سجله تورنير).

وقيل لنا أكثر من هذا على لسان هيرودوت وجابلونسك وبليني، إنه بعد أداء اختبارات عديدة، من بينها الختان الذي فرضه عليه الكهنة المصريون، أجيز له — أخيرًا — الانضمام إلى جميع أسرارهم. وتعلَّم أيضًا مذهب التقمص الروحي، وهو مذهب لم يكن له أي أثر قبل ذلك في الديانة اليونانية. وعرفنا كذلك أن معارفه في مجال الطب، والتزامه بنظام غذائي له قواعد صارمة، كل هذا مايزه عن غيره؛ باعتبار أنها أمور تخص مصر التي بلغ الطب فيها شأوًا عظيمًا، لا يدانيه أي مكان آخر. واكتسب معلومات في مجال الهندسة تتطابق مع حقيقة مؤكدة أن مصر مهد ذلك العلم. ولدينا — زيادة على هذا — آراء وأخبار بلوتارك وديمتريوس وأنتيستين الذين قالوا إن فيثاغورس أسَّس علم الرياضيات بين اليونانيين، وإنه قدم فدية إلى ربات الفنون عندما شرح له الكهنة خصائص المثلث قائم الزاوية (انظر [٣٦]، ص١٠٨٩؛ [٣٧]، ص٣٦). وتثقف فيثاغورس كذلك في الموسيقى على أيدي الكهنة المصريين (انظر [٢٤]، مجلد ١، ص٢٣٤).

(٣) حسب رواية كل من ديوجين لايرتيوس وهيرودوت، نعرف أن ديمقريطس وُلِد حوالي عام ٤٠٠ق.م. وأنه من مواطني أبديرا في ميليتوس، وروى لنا ديمتريوس، في رسالته التي تحمل عنوان «أصحاب الأسماء المتماثلة»، كما روى أنتستين في رسالته «الخلاقة» أن ديومقريطس سافر إلى مصر لتلقي العلم، وتعلم على أيدي الكهنة. ونعرف

أيضًا، من ديوجين وهيرودوت، أنه قضى في مصر خمس سنوات، تتلمذ خلالها على أيدي كهنة مصر، وبعد أن أكمل تعليمه ألَّف رسالة عن الخصائص المقدسة لجزيرة ميروي.[٢]

ونعرف المزيد، في هذا الصدد، على لسان أوريجين الذي يروي أن الختان كان إجباريًّا، وكان أحد الشروط اللازمة للشروع في معرفة اللغة الهيروغليفية المقدسة وتحصيل العلوم المصرية. وواضح أن ديمقريطس التزم بأداء هذه الشعيرة بغية الحصول على هذه المعرفة. ونقرأ فيما يلي ما كتبه أوريجين، وهو مواطن مصري:

Apud Aegyptios Nullus aut Geometrica Studebat, aut astronomiae secreta secreta remabatur, nis circumcisione suscepta.

وترجمتها: «لا أحد من المصريين، سواء درس الهندسة أو بحث في أسرار الفلك، تأتَّى له هذا؛ ما لم يجرِ عملية الختان.»

(٤) وروى لنا هرمودور عن رحلات أفلاطون، أن أفلاطون وهو في سن ٢٨ زار إقليدس في ميجارا، ومعه عدد من تلامذة سقراط. وأنه زار خلال السنوات العشر التالية من عمره كلا من سيرين[٣] وإيطاليا، ثم زار — أخيرًا — مصر؛ حيث تتلمذ على أيدي رجال الدين المصريين.

(٥) أما عن سقراط وأرسطو وغالبية الفلاسفة السابقين على سقراط، فيبدو التاريخ صامتًا لا يجيب على مسألة سفرهم إلى مصر لتلقي العلم، شأن غيرهم من الطلاب الذين أسلفنا ذكرهم. وحسبنا أن نقول إن الاستثناء في هذه الحالة يثبت القاعدة، أن جميع الطلاب، الذين تيسَّرت لهم الوسيلة، سافروا إلى مصر لاستكمال تعليمهم. وإذا كان التاريخ لم يقدم لنا رواية كاملة شاملة وشافية عن هذا النوع من الهجرة فقد يكون مرد ذلك إلى بعض أو كل الأسباب التالية:

(أ) القوانين المقيِّدة للهجرة المفروضة على اليونانيين حتى عهد الملك أماسيس والغزو الفارسي.

(ب) التاريخ الواقعي لم يكن متطورًا بعد بين اليونانيين خلال فترة هجرتهم التعليمية إلى مصر.

---

[٢] تقع في إثيوبيا، وعاصمتها ميروي أيضًا، وكانت في عهد قديم جدًّا عاصمة لدولة قوية، وكان كهنتها على علاقة وثيقة، من حيث النشأة والعادات، مع كهنة مصر. (المترجم)

[٣] مدينة يونانية في سيرينايكا. (المترجم)

(ج) اضطهدت السلطات اليونانية طلاب الفلسفة وأجبرتهم على التخفي، وبناءً عليه:
(د) تعمَّد طلاب نظم الأسرار المصرية إخفاء تحركاتهم.

وليسمح لنا القارئ أن نعيد ذكر أنكساجوراس الذي قدمته السلطات إلى المحاكمة وسجنته؛ وأنه هرب من سجنه، وفرَّ إلى وطنه في أيونيا. كذلك سقراط الذي حوكم وسُجن ثم أعدِم، وتذكر أيضًا أن أفلاطون وأرسطو فرَّا من أثينا بسبب الشكوك الكثيرة والخطيرة التي أحاطت بهما (انظر [٣]، ص٦٢، ٣٨؛ [٢]، ص٤٨، ٢٧؛ [٤]، ص٧٦؛ [٣]، ص١٢٦).

(٢) نتائج غزو الإسكندر الأكبر مصر

(أ) نهب المكتبة الملكية والمتحف وكذا المعابد والمكتبات الأخرى في مصر

كما ذكرنا — في موضع سابق — فقد كانت إحدى عادات الجيوش الغازية — قديمًا — اعتبار المكتبات والمعابد غنيمة حرب بهدف الاستيلاء على ما فيها من كتب ومخطوطات والتي يرونها كنوزًا عظيمة القدر، ويكفي أن نذكر هنا بعض الأمثلة القليلة للتحقق من هذه العادة:

(أ) رُوي أنه أثناء الغزو الفارسي، الذي بدأ بقيادة قمبيز، لم يقتصر الأمر على تجريد المعابد المصرية مما فيها من ذهب وفضة، بل عاثوا فيها بحثًا عن السجلات القديمة لسرقتها؛ لقد كان كل معبد مصري يضم مكتبة سرية بها كتب ومخطوطات تحتوي أسرار العلوم.

(ب) «ورُوي» أيضًا أنه حين استولى الرومان على أثينا عام ٨٤ق.م. ثم الاستيلاء على الكتب التي تحويها المكتبة — التي قيل إنها تخص أرسطو — ونُقِلت إلى روما (انظر [٣]، ص١٢٨؛ [٢٤]، مجلد ٢، ص٤٣٢).

ومثلما حدث عند غزو الفرس مصر؛ حيث جرَّدت الجيوش الغازية المعابد مما فيها، من ذهب وفضة وكتب مقدسة، ومثلما حدث أيضًا عندما استولى الرومان على أثينا حيث اغتصب صولا المكتبة الوحيدة التي عثر عليها كذلك، لنا أن نتوقع ما فعله الإسكندر الأكبر عند غزو مصر. إن من أول الأشياء التي لا بد وأنه أقدم على فعلها، هو ورفاقه

وجيوشه، سيكون — بالضرورة — البحث عن الكنوز التي في البلاد والاستيلاء عليها. ولقد كانت هذه الكنوز مودَعة في المعابد والمكتبات، وتضم كميات من الذهب والفضة اللازمة لاستخدامها بالنسبة للآلهة وفي مواكب الاحتفالات، مثلما كانت تحتوي على العديد من الكتب المقدسة والمخطوطات المودَعة داخل المكتبات، وفي داخل قدس الأقداس لكل معبد من المعابد.

وعندي اعتقاد جازم بأن هذه — في الحقيقة — كانت أعظم فرصة أتاحها الإسكندر الأكبر لأرسطو، ويسَّر له ولتلامذته الاستيلاء على أكبر عدد ممكن من الكتب التي احتاجوا إليها من المكتبة الملكية، وتحويل المكتبة إلى مركز أبحاث. وكان هناك أيضًا — علاوة على المكتبة الملكية بالإسكندرية — مكتبة أخرى شهيرة بالقرب منها وهي «مكتبة طِيبة الملكية»، وتُعرَف باسم المنيفثيون التي أسَّسها الفرعون سيتي، وأكملها رمسيس الثاني، ولكن قليلًا ما يأتي في التاريخ ذكر هذه المكتبة التي هي أعظم المكتبات الملكية المصرية.

بَيْدَ أن أي جيش غازٍ سوف يبدأ بنهب المكتبة الملكية بالإسكندرية كغنيمة ثم يتجه بعد ذلك إلى مكتبة المنيفثيون في طيبة، وقد يشرعون — أيضًا — في زيارة مدينتي ممفيس وهليوبوليس، ويغنمون — بالمثل — مكتباتهما ومعابدهما، لقد كانت هذه هي عادة القدماء، وهي — يقينًا — إحدى الوسائل التي لجأ إليها اليونانيون للحصول على علوم المصريين (انظر [٢٥]، ص١٨٧–١٨٩، ٢٠٥؛ [٧] ص١٦، ٥١؛ [٣٩]، ج١، ص٢٧؛ [٢٤]، ج٢، ص٤٣٢-٤٣٣) ولهذا نرى أنه اعتقاد خاطئ الظن بأن اليونانيين أقاموا — بجهودهم الذاتية — وعلى أرض مصر جامعة كبرى بالإسكندرية، وتخرَّج فيها أعداد كبيرة من الباحثين والمفكرين. وحيث إنها، من ناحية أخرى، حقيقة معروفة أن مصر كانت أرض المعابد والمكتبات؛ إذن نستطيع أن نتبين كم يسيرًا على اليونانيين أن يجرِّدوا المكتبات المصرية الأخرى من محتوياتها من الكتب بغية الإبقاء على مكتبة الإسكندرية الجديدة، بعد أن كان قد نهبها بالفعل أرسطو وتلامذته. لقد حوَّل اليونانيون (أعني الإسكندر الأكبر، ومدرسة أرسطو، ومن جاء من بعدهم من البطالسة) مكتبة الإسكندرية الملكية إلى مركز أبحاث بأن نقلوا مدرسة أرسطو وتلامذته من أثينا إلى هذه المكتبة المصرية العظمى، ومن ثَم فإن الطلاب الذين كانوا يدرسون هناك تلقَّوا تعليمهم على أيدي الكهنة والمعلمين المصريين إلى أن وافتهم المنية. وغني عن البيان أن صعوبة اللغة والترجمة ألزم اليونانيين الاستعانة بمعلمين مصريين.

إن اليونانيين لم يحملوا معهم ثقافة وتعليمًا إلى مصر، بل وجدوا هذا جاهزًا هناك، واختاروا — عن فطنة وذكاء — الاستيطان في هذا البلد بغية استيعاب أكبر قدر ممكن من الثقافة.

(ب) مكتبة طِيبة الملكية

وصف المنيفثيون. الجيوش الغازية غنمتها أيضًا

ولكن إذا ما اطَّلعنا على تخطيط موجز لعظمة مكتبة طيبة الملكية، أو المنيفثيون، فإننا سنرى الصورة على نحو أفضل، وسوف نسلِّم — مضطرين — بأن مصر مستودع الثقافة قديمًا، وأنه تم الاحتفاظ بالثقافة في صورة أعمال أدبية مودَعة في مكتباتها ومعابدها العظيمة. ومع أن مكتبة طيبة الملكية تضارع مكتبة الإسكندرية الملكية عظمة، إلا أننا نتبين في مكتبة طيبة الملكية شيئًا أكثر جلالًا وأصدق تعبيرًا عن حقيقة عظمة مصر القديمة.

لا نزال نرى على يسار الدرج المؤدي إلى الفناء الثاني قاعدة التمثال الجرانيتي الضخم للملك رمسيس، وهو أضخم تمثال عرفته مصر حسب رواية ديودور، وقُدِّر ارتفاعه بأربعة وخمسين قدمًا، ووزنه ٨٨٧,٢٥ طنًّا، ويا له من أعجوبة تذهل العقل الحديث. ويمثِّل الوجه الداخلي لجدار البوابة حروب رمسيس الثالث. وتعرض الأعمدة الأوزيرية Osiride في الفناء الثاني تماثيل متراصة في وحدة متناغمة ارتفاعها ست عشرة ذراعًا تملأ بهو الأعمدة. ونجد تمثالَيْن للملك وهو جالس عند أسفل الدرج المفضي من الفناء إلى القاعة التالية في الطرف الآخر. ورأس أحد التمثالين مصنوع من الجرانيت الأحمر، ومعروف باسم ممنون الفتى، وقد سرقه بلزوني، وهو الآن أحد المقتنيات الرئيسية في المتحف البريطاني.

ونشاهد بعد ذلك بقايا قاعة مساحتها ١٣٣ في ١٠٠ قدم، يدعمها ٤٨ عمودًا، من بينها اثنا عشر عمودًا، ارتفاع كل منها ٣٢ قدمًا، ومحيطها ٢١ قدمًا. ونجد، على أجزاء مختلفة من الأعمدة والجدران، صورًا تمثل الملك يتضرع — وفاء — إلى كبار الآلهة في بانثيون طيبة أو هيكل جميع الآلهة، كما نشاهد البركات السخية التي تنعم بها الآلهة على الملك استجابة لضراعاته. ويصور لنا نحت آخر كبيري آلهة مصر يقلدان الملك رموزَ السلطة العسكرية والمدنية، وهي سيف معقوف وسوط وصولجان مقدس. وترى أسفل النحت موكبًا يضم ٢٣ من أبناء رمسيس يحمل كلٌّ منهم رمز منصبه الرفيع في الدولة، وقد نُقِشت أسماؤهم فوق رءوسهم، ووراء القاعة تسع غرف أصغر حجمًا، لا تزال

غرفتان منهما باقيتين وقد دعمتهما الأعمدة. ونشاهد عند باب أول غرفة نحتًا يصور الإله تحوت الذي أبدع حروف الكتابة، ونحتًا للإلهة ساف تحمل اسم «سيدة الأبجدية»، ونرى صورة رئيس قاعة الكتب يصطحب الأول حاملًا رمز إحساس البصر، ويصطحب الثانية حاملًا رمز السمع.

ولا ريب في أن هذه هي المكتبة المقدسة التي يصفها ديودور، حسب عبارة منقوشة تقول «دواء العقل»، وسقف هذا المبنى معبَّر فلكيًّا؛ إذ يمثل شهور السنة الاثني عشر في التقويم المصري مع نقوش استخلص منها الباحثون دلالات هامة تتعلق بتأريخ فترة حكم رمسيس الثالث.

ونجد على الجدران صورة موكب للكهنة يحملون الفنون المقدسة، وفي الغرفة التالية، وهي آخر ما تبقى الآن، صورة الملك يقدم القرابين إلى الآلهة المختلفة (انظر [٢٤]، ك١، ص١٢٨–١٣١).

(ج) متحف ومكتبة الإسكندرية كانا جامعة

بلغت شهرة متحف ومكتبة الإسكندرية أقصاها في العالم القديم حتى إننا نعجب لماذا لم تصلنا معلومات أكثر عن هذا المركز التعليمي. ولا ريب في أن بضع إشارات إلى المصادر الثقات قد يساعدنا على توضيح الأمر في هذا الصدد.

نعرف من كتاب سيد جويك وتيلر «تاريخ العلم» (الفصل الخامس، ص٨٧–١١٩) أن إخضاع الإسكندر الأكبر لمصر عام ٣٣٠ق.م. قد عاق الحضارة اليونانية عن تحقيق المزيد من التطور على أرضها، اليونان نفسها.

وعرفنا كذلك أنه بعد وفاة الإسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ق.م. قُسِّمت إمبراطوريته بين قادته العسكريين، وأن الإسكندرية، العاصمة الجديدة لمصر، سقطت في أيدي البطالمة، وسرعان ما أصبحت المدينة — التي لم يتجاوز عمرها عشر سنوات — مركز العالم المثقف، وأنه بحلول عام ٣٠٠ق.م. تأسس المتحف (وتعني كلمة Museum متحف مقر ربات الشعر Muses)، وأصبح جامعة — حقًّا — للتعليم اليوناني.

وألحقت بالمتحف مكتبة عظيمة بها قاعة طعام وقاعات للمحاضرات يستخدمها أساتذة الجامعة. وتحوَّل المتحف إلى مدرسة للفلاسفة ولعلماء الرياضيات والفلك، وأصبح هذا المكان، وعلى مدى سبعمائة عام بعد ذلك، الموطن الرئيسي للعلم.

ولكن جدير بنا أن نتذكر هنا أن العبارة السابقة التي قالها سيد جويك وتيلر عبارة مضلِّلة نظرًا لأن اليونانيين لم يحملوا معهم حضارة خاصة بهم إلى مصر، بل العكس هو

الصحيح؛ إذ إنهم وجدوا في مصر ثقافة مصرية متطورة إلى أقصى حدٍّ بمقياس العصر، أمكن الحفاظ عليها إلى حين بفضل استخدام الكهنة والعلماء المصريين للعمل معلمين بها.

(د) اليونانيون يطبقون سياسة عسكرية للحصول عنوة على المعلومات من المصريين

من بين السياسات العسكرية التي اتَّبعتها السلطات اليونانية في الإسكندرية — كسلطات احتلال — إصدار أوامر إلى كبار الكهنة المصريين للحصول منهم على معلومات بشأن التاريخ المصري، والفلسفة والديانة في مصر. وهذا النهج القديم لا يختلف — في كثير أو قليل — عن نظيره في العصر الحديث؛ إذ من المعتاد — في الزمن الحديث — أن تعقد الجيوش الغازية المنتصرة اجتماعات مع رجال العلم في البلد المهزوم بغية اكتشاف ما إذا كان في جعبتهم شيء جديد أم لا في مجال العلوم التي قد تكون في حوزتهم. وحري بنا هنا أن نتذكر ما حدث في أعقاب الحرب العالمية الثانية حين عقد العلماء الأمريكيون مؤتمرًا مع العلماء اليابانيين في طوكيو. ورُوي — بناء على ذلك — أن بطليموس الأول الملقَّب بالمخلص أراد أن يستكشف أسرار الحكمة المصرية أو الأسرار فأمر مانيتو كبير كهنة معبد إيزيس في مدينة سيبينيتوس في الدلتا أن يكتب فلسفة المصريين وتاريخ ديانتهم.

وبناء على ذلك نشر مانيتو عديدًا من المجلدات، عن هذين الموضوعين، وأصدر بطليموس أمرًا بحظر ترجمة هذه الكتب التي يتعين الاحتفاظ بها — من باب الاحتياط — في المكتبة لتعليم اليونانيين على أيدي الكهنة المصريين. ويتضح هنا — بجلاء — أن أول أساتذة مدرسة الإسكندرية هم الكهنة المصريون، وأن الباحثين وتلامذة أرسطو نقلوا المدرسة، وتلقَّوا تثقيفهم العلمي مباشرة على أيدي الكهنة المصريين، ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن الكتب الدراسية الأساسية في مدرسة الإسكندرية هي كتب مانيتو.

وقيل، على لسان أبوملودوروس، والذي استقى منه سينكيلوس معلوماته، أن بطليموس الثاني أمر إراتوستين الكيرنياني (أي رجل أسود من مواطني المدينة اليونانية كيرين) وأمين مكتبة الإسكندرية أن يكتبا تأريخًا لملوك طيبة، وأنجز إراتوستين ما طُلِب منه بمساعدة رجال الدين المصريين في طيبة (انظر [٢٤]، مجلد ٢، ص٨١).

علاوة على هذا، أصبحت العادة المتبعة في ظل الاحتلال اليوناني والروماني استخدام الكهنة والمفكرين المصريين أساتذة في مدرسة الإسكندرية.

ورُوي أنه في عهد تيودوسيوس (٣٧٨–٣٩٥) أَلَّف الأستاذ المصري هورابولُّو منظومة عن اللغة الهيروغليفية المصرية. ومعروف أن منظومة اللغة الهيروغليفية المصرية التي أَلَّفها هورابولُّو هي أفضل ما وصل إلينا في العصر الحديث، ورُوي — أيضًا — أن هذا الأستاذ لم يعلِّم فقط في مدرسة الإسكندرية، بل علَّم أيضًا في القسطنطينية (انظر [٢٤]، ك١، ص٢٤٢ و٤٠).

(٣) المصريون أول من علَّم اليونانيين المدنية

عرفت اليونان — قديمًا — المدنية بواسطة مستعمرات تابعة لمصر ثم فينيقيا وتراقيا. كانت هذه الأقطار خاضعة لحكم رجال دولة حكماء، لم يقهروا فقط ضراوة العامة الجهلاء بفضل المؤسسات الدينية؛ وإنما هيَّئوا لهم لجام العقيدة الدينية المكين والخوف من الآلهة. وأيًّا كانت العقائد التي تعلَّموها — كلٌّ في بلده — عن الأمور الإلهية والبشرية، إلا أن هذه المجتمعات — حديثة التكوين — تلقَّت مذهبًا، في الفضائل، قادرًا على أن يحقق ضبط النفس. لقد كان فورونيوس وكيكروبس مصريين، وكان كادموس فينيقيًّا وأورفيوس من تراقيا، وحمل كلٌّ منهم إلى اليونان — من خلال مستعمرات بلاده — المذاهب الدينية والفلسفية الخاصة ببلده.

وممارسة تعليم مبادئ العقيدة الدينية للناس، تحت ستار الأساطير، إنما نشأت بداية على أيدي المصريين. واتَّبع نفس النهج من بعدهم الفينيقيون والتراقيون، ثم دخلت بعدهم إلى اليونان القديمة.

ويقول سترابو إنه لم يكن ممكنًا — في العصور القديمة — توجيه حشد متنافر إلى الدين والفضيلة عن طريق محاضرات فلسفية، وإنما كان هذا ليتحقق بوسيلة واحدة فقط هي الاستعانة بالخرافة والمعجزات والحكايات الخيالية. ومن ثَم كانت الصاعقة الرعدية، والدرع، والرمح، والسهم، والمشاعل، والحيَّات هي الأدوات التي يستعين بها مؤسسو الدول لإرهاب الجاهل والعامي وإخضاعه لسلطانهم؛ وهذه إشارات واضحة الدلالة بذاتها.

ولقد استخدم اليونانيون اسم كيوبس وكيكروبس بديلًا عن الاسم المصري خوفو الذي يعود إلى الأسرة الرابعة المصرية أو إلى عصر الأهرامات، أي ٢٨٠٠ق.م. (انظر [٩]، ك١؛ [٤١]، ك٢، ص٦٢).

(٤) الإسكندر الأكبر يزور كاهن معبد آمون في واحة سيوة

لن يكتمل أي نقاش عن غزو الإسكندر مصر دون الإشارة إلى زيارته الشهيرة لكاهن معبد آمون الواقع في واحة سيوة. أقام الإسكندر حامية عسكرية في بيلوزيوم، ثم اتجه، بعد ذلك، عبر الصحراء بمحاذاة الضفة الشرقية للنيل حتى وصل إلى هليوبوليس، وعبر النهر إلى ممفيس؛ حيث كان أسطوله ينتظره هناك، وحيث رحَّب به المصريون وتوَّجوه فرعونًا. وبعد أن قدَّم الإسكندر الأضاحي والقرابين إلى الإله أبيس، وإلى غيره من الآلهة، نزل إلى النيل قبيل الفرع الكانوبي، فرع رشيد، وبدأ رحلته إلى كاهن معبد آمون في واحة سيوة. كان الطريق طويلًا على امتداد الساحل الشمالي إلى ليبيا وقطَعه حتى وصل إلى بارايتونيوم، ثم اتجه، بعد ذلك، إلى قلب الصحراء في طريقه إلى واحة سيوة. تُرى ما هو الدافع الذي حفز الإسكندر إلى زيارة معبد آمون؟ لعل وصفًا سريعًا وموجزًا للأهمية الدينية والاقتصادية لمدن هليوبوليس وممفيس وطيبة وأمونيوم يساعد على تحديد هذا الدافع.

أولًا كانت هذه المدن قلاعًا للعقيدة الدينية المصرية، غنية بمعابدها ومدارسها وكهنتها؛ ومن ثَم كانت تمثِّل الحياة الدينية المصرية. ثانيًا، كانت هذه المدن مراكز للتعليم قصدها طلاب العلم اليونانيون الذين سافروا إلى مصر بعد الغزو الفارسي لتلقي العلم فيها، ولكي يثقفهم كهنة إحدى هذه المدن أو جميعها على نحو ما أسلفنا.

وعندما سافر فيثاغورس إلى مصر حمل معه رسالة يقدمه فيها بوليكراتس من جزيرة ساموس إلى الملك أحمس الذي أعطاه بالتالي رسائل قدَّمه — من خلالها — إلى كهنة هليوبوليس وممفيس وطيبة؛ ولقد كانت معابد ومكتبات هذه المدن، باعتبارها مراكز تعليمية تحتوي على كتب قيمة جدًّا. ثالثًا، وقعت هذه المناطق — في السابق — في أيدي الفرس بسبب ثرائها. ويفسر لنا هذا السبب في أنهم أدخلوا هذه المقاطعات ضمن ولايتهم الفارسية التي اعتادت أن تدفع لهم جزية سنوية ضخمة تصل إلى ٧٠٠ طالن من الذهب، علاوة على تقديم حصاد صيد بحيرة موريس الذي كان يبلغ طالن يوميًّا طوال الشهور الستة التي يصل خلالها ماء نهر النيل، وتدفع الجزء الثالث من هذه الجزية أثناء الفيضان. إضافة إلى ذلك اعتادت مصر أن تجهز ١٢٠ ألف مديسيني Medicni من القمح كحصة طعام أو مئونة للقوات الفارسية المتمركزة في قلعة ممفيس البيضاء. وتساوي هذه الجزية ما قيمته ١٧٠ ألف جنيه استرليني، وتكشف لنا بذلك ليس فقط عن الحافز وراء غزو الجيوش الفارسية وحدها، بل وأيضًا جميع الجيوش الغازية بعد ذلك قديمًا، وليس الإسكندر استثناءً من ذلك.

ويروي التاريخ أنه في وقت احتلال الفرس لمصر حشد الإسكندر قوات مهولة، واتجه بها إلى هناك، وطرد الفرس وسيطر على مصر. وأستميح القارئ عذرًا أن أسأل السؤال التالي: هل كانت هذه دعابة أم كان ثمة حافز؟ وإذا قلنا أن وراء الأمر حافزًا، فأي حافز آخر غير أن الإسكندر طمع في ثروة الكتب والذهب والفضة والعاج والعبيد والجزية التي كان الفرس يستنزفونها من المصريين التعساء؟

والجدير بالذكر أنه في العصور القديمة كان كاهن معبد آمون — في واحة سيوة — هو الأشهر بين الجميع، وكانت معابد هليوبوليس وممفيس وطِيبة ممثِّلة لأفضل ما في الثقافة المصرية (انظر [٢٤]، ك٢، ص٤٣٣–٤٣٥؛ [٧]، ص١٥، ١٦؛ [٣١]، ك٣، ص١٢٤؛ [٣٤]، ك٣، [٢١]).

الفصل الخامس

فلاسفة ما قبل سقراط والتعاليم المنسوبة إليهم

ملاحظة

من الضروري — ضرورة مطلقة — هنا في الفصلين الخامس والسادس أن نذكر مبادئ من يُسمَّون فلاسفة اليونان حتى يقتنع القارئ بأصلها المصري على نحو ما هو مبيَّن في موجز الاستنتاجات التالية لهذه التعاليم. ومن الضروري، كذلك، أن نذكرها لحاجتنا إلى الرجوع إليها، وحتى يكون القارئ على بينة، وفي وضع ملائم للحكم.

(١) المدرسة الأيونية الأولى

تضم هذه المجموعة: (١) طاليس. (٢) أنكسماندر. (٣) أناكسيمانز.

(أ) طاليس

من المفترض أنه عاش من ٦٢٠ إلى ٥٤٦ق.م. وأنه من مواطني ميليتوس، وقد عزا إليه أرسطو أنه كان يعلم:

(أ) أن الماء مصدر كل شيء حي.
(ب) الله موجود في كل الموجودات.

ولكن التاريخ والتراث صامتان، لا يقولان شيئًا عن الكيفية التي توصَّل بها طاليس إلى نتائجه هذه، فيما عدا أرسطو الذي حاول أن يقدم رأيه باعتباره سببًا: أن طاليس تأثر — بالضرورة — بالنظر في رطوبة الغذاء، وأنه بنى النتيجة التي انتهى إليها على

أساس تفسير عقلاني لأسطورة أوكيانوس.[١] بَيْدَ أن هذا ليس سوى تخمين من جانب أرسطو حسب الرأي الشائع (انظر [٣]، ص٣٤).

(ب) أناكسيماندر

من المفترض أنه مولود عام ٦١٠ق.م. في ميليتوس، ومنسوب إليه أنه كان يعلِّم أن أصل جميع الموجودات هو اللانهائي أو اللامحدود، أو اللامتناهي ويُسمَّى أبيرون Apeiron.

وكان الرأي أن الأبيرون مساوٍ لمفهومنا الحديث عن الفضاء، والمفهوم الأرسطي عن العماء البدائي.

ولم يذكر التاريخ، ولا التراث، شيئًا عن الكيفية التي توصل بها أناكسيماندر إلى نتيجته هذه، بيد أننا هنا — مرة ثانية — نجد أرسطو يعرض رأيه باعتباره سببًا؛ بمعنى أن أناكسيماندر افترض — بالضرورة — أن التغير يدمر المادة، وأنه ما لم يكن حامل التغير غير محدود؛ فلا بد وأن يتوقف التغير في وقت ما، وهذا الرأي، بطبيعة الحال، مجرد تخمين من جانب أرسطو (انظر [٣٠]، ص٣٥–٣٦).

(ج) أناكسيمانز

هو — أيضًا — من مواطني ميليتوس. والمفترض أنه تُوُفِّي عام ٥٢٨ق.م. ويُعزى إليه تعليم أن الهواء أصل كل الموجودات.

ولم يذكر التاريخ — أو التراث — شيئًا عن الكيفية التي توصل بها أنا كسيمانز إلى نتيجته، وجميع المحاولات التي استهدفت بيان السبب بدت مجرد تخمينات (انظر [٣]، ص٣٧–٣٨).

(٢) فيثاغورس

وُلِد في جزيرة ساموس في بحر إيجة عام ٥٣٠ق.م. والمبادئ التالية منسوبة إليه:

[١] أوكيانوس رب الماء عند اليونانيين القدماء، محيط بالأرض وابن السماء والأرض. إنه نهر دائم الدفقات حول الأرض، التي تشبه دائرة مسطحة يحيط بها أوكيانوس النهر، تشرق منه الشمس والنجوم وتغرب فيه، وعلى ضفتيه يرقد الموتى. (المترجم)

(أ) التناسخ، وخلود النفس، والخلاص

هذا الخلاص قائم على معتقدات معينة خاصة بالنفس؛ فالحياة الحقة ليست حياتنا على الأرض، وأن ما يسميه الناس حياة إنما هو — في الحقيقة — موت، والجسد مقبرة النفس.

ونظرًا لتلوث النفس — بفعل سجنها داخل الجسد — فإنها مضطرة إلى المرور عبر سلسلة غير محدودة من التناسخ: من جسد حيوان إلى جسد حيوان آخر، إلى أن تتطهر من ذلك التلوث.

والخلاص، بهذا المعنى، قوامه حرية النفس من «دورة الميلاد والموت»، ثم إعادة الميلاد، وهي دورة شائعة ومشتركة بين جميع الأنفس كشرطٍ لازم إلى اكتمال التطهر أو التنقية. بعد أن تتحرر النفس من أغلال الجسد العشرة، وأيضًا من عمليات التناسخ المتعاقبة، تستعيد كمالها الأصلي، وحقها في صحبة الآلهة لتبقى معهم خالدة أبدًا.

وهذه هي الجائزة التي يقدمها مذهب فيثاغورس لمريديه المبتدئين.

(ب) مبادئ

(أ) الأضداد.
(ب) الخير الأسمى.
(ج) عملية التطهر.

(أ) وحدة الأضداد تخلق التناغم في الكون. ويصدق هذا بالنسبة للأصوات الموسيقية، على نحو ما نرى في القيثارة: حيث يكون التناغم هنا نتيجة العلاقة النسبية المتوسطة بين طول الوترين الوسطيين إلى طول الوترين المتطرفين.

ويصدق هذا أيضًا في الظواهر الطبيعية التي تتطابق مع عددٍ عناصره مؤلَّفة من أعداد فردية وزوجية معًا. والعدد الزوجي غير محدود نظرًا لطبيعته؛ إذ يقبل القسمة، بصورة غير محدودة، بينما يشير العدد الفردي إلى المحدودية، ولكن حاصل الاثنين — معًا — هو الوحدة أو التناغم.

وبالمثل يتحقق التناغم من وحدة الإيجابي والسلبي، والذكر والأنثى، والمادي وغير المادي والجسد والنفس.

(ب) الخير الأسمى The Summum Bonum:

الخير الأسمى للإنسان هو أن يتشبَّه بالإله، وهذا إنجاز أو تحول يمثِّل التناغم الناجم عن حياة الفضيلة. وقوامه علاقة متناغمة بين ملكات الإنسان على نحوٍ يجعل طبيعته الدنيا تابعة وخاضعة لطبيعته السامية.

(ج) عملية التطهر:

تناغم وتطهر النفس لا يتحققان عن طريق الفضيلة فحسب، بل بوسائل أخرى؛ أهمها تثقيف العقل عن طريق إطراد تحصيل المعرفة العلمية، والتحكم الصارم في متطلبات البدن.

وتحتل الموسيقى — في هذه العملية — مكانة هامة. واعتقد الفيثاغوريون، وعلموا أن الموسيقى شفاء للنفس، تمامًا مثلما يشفي الطب البدن.

وقد يكون من الملائم هنا إضافة مبدأ «الحيوات الثلاثة» حيث إنه — بدوره — منهجٌ ووسيلة للتطهر:

الناس ثلاث فئات: محبُّون للثروة، ومحبُّون للتكريم، ومحبُّون للحكمة (أي فلاسفة)، وهذه الفئة الأخيرة هي الأسمى منزلة. ويرى فيثاغورس أن الفلسفة حددت التطهر الذي أفضى — أخيرًا — إلى خلاص النفس.

(ج) المبدأ الكوزمولوجي (نشأة ونواميس الكون)

الأعداد هي جوهر كل شيء؛ بمعنى أنها ليست جوهر الأشياء فقط، بل إن الكون كله أعداد منتظمة، معنى هذا أن خاصية أي شيء هي العدد الممثِّل له.

(أ) حيث إن الكون مؤلَّف من عشرة أجرام هي النجوم الخمس والأرض والأرض المضادة؛ إذن لا بد وأن الكون يمثِّله العدد ١٠ باعتباره العدد الكامل.

(ب) إذا طبقنا المبدأ على الفضاء من حولنا، والذي يسميه الفيثاغوريون اللامحدود أو اللامحدد فلا بد وأن يكون المعنى المقصود تقسيم هذا اللامحدود إلى كون متوازن ومتناغم، بحيث يمكن أن يتلقَّى كل شيء نسبته الصحيحة دون زيادة أو نقصان.

(ج) هذا الترتيب يبدو وكأنه يشير إلى مفهوم الأشكال القادرة على أن يكون لها تعبير رياضي، أي المبدأ الذي ظهر — فيما بعد — عند أفلاطون في صورة نظرية المثل.

(د) قلب الكون به نار مركزية ثبتت حولها الأجرام السماوية في أفلاكها، وتدور من الغرب إلى الشرق، بينما يوجد حول هذا كله نار محيطة.

وحركة الأجرام السماوية منتظمة السرعة، وتحقق التناغم بين الأفلاك (انظر [٤]، ١٤–٢٢؛ [٣٥] حياة ومعتقدات فيثاغورس؛ [٤٢] حياة ومعتقدات فيثاغورس؛ [٤٣] حياة ومعتقدات فيثاغورس؛ [٣] ص٤٠–٤٣؛ [٢٤]، ج١، ص٤٠١-٤٠٢؛ [٣٨]؛ [٤٤] ج١، ص٥)

(٣) الفلاسفة الإيليون

الفلاسفة الإيليون هم:

(أ) أكزينوفان.
(ب) بارمينيديس.
(ج) زينو.
(د) ميليسوس.

ويعالجون مشكلة التغير، ومنسوب إليهم إدخال مفهومي الكون والصيرورة.

ومصطلح إيلي مشتق من الاسم إيليا، وهي مدينة في جنوب إيطاليا؛ حيث يقال إن هؤلاء الرجال قد زاروها فقط، ولا أكثر من هذا.

(أ) أكزينوفان

وُلِد في كولوفون في آسيا الوسطى ٣٧٠ق.م. ومنسوب إليه المبادئ التالية:

(أ) وحدة الله: يضل الناس حين يعزون إلى الآلهة خصائص بشرية؛ ذلك لأن الله هو عين البصر والسمع والعقل. ومرة ثانية، حيث لا صيرورة، وحيث إن الكثرة رهن الصيرورة، إذن لا وجود للكثرة، ومن ثَم فإن الكل واحد والواحد هو الكل.

(ب) الاعتدال: على نقيض الثقافة المصطنعة لليونان، وما اتصفت به من ترف وإفراط وتأنق، ومنسوب إلى أكزينوفان الدعوة إلى الاعتدال أو التوسط، بمعنى حياة عادية، وبساطة دون تكلف أو مغالاة مع تفكير نقي (انظر [٤]، ص٢٧–٢٨؛ [٣]، ص٤٥-٤٦؛ [٢]، ص٥٨–٦٠).

(ب) بارمينيديس

قيل إنه وُلِد في إيليا ٥٤٠ق.م، ونظم الشِّعر عن الطبيعة Peri Physeos وضمَّنه مبادئه.

(١) القصيدة مؤلفة من ثلاثة أجزاء:

(أ) الجزء الأول إلهة الحق تؤكد أن هناك طريقين للمعرفة: طريق تفضي إلى معرفة الحق، وأخرى إلى معرفة آراء البشر.

(ب) الجزء الثاني وصف الرحلة إلى الحق، وتضمن مذهبًا في الميتافيزيقا.[٢]

(ج) الجزء الثالث يتضمن نظرية عن الكون، من حيث المنشأ والنواميس (كوزمولوجيا) تفسر الظواهر.

(٢) المبادئ، وهي ما يلي:

(أ) **مبدأ الطبيعة**

إن كان العقل الكوني الصحيح (اللوجوس) يرى أن الوجود واحد وأبدي لا يتغير، إلا أن الحواس والرأي العام أو الاعتقاد العام doxa يؤمن بأن الكثرة والتغيُّر موجودان في كل ما حولنا.

(ب) **مبدأ الحق**

الحق قوامه معرفة أن الكون أو الوجود موجود، واللاكون أو العدم غير موجود؛ وحيث إن العدم غير موجود إذن فالوجود واحد ووحيد.

ومن ثَم فإن الوجود غير حادث وغير متغير؛ إذ يستحيل أن يصدر الوجود عن الوجود، لأنه، في مثل هذه الظروف، يتعين أن يكون الوجود موجودًا قبل أن يوجد.

(ج) **كوزمولوجيا الظواهر**

يردد هنا بارمينيديس المبدأ الفيثاغوري عن الأضداد:

كل الموجودات من النور أو الدفء، والظلمة أو البرد، وحسب ما قال أرسطو فإن الأضداد الأولى تتطابق مع الوجود، والثانية من العدم.

وهذه الأضداد تعادل مبدأي الذكورة والأنوثة في الكون (الكوزموس).

(د) **مبدأ أنثروبولوجيا الظواهر**

حياة الروح، أي الإدراك والتأمل، رهن امتزاج الأضداد، بمعنى الجمع بين مبدأي النور والدفء من ناحية، والظلمة والبرودة من ناحية أخرى، والتي يرتبط كل منها

[٢] لعل هذه أول قصيدة تتحدث عن رحلة إلى عالم الميتافيزيقا أو السموات على نحو ما فعل بعد ذلك شعراء آخرون فلاسفة، من أمثال أبي العلاء المعري ودانتي، وربما كان هناك من هو أسبق من بارمينيديس. (المترجم)

بعلاقة طبيعية مع مبدأ مقابل في الكون (الكوزموس) (انظر [٢]، ص٦٠–٦٢؛ [٤]، ص٢٩–٣٠؛ [٣]، ص٤٧–٤٨؛ [٤٥]، ص٢٢–٢٤).

(ج) زينو

من المفترض أنه ولد عام ٤٩٠ق.م. في إيليا، وكان — حسب رواية أفلاطون — تلميذًا لبارمينيديس.

استهدفت مبادئه الإبانة عن تناقض:

(أ) الحركة.

(ب) الكثرة والمكان.

الحجج ضد الحركة

(١) الجسم لكي يتحرك من نقطة إلى أخرى لا بد وأن يتحرك عبر عدد لا نهائي من الأماكن؛ حيث إن الحجم قابل للقسمة إلى ما لا نهاية.

(٢) السباق بين أخيل والسلحفاة استهدف مناقضة مفهوم الحركة. ففي سباق كهذا يستحيل على أخيل أن يلحق بالسلحفاة؛ إذ لا بد له أن يبلغ — أولًا — النقطة التي بدأت من عندها السلحفاة، ولكن في الوقت ذاته تكون السلحفاة قد كسبت مزيدًا من الأرض. وحيث يتعين على أخيل دائمًا أن يبلغ — أولًا — الموضع الذي سبق أن بلغته السلحفاة، إذن ستظل السلحفاة دائمًا، وبالضرورة، في المقدمة عند كل نقطة.

حجج ضد الكثرة والمكان

(١) إذا كان كيلٌ من القمح يولِّد صوتًا؛ إذن فكل حبة منه لا بد وأنها تولِّد صوتًا (هذه الحجة مأخوذة عن سمبليكوس، ولكنها منسوبة إلى زينو).

(٢) إذا كان الكون موجودًا في مكان، إذن لا بد وأن يكون المكان ذاته موجودًا في مكان، وتظل العملية ممتدة إلى ما لا نهاية (هذه الحجة مأخوذة عن سمبليكوسر أيضًا).

(٣) إذا كان الحجم موجودًا؛ إذن يتعين أن يكون كبيرًا إلى ما لا نهاية، وصغيرًا إلى ما لا نهاية في وقت واحد؛ حيث إنه يشتمل على أجزاء لا نهاية لها، وقابلة للقسمة؛ لهذا فإن فكرة الكثرة متناقضة (انظر [٣]، ص٤٩–٥٠؛ [٤]، ص٣١–٣٢؛ [٢]، ص٦٣–٦٤).

(٤) المدرسة الأيونية المتأخرة

(أ) هيراقليطس.
(ب) أناكساجوراس.
(جـ) ديمقريطس.

(أ) هيراقليطس

من المعتقد أنه وُلِد عام ٥٣٠ق.م. وتُوُفي عام ٤٧٠ق.م. وهيراقليطس من مواطني إفسوس في آسيا الوسطى، ومنسوب إليه المبادئ التالية:

(١) مبدأ الفيض الكوني

ليس هناك وجود في حالة ثبات، وليس هناك عنصر غير متغير؛ التغير ناموس الكون، وجميع الموجودات تتحوَّل إلى نار، ومن النار إلى الموجودات جميعًا.

(أ) التغير ليس عشوائيًّا، بل حركة منتظمة ومتسقة ودائرية، لذلك فإن نيران السموات هي في تحوُّل مطرد ومتعاقب إلى البخار والماء والأرض، لا لشيء سوى المرور بعملية مماثلة للصعود ثانية إلى النار.
(ب) تشتمل على عنصري البارد والجديد في كل لحظة من لحظات العملية؛ ومن ثَم، فإنه مع انتهاء الليل يبدأ النهار، ومع بداية الصيف ينتهي الربيع، ومع انتهاء الحياة الفانية تبدأ الحياة الروحية.
(جـ) وقوامه أيضًا التوالد الناجم عن اتحاد الأضداد (وهذا مبدأ نراه يتكرر عند أفلاطون وسقراط).

وهنا نلحظ أن اتحاد الذكر والأنثى تنتج عنه حياة عضوية، وأن اتحاد النغم الحاد مع النغم شديد الانخفاض يعطي تناغمًا.

(٢) نظرية المعرفة

نظرًا لأن المعرفة الحسية، أو المعرفة المتولِّدة عن الحواس وهْمٌ؛ إذن يتعين تجنُّبها، والتماس المعرفة الحقة عن طريق إدراك الوحدة الكامنة وراء الأضداد المختلفة.
وهذه ممكنة بالنسبة للإنسان لأنه جزء من كل النار الشاملة التي تشكِّل أساس الكون.

ولكن مذهب الطرق الصاعدة والهابطة يرى أن المعرفة الحقة وليدة الطريق الصاعد المفضي إلى النار الخالدة؛ بينما الحمق والموت هما نتيجة الطريق الهابط التالي لذلك.

(٣) مبدأ العقل الكلي «اللوجوس»

التناغم الخفي للطبيعة يتولَّد عنه — دائمًا وأبدًا — تآلف الأضداد؛ بحيث إن القانون الإلهي «ديكي» (Dike) أو «العقل الكلي» (Logos) يحكم جميع الأشياء. وأن الجوهر الأولي يعيد تأليف نفسه — من جديد — في جميع الموجودات وفق قوانين ثابتة، ومن ثَم، فإنها تستعيده ثانية (انظر [٢]، ص٦٨؛ [٣]، ص٦٦–٧٧؛ [٢]، ص٦٦–٧١؛ [٣]، ص٥٣–٥٨).

(ب) حياة وتعاليم أناكساجوراس

أناكساجوراس من مواطني كلازوميناي في أيونيا. والمفترض أنه وُلِد عام ٥٠٠ق.م. وهو شأن جميع الفلاسفة الآخرين، لا نعرف شيئًا عن حياته الباكرة، ولا عن نشأته وتعليمه في مراحل حياته الأولى، ودخل التاريخ عن طريق زيارة له إلى أثينا؛ حيث التقى بريكليس وتصادق معه، وحيث اتُّهم — أيضًا — بالفسوق، بيد أنه هرب من السجن، وفرَّ عائدًا إلى بلده في أيونيا، حيث مات عام ٤٣٠ق.م. تضمن مذهبه المبادئ التالية:

(أ) العقل (نوس Nous) العقل هو وحده المتحرك بذاته، وعلة الحركة في كل الموجودات في الكون، وله السلطان الأسمى على جميع الموجودات (انظر [٢]، ص٨٥–٨٦؛ [٣]، ص٦٣).

(ب) الإحساس وليد تنبيه الأضداد، ونحن ندرك الإحساس بالبارد لأن الحرارة كامنة داخلنا، وندرك المذاق الحلو لأن الحامض في داخلنا (انظر [٣]، ص٦٤؛ [١٤]، ص٢٧؛ [٢]، ص٨٦).

ملاحظة

سوف نتناول هذه المبادئ في موضوع آخر لبيان مصدرها ومصداقيتها وأصحابها الأصليين.

(ج) حياة وتعاليم ديمقريطس

(١) حياته

رُوي أن ديمقريطس (٤٢٠–٣١٦ق.م.) هو ابن هيجيسستراتوس، وأيضًا من مواطني أبديرا، إحدى مدن ميليتوس، وهي جزيرة في بحر إيجة، وذهب كل من أرسطو وثيوفراستوس إلى أن ليوكيبوس هو مؤسس المذهب الذري، على الرغم من الشكوك في وجوده واقعيًّا، وشأنه شأن جميع الفلاسفة اليونانيين الآخرين، لا شيء معروف عنه وعن تثقيفه في باكر حياته، بيد أنه دخل التاريخ باعتباره ساحرًا ومشعوذًا (انظر [٤٦]، ص٣٥٠؛ [٣]، ص٦٥).

(٢) ومبادئه

اقترن اسم ديمقريطس بالمبادئ التالية، والتي تلخصها عبارة المذهب الذري في وصفه لكل من:

(١) طبيعة الذرات وسلوكها في علاقتها بالظواهر.
(٢) الخلق.
(٣) الحياة والموت.
(٤) الإحساس والمعرفة.

(١) وصف الذرة

(أ) مادة العالم الخام. يصف الذرة بأنها دقائق عديمة اللون وشفافة ومتجانسة، وتتألَّف من عدد لا نهاية له من الجسيمات.

(ب) خصائصها: يصف الذرة بأنها ملأى أو صلدة غير مرئية وغير قابلة للانقسام والتدمير، وغير مخلوقة، وقادرة على الحركة بذاتها، وتتباين الذرات من حيث الشكل والنظام والوضع والكم والوزن.

(ج) تطابق الذرة مع الواقع: كل ذرة تعادل «ما هو موجود»، والخلاء يعادل «ما ليس موجودًا»، والواقع هو حركة ما هو موجود داخل ما هو ليس موجودًا.

(٢) الذرة في حالة خلق دائم

بسبب اختلاف الحجم والوزن وقابلية الحركة، وبسبب الضرورة — بوجه خاص — تنشأ حركة وليدة؛ وهي علة تجمُّع الذرات وتآلفها مع بعضها لتكوين العوالم العضوية وغير العضوية.

(٣) الذرات في ظواهر الحياة والموت

إن ما نسميه — عادة — الحياة والموت، إنما مردُّه إلى تغير في ترتيب الذرات. فعندما يتم ترتيبها — على نحو معين — تظهر الحياة، وإذا طرأ تغيُّر على هذا الترتيب تحدث الوفاة.

وتختفي الشخصية في حالة الوفاة كما تختفي الحواس ... غير أن الذرات تعيش إلى الأبد. والذرات الأثقل وزنًا تهبط إلى الأرض، ولكن ذرات الروح المؤلَّفة من نار فإنها تصعد إلى المناطق العليا في السموات من حيث أتت.

(٤) الذرة في الإحساس والمعرفة

(أ) يتألف العقل أو النفس من ذرات نارية، وهي أدق وأنعم الذرات وأكثرها قابلية للحركة. وتتوزع هذه الذرات النارية في جميع أنحاء الكون، وفي جميع الموجودات الحية، خاصة الجسم البشري، حيث توجد بأعداد كبيرة.

(ب) الموجودات الخارجية تصدر عنها — دائمًا — انبعاثات أو صورة دقيقة عن نفسها، وهذه — بدورها — تؤثر على حواسنا التي تحرك ذراتنا الروحية، ومن ثَم تخلق الإحساس والمعرفة (انظر [٤٧]، ك٩، ص٤٤٣–٤٥٥؛ [٣]، ص٦٥–٧٠؛ [٤]، ص٤٠–٤٢؛ [٢]، ص٧٦–٨٣؛ [٤٥]، ص٣٧–٤١).

(٥) موجز النتائج المتعلقة بفلاسفة مرحلة ما قبل سقراط، وتاريخ الكيفيات الأربع والعناصر الأربعة

(١) منسوب إلى فلاسفة أيونيا الأوائل أنهم علَّموا المبادئ التالية:

(أ) طاليس قال إن الماء مصدر كل الموجودات.
(ب) أناكسيماندر قال إن جميع الموجودات نشأت عن المادة الأولى، وهي اللامحدود.
(ج) أناكسيمانز قال إن جميع الموجودات استمدت حياتها من الهواء.

بيد أن هذه الأفكار لم تكن جديدة آنذاك وقت حياتهم، حسب ما هو مفترض بشأنهم، فيما بين القرنين السادس والخامس ق.م. إن قصة الخلق الواردة في سفر التكوين تتحدث عن عناصر الماء والهواء والتراب باعتبارها المقومات الكونية الأولى للعماء البدائي الذي نشأ عنه الخلق تدريجيًّا. بيد أن الرأي القائل إن سفر التكوين مُوسوي يردنا إلى زمان قديم أبعد من زمن الفلاسفة الأيونيين بقرون كثيرة. ونحن نعرف — عن طريق العهد القديم، وأيضًا عن طريق الفلاسفة المؤرخين — أن موسى كان مريدًا من مريدي نظم الأسرار المصرية، وأصبح كاهنًا فقيهًا من الأعلام المنوط بهم مهام الشرح والتفسير؛ وقد تعلَّم ووعى حكمة الشعب المصري، ولم يكن هذا ميسورًا لأحدٍ إلا عن طريق الالتحاق مريدًا في نظم الأسرار، والتقدم التدريجي بداخلها، حيث يُثبِت المريد الجديد أنه كُفُؤ وملائم ليسلك الطريق. وكان اسم موسى اسمًا مصريًّا يُطلَق على جميع المتقدمين الجدد عند تعميدهم، ويعني «المخلص بالماء» أي من نِعِم بالخلاص بفضل الماء المقدس.

ويبدو أن خروج الإسرائيليين من مصر وقع في عهد الأسرة ٢١ المصرية، أي عام ١١٠٠ق.م. في عهد بوكوريس، تحت زعامة موسى. ويبين هذا — بوضوحٍ — أن قصة الخلق الواردة على لسانه مصرية المنشأ. صفوة القول إن فلاسفة أيونيا الأوائل استمدوا تعاليمهم من مصادر مصرية (انظر [٤٨]، ج١، ص٣٢؛ [١٢] ص٦١؛ [٢٤]، ج٢، ص٢٦٨–٢٧٠؛ [٤٩]).

(٢) وبالنسبة للفلاسفة الإيليين، فإن التاريخ ينظر إلى زينوفان باعتباره شاعر هجاء وليس فيلسوفًا، ويعتبر زينو داعية إلى مفارقات وتناقضات ظاهرية في معالجته لمشكلات الكثرة والمكان والحركة، وهي المعالجة التي تفضي — في النهاية — إلى بطلان الحكم. أما بارمينيديس فإنه لم يقدم تعاليم جديدة حين قال إن الوجود هو ما هو موجود، وإن العدم هو ما ليس موجودًا، ولكنه فقط أكد من جديد مبدأ الأضداد كمبدأ أساسي للطبيعة: وهذا مذهب علَّمه الفيثاغوريون، وأيضًا علَّمه فلاسفة أثينا خاصة سقراط. بيد أن مبدأ الأضداد ترجع نشأته إلى نظم الأسرار المصرية، وهو ما يعود بنا إلى عام ٤٠٠٠ق.م. وقتما أثبتوا صدق المبدأ، وليس فقط عن طريق تشييد أزواج من الأعمدة عند واجهة المعابد، بل — وأيضًا — حين قالوا بأزواج من الآلهة في نظم الأسرار: الذكر والأنثى، والموجب والسالب، كمبدأين للطبيعة. وواضح — أيضًا — أن الفلاسفة الأيليين استقَوْا تعاليمهم من مصادر مصرية (انظر [٣٨]؛ [٥٠]، ص٥٥، ٦٦–٦٧، ٥١–٦٠؛ [٣٢] إيزيس وأوزيريس، ص٣٦٤ ج و٣٥٥ أ؛ [٢٤]، ج١، ص٣٣٩).

(٣) منسوب إلى فلاسفة أيونيا المتأخرين أنهم قالوا بالمبادئ التالية:

(أ) هرقليطس

(١) أن العالم أصله نار، ونشأ عبر عملية تحوُّل.
(٢) وحيث إن كل الموجودات أصلها نار؛ إذن فإن النار هي اللوجوس الخالق.

(ب) أناكساجوراس

العقل أو Nous مصدر وعلة الحركة، أو الحياة في الكون، وأن الإحساس ناجم عن التنبيه الذي يحدث لنا بفعل الأضداد.

(ج) ديمقريطس

(١) الذرات أساس جميع الموجودات المادية.
(٢) وظواهر الحياة والموت هي مجرد تغيُّرات تطرأ على مزيج الذرات، ولهذا فإن الذرات لا تموت أبدًا وهي خالدة.

هذه المذاهب لم تكن — بحالٍ من الأحوال — نتاج فلاسفة أيونيا المتأخرين، وإنما يمكن بيان أنها نشأت عن نظم الأسرار المصرية. لقد كان المصريون القدماء عبدة نار لإيمانهم أن النار هي خالق الكون، وبنوا أهراماتهم الضخمة (بير = Pyr = نار) لعبادة إله النار، ويرجع عصر الأهرامات إلى حوالي ٣٣٠٠ق.م. أي إلى بضع آلاف من السنين قبل أن يقال إن الإغريق وصلوا إلى منطقة البحر المتوسط.

ويرى يامبليكوس أن الإله المصري بتاح هو إله النظام والشكل في شئون الخلق وهو مبدأ فكري، وكان معروفًا أيضًا أن هذا الإله هو الإله المبدع أو الصانع الذي صاغ الكون من النار (انظر [٥١]؛ [٢٤]، ج١، ص٣١٨).

إضافة إلى هذا فإن سوينبورن كليمر في كتابه «فلسفة النار» يقول ما يلي ص١٨ من الكتاب: «إن دراسة أسرار الإلهين المصريين إيزيس وأوزيريس تبرز على الفور للطالب أنها فلسفة نار خالصة. وحمل زرادشت هذه الأسرار إلى اليونان القديمة، بينما حملها أورفيوس إلى تراقيا. والملاحظ أن نظم الأسرار المصرية — في كل من هذين المكانين — اتخذت أسماء لآلهة مختلفة لملاءمتها مع الظروف المحلية. ولهذا أخذت في آسيا صورة الإله ميترا، وفي ساموتراقيا صورة أم الآلهة، وفي بيوتيا صورة باخوس، وفي كريت صورة جوبيتر، وفي أثينا صورتي كيريس وبروزربين.»

وهذه هي أبرز مظاهر المحاكاة للتصور المصري. واعتقد كل هؤلاء، من عبدة النار، أن الكون نشأ — في البدء — من النار، وكانوا — جميعًا — يعيشون في زمن سابق على زمن فلاسفة أيونيا بآلاف السنين.

أما عن المبادئ الأخرى لفلاسفة أيونيا المتأخرين، علاوة على المبادئ الفلسفية عند سقراط وأفلاطون وأرسطو، فسوف نتناولها في تلخيصنا لفلسفة كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو في الفصل الثامن، وسوف تشمل:

(١) الأضداد.
(٢) العقل (Nous).
(٣) اللوجوس (Logos).
(٤) الذرة.
(٥) نظرية المثل.
(٦) المحرك الأول غير المتحرك.
(٧) الخلود.

(٤) فلاسفة اليونان مارسوا الانتحال

اتسمت تعاليم فيثاغورس — على ما يبدو — بالشمول التام حتى إن جميع من خلفوه — تقريبًا — اتَّبعوا وعلَّموا قسطًا من مذهبه، الذي قيل هنا إنه حصَّله بفضل زياراته المتكررة لمصر لتلقي العلم. ويتضح لنا هنا على الفور أمران:

(١) أن الفلاسفة اليونانيين مارسوا عملية الانتحال، ولم يعلِّموا شيئًا جديدًا.

(٢) مصدر تعاليمهم نظام الأسرار المصري، سواء حصلوا على معارفهم بالاتصال المباشر بمصر، أو بطريقٍ غير مباشر، على أيدي فيثاغورس أو التراث.

وهذه حقائق بات بالإمكان إثباتها إذا ما أوجزنا مذهب ومبادئ فيثاغورس قرين أسماء الفلاسفة الذين ردَّدوا مذهبه:

(١) مبدأ الأضداد: تتألف وحدة العدد من عنصرين: فردي وزوجي، النهائي واللانهائي، الإيجابي والسلبي. وهنا نجد:

(أ) هيرقليطس يفترض النار مصدر الخلق عن طريق مبدأ النزاع الذي يفضي إلى انفصال الظواهر، والتناغم الذي يستعيدها إلى مصدرها الأول (انظر [٣]، ص٥٥؛ [٢]، ص٦٧–٦٨).

(ب) يفترض بارمينيديس أن الوجود موجود، والعدم معدوم (انظر [٢]، ص٦١؛ [٣]، ص٤٨).

(ج) حاول سقراط إثبات خلود الروح مستعينًا في ذلك بمبدأ الأضداد (انظر [٣٨]).

(د) حاول أفلاطون تفسير الطبيعة مستخدمًا نظرية المثل التي أقامها على أساس مبدأ الأضداد. ومن ثَم فإن المثال هو الوجود الحق، أي الوجود بالمعنى العام؛ وبذلك يصبح المفهوم الذهني واقعيًّا، ولكن الشيء المعروف عن طريق المفهوم الذهني غير واقعي. إن الوجود في ذاته واقعي وكامل، ولكن الظاهر غير واقعي وغير كامل (انظر [٤٤]).

(هـ) حاول أرسطو إثبات وجود الله، ويعرض صفات الله في ضوء الأضداد، الله هو المحرك الأول، وهو غير متحرك.

proton kinoun akineton.

وبذا يكون لدينا مركَّب من الحركة والثبات كصفتين للألوهية والطبيعة.

(٢) مبدأ التناغم

عرضه فيثاغورس باعتباره وحدة الأضداد، ثم ظهر من بعده في مذاهب:

(أ) هرقليطس الذي يفسر ظواهر الطبيعة كأنها تمضي متعاقبة عبر تناقضاتها.

(ب) وسقراط الذي عرَّف التناغم بأنه وحدة الأضداد.

(ج) وأفلاطون الذي يحدد تناغم الروح بأنه خضوع جزئيها خضوعًا صحيحًا، أي الطبيعتين العليا والدنيا (انظر [٣]، ص٤١، ٥٦؛ [٢]، ص٥١، ٦٩؛ [٣٨]، ف١٥؛ [١١]).

(د) أرسطو الذي يحدد النفس بأنها تناغم، وذلك حسب ما جاء في كتابه النفس ١، ٢.

(٣) النار المركزية والنار المحيطية

هنا يحاول فيثاغورس أن يبين أن النار أساس الخلق، وهي ذات الفكرة التي عبَّر عنها:

(أ) هرقليطس الذي تحدَّث عن أصل الكون ونشأته عبر تحول النار. ثم:

(ب) أناكساجوراس.

(ج) ديمقريطس.

(د) وسقراط.

(هـ) وأفلاطون.

واستخدم كل منهم مصطلح العقل الكوني nous باعتباره المسئول عن الخلق، ويتحدث أناكساجوراس وسقراط مباشرة عن العقل باعتباره ذكاءً وغرضًا وراء الطبيعة؛ بينما يتحدث ديمقريطس وأفلاطون عن العقل الكوني على نحو غير مباشر باعتباره عالم الروح، ثم يصفانه — بعد ذلك — بأنه يتألف من ذرات نارية منتشرة في المكان؛ واضح إذن أن العقل الكوني nous أيًّا كان اسمه أو الوظيفة المنسوبة إليه هو نار، وقوامه ذرات نارية، وأن النار، كما قال فيثاغورس، هي أساس الخلق (انظر [٣]، ص٤٢، ٥٥، ٦٣، ٨٢؛ [٢] ص٥٣، ٦٧، ٧٦–٨٣؛ [٤٤]، ١–٣، ٩٨٤؛[٣٤]، ك١٠، ص٤٤٣–٤٥٣؛ [٥٢] ص١، ٤، ٢؛ [٢١]، ص٣٠، ٣٥؛ [٤] ص٤٠–٤٢، [٤٥]، ص٤٣).

(٤) خلود النفس

ذهب فيثاغورس إلى أن مبدأ خلود النفس وارد ضمن مبدأ تناسخ الأرواح.

(أ) سقراط: غرض الفلاسفة خلاص النفس، وإنها إذ تغتذي على الحق الذي يتلاءم مع طبيعتها الإلهية؛ فإنها تهرب— بذلك — من عجلة إعادة الميلاد لتبلغ — في النهاية — اكتمال الوحدة مع الله (انظر [٢]، ص٥٠–٥٦؛ [٤٠]، ص٢٩، ٦٠، [٣]، ص٤١، ٤٨).

(ب) مبادئ أفلاطون

(١) التناسخ.
(٢) التذكر.

(١) التناسخ: أرواح البشر تذهب إلى ساحة الثواب أو العقاب. وبعد مضي ألف عام يسمح لها باختيار نصيب جديد من الحياة، وإن من اختار — عن يقين — الحياة الأسمى؛ فإنه يفوز بعد ثلاثة آلاف سنة بالبقاء إلى جوار الآلهة في مملكة الفكر. ويهيم آخرون آلاف السنين في أبدان أخرى. وكثيرون يكون مقدرًا لهم مواصلة حياتهم الأرضية في أشكال حيوانات دنيا. ومن الضروري بيان أن أفلاطون — في مذهبه هذا عن التناسخ — إنما يصف مشهد يوم الحساب في الآخرة حسبما ورد في كتاب الموتى لقدماء المصريين.

(٢) التذكر: على الرغم من أن العالم — المدرَك حسِّيًّا — لا يمكنه أن يقودنا إلى معرفة المثل، إلا أنه يذكرنا بالمثل التي شاهدناها في الوجود السابق.

(انظر [١١] الصورة المجازية للكهف الموجود تحت الأرض، وكذا الصورة المجازية للصبي العبد، [٥٣]؛ [٣٨]، ف ١٠، ٢٩؛ [٣]، ص١٠٥–١١٢؛ [٤٥]، ص٥٥، ١٥٢–١٥٣).

الخير الأسمى

يذهب فيثاغورس إلى أن الخير الأسمى للإنسان هو التشبُّه بالله، ويتحقق هذا التحوُّل بفضيلة اتحاد الأضداد بين ملكات الإنسان، أي إخضاع الطبيعة الدنيا في الإنسان لطبيعته العليا (انظر [٢]، ص٤٣). بيد أن الهدف المحدد لنظام الأسرار المصري — قديمًا — هو أن يتشبه المرء بالله عن طريق عمليات التطهر من خلال التعليم والفضيلة؛ وبذا يبدو — واضحًا — أن فيثاغورس أخذ هذا المبدأ مباشرة عن نظم الأسرار المصرية. ويلزم عن هذا — أيضًا — أن الفلاسفة الذين تعلموا هذا المبدأ أخذوه بالضرورة، إما مباشرة عن نظم الأسرار المصرية قديمًا، أو — على نحو غير مباشر — عن طريق تعاليم فيثاغورس. يرى سالوست أن التألُّه أو التشبُّه بالآلهة كان غرض نظم الأسرار المصرية، بينما يرى ثيل في كتابه نظم الأسرار في العصر القديم أن الخير الأسمى المصري — قديمًا — قوامه خمس مراحل يتطور — عبرها — المريد الجديد من إنسان خير إلى المعلم الفائز الذي تحقق له أسمى درجات الوعى الروحي عن طريق التخلص من أغلال البدن العشرة ليصبح حاذقًا، شأن حورس أو بوذا أو المسيح.

والفلاسفة المنسوبة إليهم، علاوة على فيثاغورس، تعليم مبدأ الخير الأسمى هم:

(أ) سقراط الذي عرَّفه بأنه إنجاز يغدو به المرء شبيهًا بالإله، عن طريق إنكار الذات وتهذيب العقل ([٥٢]، ١–٥٤).

(ب) أفلاطون الذي عرَّفه بأنه السعادة التي هي بلوغ المثل الأعلى للخير، وهو الله (٥٤،١١).

(ج) أرسطو الذي عرَّفه بأنه السعادة القائمة على العقل، والتي تشتمل على جميع نِعم الحظ السعيد. وجدير بالذكر مع هذا، أن تعريف أرسطو للخير الأسمى يحدد بداية التحوُّل عن مفهوم الخير الأسمى لنظم الأسرار المصرية، ويصدق الشيء نفسه على أصحاب مذهب اللذة الذين عرفوا الخير الأسمى بأنه اللذة (انظر [٣]، ص١٥٣؛ [٥٥]،١–٦–١٠٩٧، ١–٩–١٠٩٩).

ومفهوم الخير الأسمى مصري، وهو المصدر الذي استقى منه فيثاغورس والفلاسفة الآخرون مبدأهم في هذا الشأن.

(٥) موجز الاستنتاجات عن ديمقريطس

نظرًا لأهمية مبدأ الذرة والشكوك الكثيرة والهامة بشأن العدد الضخم من الكتب التي ألَّفها ديمقريطس، شأنه في هذا شأن أرسطو، لذلك خصَّصنا له جانبًا مستقلًّا، مثل فلاسفة أثينا.

(١) حياته

يمكن أن نقول عن ديمقريطس نفس ما قيل عن أي من الرجال المُسمَّين فلاسفة اليونان: لا شيء معروف عنه وعن تثقيفه في باكر حياته. ولكنه دخل التاريخ جاذبًا الاهتمام العام باعتباره مشعوذًا وساحرًا (انظر [٣]، ص٦٥).

(٢) مبادئه وتأليفه لها

(أ) **التأليف:**

إن تأليفه لمبدأ الذرة مشكوك فيه، حسب رأي أو وجهة نظر عدد من الكُتَّاب المحدثين. لقد اقترن اسم كل من ليوكيبوس وديمقريطس، وهما من أيونيا، بهذا المبدأ. ونشأ هذا المبدأ — حسب رأي أرسطو — على يد ليوكيبوس أولًا، ثم تطور على يد ديمقريطس. وواقع الأمر أن الأيونيين كانوا يشكون في وجود ليوكيبوس لأنه لم يكن معروفًا لديهم. ويبدو أن رأي الأيونيين جدير بالتصديق أكثر من رأي أرسطو وثيوفراستوس، وقد كانا أثينيين، ويعملان على تصنيف الفلسفة على النحو الذي يتفق مع اتجاههما (انظر [٤٦]، ص٣٥٠؛ [٣]، ص٦٥).

(ب) **مبدأ الذرة تلفيقي:**

المبدأ القائل بالذرة، وحسب تفسير ديمقريطس له، مبدأ تلفيقي، ويمثِّل صورة من الصور الكثيرة التي اتخذها مبدأ الأضداد عند القدماء، وعبَّر عنه الفيثاغوريون بعناصر العدد: الزوجي والفردي، ونظرًا لأن بارمينيديس لم يكن على ألفة بقانون النشوء؛ فقد أنكر وجود أحد الضدين (العدم) ليثبت وجود الآخر (الوجود).

وكان سقراط أكثر إحاطة من بارمينيديس بقانون النشوء والتوالد، وعبَّر عنه في صورة عديد من الأزواج المتناقضة في محاولة منه ليُثبِت خلود النفس:

ومن هنا تحدث عن الوحدة والاثنينية، القسمة والتركيب، عن الحياة والموت.

وبالمثل عبَّر ديمقريطس عن مبدأ الأضداد عندما وصف الحقيقة الواقعة بأنها حياة الذرة، أي حركة ما هو موجود داخل ما هو ليس موجودًا.

بَيْدَ أن المصدر الأول لهذا المبدأ هو فلسفة نظم الأسرار في مصر؛ حيث نجد مبدأي الذكر والأنثى في الطبيعة يرمز لهما بالآتي:

(أ) أوزيريس وإيزيس: الإله والإلهة المصريان.

(ب) الإلهان حورس وست يمثِّلان عالمًا لقوى النزاع في حالة توازن ثباتي، ويناضلان للهيمنة على مصر (انظر [٥٠]، ف ٣، ص٢٥، ٢٦، ٣٥؛[٣١]، ١–٦، ٢٦؛ [٢٤]، ك١، ص٣٣٩؛ [٥٦] ص٦٤، ٧٣، ٨٨؛ [٢]، ص٦١؛ [٣]، ص٤١؛ [٣٨]).

علاوة على ما سبق، فقد أثبتت قصة الخلق المصرية مبدأ وفلسفة الأضداد؛ حيث ترى أن النظام وليد العماء البدائي، وتمثِّلها أربعة أزواج من الأضداد أي الأرباب الذكور والإناث:

(أ) نون ونونيت أي المادة الأولى والمكان.

(ب) هوك وهوكيت أي اللامتناهي واللامحدود.

(ج) هوه وهوهيت أي الظلام والغموض.

(د) آمون وآمونيت أي الخفي والمحجوب (الهواء والريح).

يبدو واضحًا أن مبدأ الأضداد كان فلسفة أساسية عند المصريين، لا يرتبط فقط بآلهة مسرح أحداث نظام الأسرار عندهم، بل يرتبط — أيضًا — بنظرتهم إلى نشأة الكون ونواميسه (الكوزمولوجيا)، وحيث إن هذه الرابطة تجعل من هذا المبدأ واحدًا من أقدم المبادئ في تاريخ تطور الفكر المصري، فإنه يسبق — تاريخيًّا — عهد مينا، وهو ما يعني أن المصريين يألفونه منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

في ضوء هذه الظروف، وبناء على هذه الوقائع، نقول إن نظام الأسرار المصري هو المصدر الأول لكل من:

(أ) مبدأ الذرة.

(ب) ومبدأ الأضداد.

وإن ليكيبوس وديمقريطس لم يعلِّما شيئًا جديدًا، ولا بد وأنهما اكتسبا معرفتهما بهذين المبدأين من المصريين مباشرة.

(ج) مبادئ التوزيع الكوني للذرات النارية وانبعاثها من موجودات خارجية هي مبادئ مأخوذة عن السحر.

هذه هي مبادئ سحرية، وتعبِّر عن المبدأ الأساسي السحري القائل إن كيفيات الحيوانات، أو الأشياء والموجودات، موزعة ومنتشرة في كل أجزائها. (٥٧) ومن ثَم فإن الاتصال داخل الكون يتم بين الموجودات من خلال انبعاثاتها. ولكن في حالة البشر تتمثل نتيجة هذا الاتصال في صورة إحساس أو معرفة، شفاء أو عدوى مرضية.

ولم يثبت هذا المبدأ فقط عن طريق شفاء الأمراض بلمس ملابس المسيح ومناديل القديس بول، بل — أيضًا — عن طريق الممارسة العلمية والطبية — حديثًا — بإجراءات الحجر الصحي الوقائية. وحري بنا أن نذكر أن السحر كان جزءًا من برامج التعليم الخاصة بالكهنة المصريين، ذلك أن الشعائر والاحتفالات الدينية عند المصريين كانت تعتمد على السحر، وكان الكهنة هم أهل الاختصاص بهذه المعارف.

(د) نقطة رابعة، وهي أن تاريخ الفلسفة اليونانية، وتصنيفها على أيدي أرسطو وتلامذته تضمن ذكر اثنين فقط اقتُرِن اسماهما بتأليف عدد استثنائي من الكتب العلمية، وهذان هما ديمقريطس وأرسطو (انظر [٣٤]، ك٩، ص٤٤٤–٤٦١، ك٥، ص٤٦٥–٤٦٧).

(هـ) نقطة خامسة جديرة بأن نذكرها، وهي أنه اكتُشف في تاريخ وتصنيف الفلسفة اليونانية، على أيدي أرسطو وتلامذته، أنه كلما جاء ذكر حيازة مجموعة كبيرة من الكتب العلمية نجد ذلك قد اقترن مباشرة، أو بصورة غير مباشرة، بالإسكندر الأكبر.

(و) تبين العلاقة بين ديمقريطس والإسكندر الأكبر، من خلال الدائرة الديموقريطية، أي تتابع عدد من المعلمين والتلاميذ في ارتباط بعلمٍ أصلي مشترك؛ إذ يقال إن ديمقريطس (٤٢٠–٣١٦ق.م.) علم مترودوروس من كيوس، والذي قيل عنه إنه علم أناكساركوس. وقد قيل إنه شبَّ وترعرع في زمن الأولمبياد رقم ١١٠ (٣٤٠–٣٣٧ق.م.)، وأنه صحب الإسكندر الأكبر في حملته ضد مصر (٣٣٣ق.م.).

ومن اليسير أن نتبين هنا الرابطة بين ديمقريطس وأناكساركوس لأن هؤلاء الرجال جميعًا أيونيون وأعضاء مدرسة واحدة، وعاشوا في زمن غزو الإسكندر مصر (انظر [٢]، ص٨٣؛ [٣٤]، ك٢، ص٤٧١).

ومن ناحية أخرى، فإن علاقة أرسطو بالإسكندر الأكبر معروفة جدًّا حيث إنه كان معلم الأمير الصغير في قصر مقدونيا (انظر [٤]، ص ١٠٤).

(ز) الملابسات تؤكد أن كتابات ديمقريطس ليست من تأليفه، ولا تشتمل على تعاليمه. وهذا للأسباب التالية:

(أ) أن ليوكيبوس، الذي لم يعرفه الأيونيون، والمشكوك في أمر وجوده أصلًا، نسب إليه أرسطو أنه صاحب مبدأ الذرة (انظر [٢]، ص٧٧؛ [٣]، ص٦٥؛ [٣٤]، ك١٠، ص١٣).

(ب) باستثناء ما كتب عن الذرة، فإن اسم ديمقريطس ارتبط بقائمة طويلة من الكتب تتناول أكثر من ستين موضوعًا مختلفًا، وتغطي جميع فروع العلم المعروفة في العالم القديم. وبالإضافة إلى هذا المجال الواسع من المعرفة. تشتمل القائمة —أيضًا — على علوم عسكرية وعلى القانون والسحر، وواضح أن تراكم هذا النطاق الواسع والمتباين من المعارف وتجمُّعه لدى فرد واحد كتبها على مدى حياته وحده أمرٌ مستحيل، طبيعيًّا وعقليًّا، لقد كان منهج القدماء في نقل المعارف أن يتم ذلك في مراحل تدريجية يعقبها دليل حذق وكفاءة، والذي يعقبه — أيضًا — عمليات انضمام لتلقي المعرفة، والتي تحدد كل خطوة في مسار المريدين الجدد، وتقدمهم المرحلي على الطريق.

لقد كان التقدم المرحلي — في مجال التثقيف — بطيئًا، ولا يستطيع أي مريد من المستجدين أن ينجز مثل هذا القدر الهائل من المعارف على مدى حياته الفردية، وهو ما اقتضى من المصريين أكثر من خمسة آلاف عام، تجمَّعت خلالها هذه المعارف. وهذه الحدود التي تتصف بها قدرة الإنسان تصدق اليوم مثلما كانت صادقة بين القدماء. ذلك أن العظماء من علمائنا اليوم — في عالمنا الحديث — متخصصون كل في موضوع بذاته.

(ج) ويبقى السؤال التالي: كيف تأتَّى لديمقريطس أن يجمع كل هذه الكتب لو أنه لم يكن هو كاتبها؟ أعتقد أن لدينا الإجابة بعد أن لاحظنا — في تاريخ الفلسفة اليونانية — أنه:

(١) حيث توجد رابطة مباشرة أو غير مباشرة بين فيلسوف يوناني وبين الإسكندر الأكبر، نجد أيضًا حيازة لمجموعة ضخمة من الكتب العلمية.

(٢) يصدق هذا على حالتي ديمقريطس وأرسطو.

(٣) أن أناكساركوس وديمقريطس من الأيونيين المنتمين إلى ذات المدرسة.

(٤) صحب أناكساركوس الإسكندر الأكبر في حملته ضد مصر (وتتضح هنا الرابطة — غير المباشرة — بين ديمقريطس والإسكندر الأكبر).

(٥) يلزم عن هذا القول: حيث إن احتلال الإسكندر لمصر هيَّأ للإغريق الفرصة التي طالما تمنَّوها، ألا وهي الحصول على المكتبة والمتحف المصريين؛ فإن لنا — بطبيعة الحال — أن نتوقع استيلاء الإسكندر وأصدقائه والجيوش الغازية على الكتب المصرية، ولنا أن نتوقع — أيضًا — أن أناكساركوس قد باع — عقب عودته — إلى أيونيا بعض هذه الكتب — على الأقل — إلى ديمقريطس (وليس لنا أن نتوقع أن يقص علينا أرسطو وثيوفراستوس هذه الوقائع). وذلك لأن قواعد نظم الأسرار المصرية تقضي بعدم جواز نشر المعارف (مكتوبة أو مقروءة) إلا عن طريق الأُخوَّة وبين الأُخوَّة، ونعتقد أن هذه هي الطريقة التي استطاع — عن طريقها — ديمقريطس حيازة هذا العدد الضخم من الكتب العلمية.

ونجد لزامًا أن نؤكد — ثانية — أن ديمقريطس لم يعلِّم شيئًا جديدًا، وإنما علَّم فقط ما تعلَّمه — هو — من المصريين، سواء مباشرة أو على نحوٍ غير مباشر.

وإن مذهبه عن التوزيع الكوني للذرات النارية قائم على مبدأ من مبادئ السحر؛ فإذا كانت الذرة هي المقوم الأساسي للعالَم؛ إذن فلا بد وأنها منتشرة في كل أنحاء الكون.

زِد على هذا، فإن ديمقريطس دخل التاريخ باعتباره ساحرًا، وحيث تتوفر الشواهد التاريخية على أنه زار الكهنة المصريين؛ إذن يبدو — واضحًا — أن السحر كان أحد الموضوعات التي تثقَّف بها على أيدي المصريين (انظر [٥٨]؛ [٣١]؛ [٣٤]؛ ص٤٤٣؛ [٢]، ص٧٧).

(٣) الشكوك حول تأليفه كتبه

ثمة وقائع هامة وعديدة يتعين ملاحظتها بشأن الكتب التي قيل إن ديمقريطس ألَّفها:

(أ) إن عددًا كبيرًا من الكتب التي تظهر في إحدى القوائم في الكتاب التاسع لديوجين لابرتيوس لا نجد لها أي ذكر في مكان آخر ضمن المراجع المألوفة عن تاريخ الفلسفة اليونانية. هذا بينما يؤكد تسلر أن أصالة هذه الكتب لا يمكن تحديدها استنادًا إلى كتاب الشذرات (انظر [٢]، ص٧٧)، ويبدو أن قائمته بالمنشورات ستظل موضع شك فيما يتعلق بتأليفه هو لها.

(ب) إن كتبه تعالج أكثر من ٦٠ موضوعًا مختلفًا، من بينها الأخلاق والطبيعيات والفلك والنبات والحيوان والشِّعر والطب والجدل والعلوم العسكرية والقانون، علاوة على كتب في السحر تتضمن العرافة.

(ج) روى لنا ديوجين لايرتيوس أن هذه القائمة الطويلة من الكتب إنما جمعها وصنَّفها ثراسيلوس (حوالي ٢٠م)، وهو أحد تلامذة أفلاطون، وأيضًا عضو في حركة أرسطو التي استهدفت تجميع وتصنيف الفلسفة اليونانية (انظر [٢]، ١٣-١٤؛ [٣٤]، ك٩، ص٤٥٥–٤٦١).

(٦) الكيفيات الأربع والعناصر الأربعة

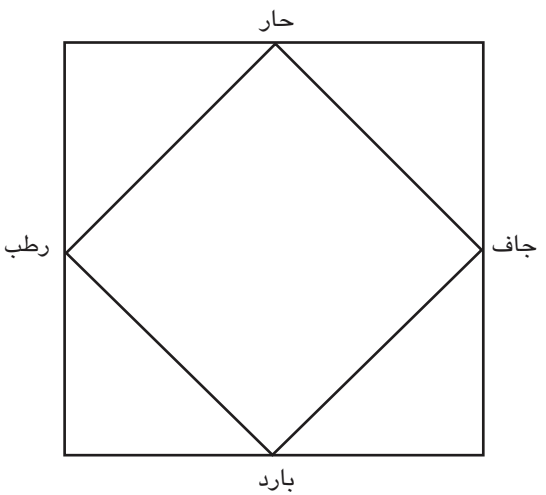

إن تاريخ النظرية القديمة التالية عن «الكيفيات الأربع والعناصر الأربعة» يقدم — للعالم — الدليل الواضح على المنشأ المصري لمبادئ:

(أ) الأضداد أو المتناقضات.

(ب) التغير أو التحول.

(ج) الحياة ووظيفة الكون مردها إلى أي من العناصر الأربعة: النار، أو الماء، أو التراب، أو الهواء.

(١) هذه النظرية القديمة عبَّر عنها رسم تخطيطي بياني من مربعين داخلي وخارجي.

(٢) أركان المربع الخارجي تحمل أسماء العناصر: النار، الماء، التراب، الهواء.

(٣) أركان المربع الداخلي، التي ترتكز على منتصف أضلاع المربع الخارجي، تحمل الكيفيات الأربع الرئيسية: الحار، والجاف، والبارد، والرطب.

(٤) الرسم التخطيطي البياني يوضح أن النار حار وجاف، وأن التراب جاف وبارد، وأن الماء بارد ورطب، وأن الهواء رطب وحار.

(٥) ومن ثَم، فإن الماء تجسيد لكيفيتين هما البارد والرطب، وإذا أبدلت الكيفية الباردة بكيفية حارة يتغير عنصر الماء إلى عنصر هواء له كيفيتان هما الرطب والحار.

(٦) ونتيجة لذلك فإن التحول وارد بالضرورة ضمن تعليم هذا الرمز.

(٧) هذا هو أقدم تعليم للعلم الطبيعي، وترجع أصوله إلى المصريين منذ ٥٠٠٠ق.م.

(٨) يتضح أن أفلاطون وأرسطو (المنسوب إليهما — خطأً — تأليف هذا التعليم) استمدَّا مبادئهما — أو أجزاء منها — من المصريين (انظر [٥٩]، ٤ مايو١٩٥٢م، ص١٧٥).

الفصل السادس

فلاسفة أثينا

(١) سقراط

(أ) حياته.
(ب) مبادئه.
(ج) موجز الاستنتاجات.

(أ) حياة سقراط

(١) تاريخ ومكان الميلاد

وُلِد سقراط في أثينا عام ٤٦٩ق.م. من أب يُدعى سوفرونيسكس، ويعمل نحاتًا، وأم تُدعى فايناريت وتعمل قابلة.

لا نعرف عن حياته الباكرة سوى النزر اليسير جدًّا، وإن قيل إنه نشأ على مهنة أبيه، ولم يقل عن نفسه فقط إنه تلميذ بروديكوس وأبازيا (وهي عبارة توحي بأنه ربما تعلم منهما الموسيقى والهندسة والرياضيات)، وإنما قال — أيضًا — إنه فيلسوف علَّم نفسه بنفسه، حسب ما قاله أكزينوفون في المائدة. وتبدو حياته، حتى سن الأربعين، فارغة تمامًا، ولا شيء يميزها. ولعل أول ذكر له جاء عندما كان يعمل جنديًّا عاديًّا أثناء حصار مدينتي بوتيداي ودليوم، فيما بين عامي ٤٣٢، ٤٢٩ق.م. (انظر [٦٠]، المقدمة، ص١٥، بقلم إف جي شيرش).

(٢) شخصيته ومكانته الاقتصادية

لم يقبل سقراط تلقي مصروفات مقابل تعليمه للناس، واشتد به الفقر حتى إن زوجته — خانتيب — اشتد بها الضيق بسبب سوء الأوضاع المنزلية.

اعتقد أنه ممسوس، أي تلبَّسه كيان إلهي؛ حيث ظن أن ثمة صوتًا إلهيًّا يوحي إليه بالمشورة والهداية إذا ألَمَّت به — في حياته — أزمة شديدة الوطأة (انظر [٣]، ص٧٨-٧٩؛ [١٩]):

(٣) إدانته وموته عام ٣٩٩ق.م.

بعد الأحاديث المألوفة للمدعين ضده (ميليتوس وأنيتوس وليكون) أتبعها سقراط بدفاعه. وعند ختام كلمته صوَّت القضاء بنسبة ٢٨١ ضده مقابل ٢٢٠، وصدر ضده حكم بالإعدام.

وقال كلمة وداع أخيرة خاطب بها كلًّا ممن صوتوا ضده أو صوتوا معه، وبالنسبة للفريق الأول عنَّفهم في كلمته؛ إذ تنبأ بأن الشر سوف يحل بهم بسبب جريمتهم ضده إذ أدانوه.

وبالنسبة للفريق الآخر لم يكتفِ بمواساتهم حين أكد لهم أن الشر لا يمس إنسانًا خيِّرًا، سواء في حياته أو في مماته، بل عبَّر لهم عن رأيه في الخلود؛ إذ قال: «الموت نوم، قد يكون نومًا أبديًّا، أو نومًا بغير أحلام؛ حيث ينعدم الإحساس تمامًا، أو أنه رحلة إلى عالم آخر أفضل؛ حيث مشاهير الزمن السالف.» وأيًّا كان أحد البديلين هو الصادق؛ فإن الموت ليس شرًّا بل خيرًا؛ إن موته إرادة الآلهة، وهو راضٍ بذلك» (انظر [١٩]، فصل ٢٥–٢٨).

وتأجل إعدامه بسبب احتفال ديني للدولة؛ ومن ثَم بقي في سجنه ثلاثين يومًا.

ورُوي أنه خلال هذه الفترة زاره أصدقاؤه ممن يمثِّلون الدائرة الضيقة، كما زارته زوجته خانتيب، وكانت هذه هي الفرصة التي أدلى فيها بخطابه عن خلود النفس؛ مثلما كانت فرصة للهرب من الموت لو أراد؛ ذلك أن أصدقاءه زاروه قبل انبلاج الصبح، وعرضوا عليه إطلاق سراحه، بَيْدَ أنه رفض العرض، وبناءً عليه تجرع سقراط السم، ولقي حتفه ([٣٨]؛ [٥٢]، ف٤، ص٨، ٢).

(٤) حساب كريتو

رُوي أنه، في الليلة السابقة على إعدام سقراط، وبينما كان في السجن، ناشده كريتو مناشدة أخيرة، باسم رفاقه الزائرين، بأن يسمح لهم بتأمين هربه، وقال ما يلي:

عزيزي سقراط، أتوسل إليك، للمرة الأخيرة، أن تنصت إلى كلماتي وتنقذ نفسك؛ ذلك أن موتك سيكون بالنسبة لي أكثر من كارثة؛ لن يقتصر الأمر على أن أفقد صديقًا لن

أجد مثله أبدًا، بل سأفقد أشخاصًا كثيرين لا يعرفون كلينا، أنت وأنا، معرفة جيدة؛ إذ سيظنون أن كان بإمكاني أن أنقذك لو رضيت أن أنفق بعض المال، ولكنني تغافلت عن ذلك. وأي صفة أدعى إلى الشعور بالعار من صفة الحرص على المال أكثر من الحرص على الأصدقاء؟ لن يصدق العالم — أبدًا — أننا كنا متلهفين من أجل إنقاذك، ولكنك — أنت نفسك — الذي أبيت الهرب.

قل لي يا سقراط، يقينًا، إنك لست قلقًا عليَّ وعلى أصدقائك الآخرين، وإنك خائف — تحسبًا — من أنك إذا ما هربت سيقول الواشون إننا فررنا بك خلسة؛ وبذا نقع في مشكلة، ونورط أنفسنا في نفقات تفوق الطاقة، أو ربما نفقد كل ما نملك، وربما نقع تحت طائلة المزيد من العقاب؟ إذا كانت تساورك أي مخاوف من هذا النوع اطردها من ذهنك.

ذلك لأننا ملتزمون بأن نخاطر هذه المخاطر، بل وأن نعرض أنفسنا لمخاطر أشد عند الضرورة من أجل إنقاذك، لهذا أتوسل إليك بألا ترفض الإنصات إلى كلامي.

وهنا أجاب سقراط: «إنني قلق لهذا يا كريتو، ولما هو أكثر من هذا .»

وواصل كريتو مناشدته، قائلًا: «إذن لا تخش من هذه الناحية؛ هناك رجال، ودون مبالغ من المال مرهقة، على استعداد لإخراجك من السجن آمنًا. ثم إن هؤلاء الوشاة، كما تعرف، يمكن شراؤهم بثمن زهيد، ولن تكون هناك حاجة لإنفاق مبالغ طائلة عليهم.»

«إن ثروتي تحت أمرك، وأحسب أنها كافية، وإذا كانت في نفسك غضاضة من أن تستخدم أموالي؛ فإن في أثينا غرباء نعرفهم، وعلى استعداد لاستخدام أموالهم، ومن بينهم سيمياس الطيبي، الذي أحضر — بالفعل — مالًا كافيًا لهذا الغرض، ثم إن سيبيس — وآخرين كثيرين — على استعداد أيضًا.

لهذا أكرر: لا تتردد عن إنقاذ نفسك، بناء على هذا الأساس.

ولا تدع ما قلته في المحكمة (من أنك لو ذهبت إلى المنفى فإنك لا تدري ماذا عساك أن تفعل بنفسك) يقف حائلًا في طريقك: ذلك لأن هناك أماكن كثيرة يمكنك الذهاب إليها، وتكون موضع ترحيب.»

إذا اخترت الذهاب إلى ثيسالي فإن لي أصدقاء هناك سوف يقدمون لك الكثير، وسوف يحمونك من أي مضايقات من أهل ثيسالي.

«فكر مليًّا يا سقراط قبل فوات الأوان، لا بد وأن نحسم أمرنا، وليست هناك سوى خطة واحدة هي الممكنة، كل شيء لا بد وأن يتم الليلة، إذا تأخرنا أكثر فقد ضاع كل شيء.»

«آه يا سقراط، أتضرع إليك ألا ترفض الإصغاء إلى كلماتي» (انظر [٦١]، ف٣، ٥).

(٤) رواية فيدو عن المشهد الأخير قبيل وفاة سقراط

وفي إجابة على سؤال آخر من أشيكراتيس أجاب فيدو قائلًا: سأحاول أن أروي لك القصة كاملة:

على مدى الأيام السابقة، اعتدت — أنا وآخرين — أن نلتقي — دائمًا، كل صباح — في المحكمة، حيث تنعقد المحاكمة، قريبًا من السجن، ثم ندخل حيث يوجد سقراط .

واعتدنا الانتظار — كل صباح — نقضي وقتنا في الحديث إلى أن يُفتَح باب السجن الذي لم يكن يُفتَح باكرًا. وما أن يُفتَح باب السجن حتى نتجه إلى سقراط ونقضي سحابة النهار معه.

ولكننا، في ذلك اليوم الموعود، التقينا مبكرًا عن المألوف لأننا علمنا عشية هذا اليوم ونحن نغادر السجن أن السفينة قد وصلت من ديلوس. لهذا رتَّبنا أمورنا على أن نلتقي مبكرًا جدًّا قدر المستطاع، وما إن بلغنا — في الصباح التالي — باب السجن حتى خرج إلينا حارس البوابة، الذي كان من المعتاد أن يسمح لنا بالدخول فورًا، ولكنه — هذه المرة — أمهلنا، ورجانا الانتظار قليلًا، وألا ندخل إلا حين يدعونا هو بنفسه، ذلك لأن مجموعة الأحد عشر تفك قيود سقراط، وتعطيه توجيهات قبل إعدامه. ولم يمضِ طويل وقت حتى عاد إلينا، وطلب منا الدخول، وهكذا دخلنا ورأينا سقراط وقد تحرَّر من القيود، وعندما رأتنا خانتيب ولولت، وصاحت بطريقتها النسائية:

«هذه هي المرة الأخيرة يا سقراط التي ستتكلم فيها يا سقراط مع أصدقائك أو يتكلمون هم معك.» ورمق سقراط كريتو بنظرة، وقال له: «كريتو، دعهم يأخذونها إلى البيت» ولهذا قادها بعض خدم كريتو وخرجوا بها وهي تنتحب بمرارة وتلطم صدرها بيديها ... وما إن قاربت الشمس المغيب حتى اقترب خدم فريق الأحد عشر وودَّعوا سقراط وأعطوه تعليماتهم بشأن كيفية تجرع السم، ثم ناولوه السم، أمسك سقراط الكأس وتجرع السم بوجه باش، وسار على قدميه خطوات إلى أن خانتاه، وأحس بهما ثقيلتين. وحين رقد على الأرض أبلغ كريتو آخر رجاء له في كلماته التالية «أنا مدين لأسكليبوس بديك فلا تنس أن تسدده له، وعند ذلك كان السم قد سرى في جسده، وأحدث مفعوله ولفظ أنفاسه» (انظر [٣٨]، ف٦، ٦٥).

(ب) مبادئ سقراط

(١) مبدأ العقل الكلي Nous أو العلة العقلانية لتفسير الله والخلق، منسوب إليه القول بالمسلَّمة الغائية

كل ما هو موجود، ولغرض مفيد هو من نتاج عقل (انظر [٥٢]،١،٤؛ [٣]، ص٨٣).

(٢) مبدأ الخير الأقصى

الخير الأقصى يتكافأ مع كل من السعادة والمعرفة. وليس هذا فقط رهن الظروف الخارجية وعوارض الحظ، وإنما هو رفاه رهن سلوك حسن. إنه تحقُّق وضع يغدو فيه الإنسان شبيهًا بالإله، عن طريق إنكار ذاتي للمتطلبات الخارجية ومع تثقيف العقل؛ ذلك لأن السعادة لا تتحصل بواسطة الموجودات الفانية في العالم الآخر، بل من خلال الموجودات الباقية والمعمرة في داخل نفوسنا (انظر [٥٢]، ١، ٥، ٤؛ [٣]، ص٨٣).

(٣) مبدأ الأضداد والتناغم

(أ) الفردي والزوجي عنصرا الأعداد. أحدهما محدود، والآخر غير محدود، والوحدة نتاج كليهما الزوجي والفردي، ومن ثَم فإن الكون قوامه أضداد: المتناهي أو اللامتناهي، الذكر والأنثى، الفردي والزوجي، اليسار واليمين.

(ب) التناغم هو وحدة الأضداد.

(انظر [٣٨]، ف١٥؛ [٣] ص٤١،٤٧؛ [٢]، ص٦١).

(٤) مبادئ سقراط عن النفس

(أ) خلود النفس.

(ب) تناسخ النفس.

(جـ) خلاص النفس.

غرض الفلسفة خلاص النفس، والذي تغتذي به على الحقيقة التي هي من جنس طبيعتها الإلهية، وبذا تهرب من عجلة إعادة الميلاد، وتبلغ في النهاية الوحدة مع الله. (انظر [٢]، ص٥٠–٥٦؛ [٤]، ص٢٩، ٦٠؛ [٣] ص٤١، ٤٨).

(د) البدن مقبرة النفس.

(هـ) طموحات النفس.

ثم مملكة للحقيقة الصادقة التي تعلو على عالم الحس، وهذا هو ما تطمح إليه النفس.

(٥) مبدأ معرفة الذات

اعرف نفسك sauton gnothi.

معرفة النفس أساس المعرفة الحقة، اشترطت نظم الأسرار المصرية — كخطوة أولى — التحكم في الانفعالات؛ لأن هذا يتيح مجالًا لهيمنة القوى غير المحدودة. ومن ثَم فإن الخطوة التالية مطالبة المريد المبتدئ بالبحث داخل ذاته عن القوى التي كانت مستحوذة عليه. واعتاد المصريون القدماء أن يكتبوا على جدران معابدهم عبارة «أيها الإنسان اعرف نفسك» (انظر [٢]، ص١٠٥؛ [٦٢]، ص٢٠٣).

(٦) التنجيم والجيولوجيا

ساد شك بأن سقراط اشتغل — أيضًا — بدراسة التنجيم والجيولوجيا، وأنه كان معلمًا يعلم هذه الموضوعات، ذلك لأنه، في دفاعه أمام قضاة أثينا، قرر أن أشدَّ متهميه هولًا حاولوا إقناعهم بأكاذيب، تقول إن سقراط، الرجل الحكيم، كان يرجم بالغيب بشأن السموات وأشياء في باطن الأرض، وأنه قادر على أن يجعل أسوأ الحجج تبدو وكأنها الأفضل (انظر [١٩]، ف٢).

وتأكد هذا الشك أكثر بسبب الاتهام الموجه ضد سقراط، ونصُّه كما يلي: ميليتوس، ابن ميليتوس، من حي بيتيس، بعد أن حلف اليمين يوجه الاتهام التالي ضد سقراط بن سوفرونيسكس من أبناء حي ألوبيكي.

«ارتكب سقراط جريمة عدم الإيمان بآلهة المدينة، وإدخال آلهة جديدة، واقترف — أيضًا — جريمة إفساد الشباب؛ العقوبة هي الإعدام» (انظر [١٩]، ف٢٤، ١٨، ١٩). وهناك أيضًا مصدر ثالث تولَّد عنه الشك في أن سقراط اشتغل، كذلك، بالتنجيم والجيولوجيا، ونعني به الصورة الكاريكاتيرية التي رسمها له أرستوفان في ملهاته «السحاب»، وهي كالآتي:

«سقراط ناسك بائس يتحدث كثيرًا عن الطبيعيات حديثًا باطلًا وهراء مسليًا، ويعلن أن زيوس أقيل عن العرش، وأن هناك دورة تناوب بدلًا منه، وأن الآلهة الجدد هم الهواء الذي يحتفظ بالأرض معلقة والتراب والسحاب واللسان.»

«ويعترف بأن له سلطة بليال[1] تمكِّنه من أن يحيل الخسيس إلى معدن نفيس؛ ثم إن تعاليمه تحفز الأبناء على ضرب الآباء.» (انظر [٦٣]، ٨٢٨، ٣٨٠؛ وانظر أيضًا [٦٠]، المقدمة، ص١٨).

موجز الاستنتاجات

(١) حياة سقراط وشخصيته

هناك ملابستان في حياة سقراط يلزم الالتفات إليهما:

(أ) قيل إنه لم يكن معروفًا — البتة — حتى بلغ الأربعين من عمره.
(ب) أنه عاش حياة الفقر.

هاتان الملابستان تشيران إلى السرية في التثقيف، وإلى الفقر كشرطين في حياته، وهما يتطابقان مع متطلبات نظام الأسرار المصري ومدارسه السرية، سواء على أرض مصر أم في الخارج. وهو نظام يستلزم أخذ عهد على جميع المبتدئين والمريدين بالسرية والفقر. والمعروف أن جميع الطامحين إلى الالتحاق بنظم الأسرار كانوا يتلقَّون تثقيفًا وإعدادًا تكتنفها السرية، ولم يكن سقراط استثناءً من هذا، وأنه الوحيد — من بين فلاسفة أثينا الثلاثة — الجدير بلقب المعلم البناء حقًّا. هذا بينما اتسم أفلاطون بالجبن الشديد، وأرسطو أشد منه جبنًا. والمعروف أنه عند إعدام سقراط لاذ أفلاطون بالفرار إلى ميجارا حيث بيت إقليدس؛ ولاذ أرسطو — أيضًا — بالفرار إثر اتهامه، واتخذ لنفسه منفى في كالكيس (انظر [٦٤]، ك٥، ف٧، ٩؛ [٣٢] إيزيس وأوزيريس ف٩–١١؛ [١٩]، ف٨؛ [٣٨]، ف١٠، ١٣، ٣٢، ٦٣).

(٢) المبادئ

(أ) مبدأ العقل الكلي Nous أو العلة العاقلة

بالإشارة إلى هذا المبدأ نجد أنه منسوب أيضًا إلى أناكساجوراس، الذي قيل إنه عاش فيما بين عامي ٥٠٠ و٤٣٠ق.م. ومن ثَم كان سابقًا على سقراط (٤٦٩–٣٩٩ق.م.) في الدعوة إليه (انظر [٣]، ص٦٣–٨٢).

[1] بليال أو بعلزبول وهو الشيطان في العهد الجديد وفي كورنثة في اليونان، ويرمز إلى الدهاء والمكر وفعل الشرور. (المترجم)

ثانيًا: إن مزيدًا من الفحص يوضح لنا أن مبدأ العقل الكلي هو استدلال مباشر عن مبدأ المعرفة المنسوب إلى ديمقريطس (٤٦٠–٣٦٠ق.م.)، والذي يُعزى إليه أنه قرر أن الذرات النارية موزعة في كل أنحاء الكون، وأن العقل مؤلف من ذرات نارية.

وبذلك يمكن أن نستنتج:

(أ) أن العقل يملأ الكون، أو موزع في كل أنحاء الكون.

(ب) حيث إن الأشباه تتجاذب إلى بعضها؛ فإن العقل في الكون لا بد وأنه نتج عن عقل هو مصدره (انظر [٣]، ص٦٨؛ [٢]، ص٨٠).

ثالثًا: هذا المبدأ القائل بالعقل الكوني Nous هو مبدأ نشأ — أصلًا — في نظم الأسرار المصرية القديمة، حيث الرب أوزيريس كان يمثِّله — في كل معابد مصر — رمز عين مفتوحة. ولا يشير هذا الرمز فقط إلى البصيرة التي تتجاوز الزمان والمكان، بل ويشير إلى الوجود غير المحدود لله باعتباره العقل الأعظم الخالق للكون والمدبِّر لشئونه. ونجد هذا الرمز الآن في صورة زخرفة تزين جميع المحافل الماسونية بحكم عقيدة الانتماء إلى الفكر المصري القديم، وله ذات الدلالة (انظر [١٢]، ص١٨٩).

(ب) مبدأ الخير الأسمى

مبدأ الخير الأسمى هو — بالمثل — مبدأ قديم جدًّا، يعود بنا إلى نظم الأسرار المصرية القديمة. إنه، حسب الصورة المبينة في كتب الفلسفة اليونانية، وكذلك على لسان سقراط، يمثِّل جزءًا من المبدأ الأصلي، ومن ثَم يُعَد مفهومًا خاطئًا عن هذا المبدأ. إننا حين نقول إن الخير الأسمى هو السعادة، والسعادة هي الرفاه، والرفاه هو المعرفة، والمعرفة هي الفضيلة، فهذا هو عين قولنا إن الخير الأسمى هو الفضيلة (انظر [٥٢]، ١، ٤، ٥؛ [٣]، ص٨١–٨٣).

ولكن مفهوم الخير الأقصى عبَّرت عنه نظم الأسرار المصرية القديمة بأنه غرض الفضيلة، وأنه خلاص النفس؛ إذ يحرر النفس من أغلال البدن العشرة. وعملية التحرير هذه هي عملية تطهر، تشمل تطهير العقل والبدن:

تطهير العقل عن طريق دراسة الفلسفة والعلم، وتطهير البدن عن طريق المجاهدات وقواعد الزهد للتحكم في البدن. واستمر هذا التثقيف منذ التعميد بالماء، ثم تلاه التعميد

بالنار، بعد أن يحقق المريد التقدُّم المرحلي اللازم، وتفضي هذه العملية إلى تحوُّل الإنسان وجعله شبيهًا بالإله وتهيِّئه للاتحاد به.

إن مفهوم الخير الأسمى، الذي ظهر — أصلًا — على أيدي نظم الأسرار المصرية القديمة هو أقدم نظريات الخلاص؛ ولا بد وأن سقراط استمدَّ مبدأه من هذا المصدر مباشرة، أو بطريقة غير مباشرة من الفيثاغوريين (انظر [٣٨]، ف٣١، ٣٣، ٣٤؛ [١٢]، ص٢٤–٢٥، [٦٢]، ص١٩، ٧٤، ٨٠).

(ج) المبادئ التالية مستمدة من الفيثاغوريين

حسبما هو مسلَّم به بوجه عام:

(١) تناسخ النفس.
(٢) خلود النفس.
(٣) الجسد مقبرة النفس.
(٤) مبدأ الأضداد والتناغم.

وحيث إن ١، ٢، ٣، ٤ مأخوذة — أصلًا — عن الفيثاغوريين، ونظرًا لأن الفيثاغوريين أخذوها عن المصريين، إذن من الواضح أنها مصرية الأصل والمنشأ مباشرة أو بصورة غير مباشرة (انظر [٤]، ص٢٩، ٦٠؛ [٣]، ص ٤١، ٤٨،[٣٨]).

(د) التنجيم والجيولوجيا

من ١ – الاتهام، و٢ – دفاعه أمام قضاة أثينا، و٣ – الصورة الكاريكاتيرية التي رسمها عنه أرستوفان في السحاب، نكتشف أن سقراط اتُّهم بأنه دارس للطبيعة، وعمل على إدخال آلهة جديدة إلى أثينا.

ونعود لنقرر أن دراسة الطبيعة — بمقتضى نظام الأسرار المصري — كان شرطًا مسبقًا، وحيث إن الأثينيين اضطهدوا وأدانوا سقراط ونشْره المعارف بشأنها؛ فلا بد وأنهم اعتبروا الأفكار الجديدة أجنبية دخيلة أو مصرية المصدر (انظر [١٩]، ف٢٤–٢٨؛ [١٢]، ص٢٤-٢٥).

(هـ) مبدأ معرفة النفس

مبدأ معرفة النفس منسوب — منذ قرون — إلى سقراط، ولكن أصبح اليوم معروفًا، عن يقين، أنه ظهر — أصلًا — في المعابد المصرية التي كان ينقش على جدرانها الخارجية كلمات: «أيها الإنسان، اعرف نفسك.»

وواضح أن سقراط لم يكن يعلِّم جديدًا؛ لأن مبادئه مبادئ تلفيقية جمعت عناصر من كل من أناكساجوراس، وديمقريطس، وهيراقليطس، وبارمينيديس، وفيثاغورس. ثم إن هذا المبدأ ثبت أنه مستمد — تاريخيًّا — من تعاليم نظم الأسرار المصرية (انظر [٦٢]، ص٢٠٣).

(و) أهمية أحاديث وداع سقراط لتلامذته وأصدقائه في السجن

إذا دققنا فيما جرى أثناء محادثات وداع سقراط لتلامذته وأصدقائه تجدر الإشارة إلى خمس نقاط على الأقل:

(أ) موضوع المحادثات.
(ب) تصميم أصدقائه على تهريبه.
(جـ) رفضه إطلاق سراحه.
(د) وصيته — قبيل وفاته — إلى صديقه كريتو، حين طلب أن يسدد عنه دينًا هامًّا.
(هـ) قيمة هذه المحادثات في صورتها الراهنة في الأدب.

هنا يبرز سؤال: ما معنى وأهمية هذه النقاط الخمس؟ إجابتنا واستنتاجاتنا هي الآتي:

(أ) حيث إن موضوع المحادثات انصبَّ على خلود وخلاص النفس، فإننا نسلم — على الفور — أن هذه هي القضية الرئيسية في نظم الأسرار المصرية القديمة، ومن ثَم فإن سقراط على دراية بهذه المبادئ.

علاوة على هذا، فإننا حين نقرأ محاورة فيدو، وكذلك مبدأي الأضداد والتذكر اللذين قدمهما برهانًا على الخلود؛ فإننا نقتنع بأنه تلقَّى تثقيفه داخل نظام الأسرار المصري الذي كان مرتبطًا به فقهاء شراح، ومعلمين أكفاء.

(ب) ثانيًا إننا إذ نتناول سلوك أصدقائه حين عقدوا العزم على تهريبه، فإنما نتناول محاولتهم تقديم مساعدة إلى أخ لهم في محنة.

وكانت هذه هي الحياة التي من المتوقع أن يحياها المريدون المبتدئون، وذلك لأن الأخوَّة تمثِّل عندهم مبدأ آخر هامًّا، أرست دعائمه نظم الأسرار المصرية، وواضح أن سقراط كان «أخًا مريدًا» في نظم الأسرار المصرية ما دام أنها تؤلف أخوَّة عالمية.

(ج) ثالثًا إننا إذ نتناول رفض سقراط تحريره، فإننا — مرة ثانية — نتناول نمطًا سلوكيًّا يميزه باعتباره مريدًا متقدمًا في نظم الأسرار المصرية. ذلك أن نظم الأسرار المصرية إذ ترسم طرق السالكين إلى التميز والانتصار إنما كانت تعتبر البعد عن الأنانية، أو التضحية، مرحلة متقدمة من مراحل بلوغ الهدف الذي لا بد وأن يكتمل لكي ينعم المريد بسلطان غير محدود. حقًّا إن أناكساجوراس هرب إنقاذًا لحياته، وكذلك فعل أفلاطون وأرسطو. بيد أن هذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن سقراط قد بلغ مرتبة أسمى منهم جميعًا في نظم الأسرار المصرية، واستلزم هذا تثقيفًا وتدريبًا، وكانت مصر هي مركز التثقيف والتدريب.

(د) رابعًا، إننا حين نشير إلى وصية سقراط، قبيل وفاته، إلى كريتو، والتي سأله فيها سداد دين عليه، فإننا نلتقي— ثانية — مع أحد المثل العليا العظيمة المميزة لحياة المريد. وهذا المثل ضمن تعاليم نظم الأسرار، ويشتمل على ممارسة فضيلة أساسية وهي فضيلة العدالة، ويتعين على المرشح لهذه النظم أن يلتزم بممارستها حتى يرتقي — أيضًا — حسُّه القيمي.

وهنا يكشف سلوك سقراط — مرة أخرى — عن أنه كان أخًا مريدًا تحلى بحسٍّ مرهف بالعدالة والأمانة؛ إذ لم يشأ أن يلقى الموت دون الوفاء بكل التزاماته؛ إن وصية سقراط، قبيل وفاته، تكشف — يقينًا — عن أنه عضو وفيٌّ مخلص في نظام الأسرار المصري .

(هـ) خامسًا وأخيرًا، ما هي القيمة التي يمكن أن نعزوها إلى الأدب المعني بأحاديث الوداع بين سقراط وأصدقائه وتلامذته؟ طالما وأن هذا الأدب عن إنسان تتطابق معتقداته وممارساته مع معتقدات وممارسات مريدي نظم الأسرار القديمة في مصر، إذن يمكننا أن نعتبر دراسة أكزينوفان، وعنوانها سجل الذكريات Memorabilia ودراسات أفلاطون، وفيدو، وأيوثيفرو، وكريتو، وطيماوس، أمثلة قيِّمة لأدب نظم الأسرار المصرية (انظر [١٢]، ف٢٤، ٢٥، ٣٢؛ [٣٨]؛ [٢١]؛ [٦٢]، ف٤٤، ٤٩، ٦٧، ٧٥).

(٢) أفلاطون

(١) الحياة الباكرة.
(٢) الأسفار.
(٣) الكتابات المتنازع بشأنها.
(٤) مبادئه.
(٥) موجز الاستنتاجات.

الحياة الباكرة

قيل إن أفلاطون من مواليد أثينا، في عام ٤٢٧ق.م. واسم أبيه أرسطو، واسم أمه بريكتيوني، وهي إحدى قريبات سولون.

المعلومات المتوفرة قليلة عن حياته الباكرة وعن تثقيفه، ولكن ثمة افتراض يقول إنه من أبوين ثريين، لذلك فلا بد وأن توفرت له فرص التعليم التي يحظى بها شباب الأثرياء، ورُوي أنه درس مبادئ هيرقليطس على يد كراتيلوس، فضلًا عن كونه تلميذًا لسقراط ثماني سنوات، وقيل — أيضًا — إنه كان جنديًّا (انظر [٤]، ص٧٦؛ [٣]، ص٩٣؛[٦٥]).

(أ) أسفاره

كان قد ناهز الثامنة والعشرين من العمر وقت وفاة سقراط، (أي عام ٣٩٩ق.م.). وفرَّ — هاربًا — هو وتلامذة سقراط من أثينا إلى إقليدس في ميجارا التماسًا للأمان. وظل بعيدًا عن أثينا ١٢ عامًا، قيل إنه قام، خلالها، علاوة على إقامته مع إقليدس، بأسفار عديدة إلى:

(أ) جنوب إيطاليا حيث التقى العناصر الباقية من الفيثاغوريين.
(ب) إلى سيراقوزه في صقلية حيث التقى، عن طريق ديون، مع ديونيسيوس الذي عمل معلمًا له، والذي كان — فيما بعد — سببًا في بيعه في سوق النخاسة.
(ج) إلى مصر.
(انظر [٤٣]؛ [٤]؛ [٣]؛ [٣٤]).

(ب) دراسته الأكاديمية

رُوي أن أفلاطون عاد إلى أثينا عام ٣٨٧ق.م. وقد بلغ الأربعين من العمر، وافتتح أكاديمية في جيمنازيوم تقع في الأحياء القريبة من أثينا، وظل رئيسًا لها عشرين عامًا، وقيل إنه علَّم هناك المواد التالية:

(أ) العلوم السياسية.
(ب) فن الحكم.
(ج) الرياضيات.
(د) الجدل.

وقيل كذلك إن المنهاج التعليمي ارتكز على المبادئ التعليمية، التي دعا إليها في كتابه الجمهورية ([٤٣]؛ [٥]، ص٦٨؛ [٤]، ص٧٢؛ [٣]، ص١٢٢، ١٢٣).

قيل إن الباحثين متنازعون بشأن كتاباته، ويشككون فيها

إذ هناك ٣٦ محاورة، وعدد من الرسائل، التي من المفترض أن أفلاطون كاتبها، ولكنها موضع تنازعٍ وشكٍّ من قِبَل الباحثين المحدثين.

(أ) يقرر جروت أن أفلاطون ألَّف فقط تلك المحاورات التي تحمل اسمه.
(ب) يقرر شارشميدت أن تسع محاورات فقط، من بين ٣٦، هي المحاورات الأصلية.
(ج) هذا بينما اعتبر أرسطو المحاورات الأفلاطونية عددها تسع، وهي: القوانين – طيماوس – فيدو – المائدة – فيدر – جورجياس – ثياتوس – فليبوس – الجمهورية؛ وهي المحاورات التي رأى أنها أصيلة.
(د) وعن المحاورات الباقية، وعددها ٢٧، يؤكد بعض الباحثين ضرورة إدراج المحاورات الشبابية ضمن المحاورات الأصلية، وهي الدفاع – كريتو – أنثيديموس – لاكيس – ليزيس – بروتاجوراس.
(هـ) وعن المحاورات الـ ٢١ الباقية، يرى الباحثون أن ما لم يكتبه أفلاطون منها لا بد وأن كتبها تلامذته (انظر [٥]، ص٦٨).

مبادئ أفلاطون

المبادئ المنسوبة إلى أفلاطون متناثرة في مساحة عريضة من الأدب؛ إذ نجدها مجزَّأة بين ثنايا ما عُرِف باسم المحاورات، ولكن نخص بالذكر منها:

(أ) نظرية المثل وتطبيقاتها على الظواهر الطبيعية، التي تشتمل على:

(١) الواقعي وغير الواقعي.
(٢) العقل الكوني.
(٣) الخلق.

(ب) المبادئ الأخلاقية، وتتناول:

(١) الخير الأسمى.
(٢) تعريف الفضيلة.
(٣) الفضائل الأساسية.

(جـ) مبدأ الدولة المثالية، أو المدينة الفاضلة، التي يقارن بين صفاتها وصفات النفس والعدالة. واتساقًا مع هذا الترتيب، نقول إن مبادئ أفلاطون كما يلي:

(أ) نظرية المثل

(أ) تعريف المثل، يمكن التعبير عن ذلك في ضوء القياس التالي: المثل الأعلى (محتفظًا بوحدته وعدم قابليته للتغيُّر وكماله)، هو العنصر الأول للحقيقة لأيٍّ من الموجودات.

(ب) المثل الأعلى مفهوم نعرف به الشيء، لذلك فإن المفهوم الذي نعرف به الشيء هو عنصر الواقعية في أي موجود.

(جـ) يلزم عن هذا أيضًا، حيث إن المفهوم، أو المثل الأعلى للشيء، واقعي إذن فإن الشيء المحسوس ذاته غير واقعي (انظر [٢١]، [٦٦]).

(ب) تطبيق نظرية المثل على الظواهر الطبيعية

تأسيسًا على تعريف المثل الأعلى، نصل إلى ثلاثة مبادئ:

(١) مبدأ الواقعي وغير الواقعي

إن الأشياء التي نراها من حولنا هي ظواهر الطبيعة، وتنتمي إلى العالم الأرضي، إنها مجرد نسخ Eidola تحاكي أصولها Paradeigmata وهي المُثل العليا، أو الشيء في ذاته القائم

في عالم السموات. والمُثل واقعية وكاملة، بينما الظواهر غير واقعية وناقصة. ووظيفة الفلسفة تمكين العقل من أن يعلو فوق تأمُّل النسخ المرئية التي تحاكي المُثل العليا، والتقدم بالمعرفة إلى المثل العليا ذاتها ([٦٦]، ص٢٥٠).

ولكن ثمة شيئًا مشتركًا بينهما؛ ذلك لأن الظواهر تشاطر المثل الأعلى. هذه المشاطرة هي محاكاة، بيد أنها ناقصة لأن الظواهر الطبيعية تقصر — بعيدًا جدًّا — دون المثل العليا (بارمينيديس ١٣٢؛ [٤٤]، ١، ٦، ٩٨٧ ب).

(٢) مبدأ العقل الكوني nous أو النفس العالمية

يعلمنا هذا المبدأ أن الكون حيوانات حية، وأنها تنعم بأكمل النفوس العاقلة. ذلك أن الله خلق العالم كاملًا بقدر ما تسمح به طبيعة المادة، وأنه — سبحانه — أنعم على العالم بنفس كاملة، وهذه النفس بمثابة وسيط بين المثل العليا والظواهر الطبيعية؛ وهي علة الحياة والحركة والنظام والمعرفة في الكون (انظر [٢١]، ص٣٠، ٣٥).

(٣) مبدأ الصانع الأول في الخلق Demiurgos

(الكوزمولوجيا أو نشوء الكون ونواميسه).

في أسطورة الخلق، الواردة في محاورة طيماوس، نجد مبدأ الخلق المنسوب إلى أفلاطون، وأنه هو مؤلفه كالآتي:

في البدء كان العماء الأول هو السائد بالضرورة، وفرض الله — المحرك أو الخالق — النظامَ بأن صور أو صاغ ظواهر المادة، حسب أصولها الأولى (أي المثل العليا) الخالدة في أكمل صورة، بقدر ما تسمح به المادة الناقصة. ثم خلق الأرباب، وأمرهم أن يصوروا جسم الإنسان، بينما صور الله — سبحانه — نفس الإنسان من نفس مادة روح العالم.

ونفس الإنسان مبدأ متحرك بذاته، ومسئول عن الحياة والحركة والوعي في الجسم (انظر [٢١]، أسطورة الخلق؛ [٣]، ص١٠٩–١١٠).

(ب) المبادئ الأخلاقية

المبادئ الأخلاقية المنسوبة إلى أفلاطون هي:

(١) مبدأ الخير الأسمى The Summum Bonum.

(٢) دلالة الفضيلة.
(٣) رد الفضائل إلى أربع، ومكانة الحكمة بينها.

(١) الخير الأسمى هو السعادة، باعتبارها أمرًا ذاتيًّا وخبرة دنيوية، ولكنه هو المثل الأعلى للخير، من حيث هو إنجاز موضوعي، ومن ثَم فإنه هنا يتطابق مع الله.

لذلك فإن غرض حياة الإنسان هو التحرر من أغلال البدن، سجن النفس، وممارسة الفضيلة والحكمة ليكون شبيهًا بالإله حتى وهو على الأرض.

(٢، ٣) الفضيلة هي نظام وصحة وتناغم النفس.

وهناك فضائل كثيرة، ولكن أعظمها قدرًا، الحكمة. ويمكن رد جميع الفضائل إلى أربع فضائل رئيسية: الحكمة – الجَلَد – الاعتدال – العدالة (انظر ٥٤، ٢٠٤؛ [٦٦]، ١٧٦؛ [٣٨]، ٦٤، [١١]، ف٤، ٤٤١–٤٤٣).

(ج) الدولة المثالية أو الدولة الفاضلة (الجمهورية)

المذهب المنسوب إلى أفلاطون في مجال علم التربية المدنية هو مذهب الدولة الفاضلة، التي تناظر صفاتها صفات النفس والعدالة.

يتعين أن تكون الفضيلة — في الدولة — هي الهدف الأساسي، وما لم يكن الفلاسفة حكامًا، أو يصبح الحكام — بفضل الدراسة — فلاسفة، ستظل المشاكل تترى؛ وتواجه الدولة والإنسانية بعامة دون انقطاع. والدولة الفاضلة هي على نموذج نفس الفرد وعادلة شأن النفس المؤلَّفة من ثلاث قوًى، كذلك يجب أن تتألف الدولة من ثلاث قوًى: الحكام، والمحاربون، والعمال (انظر [١١٠]).

ومثلما أن تناغم النفس رهن التحكم السديد في قواها، كذلك الدولة رهن التحكم السديد في أجزائها وقواها من أجل أن تحظى بالسلام.

هنا يقدم أفلاطون صورة مجازية لسائق العربة، ذات الجوادين المجنحين، لكي يصور لنا أن الفضيلة — بالنسبة للنفس — شأنها شأن العدالة، بالنسبة للدولة.

أحد الجوادين من أصل نبيل، بينما الآخر وضيع، ومن ثَم يتعذر التواؤم والتوافق بينهما؛ إذ بينما يناضل الجواد النبيل للصعود إلى طبقات السماء التي تلائم طبيعته، نجد الآخر يحاول جذبه إلى الأرض. كذلك الحال عند التعامل مع النفس، فإن الإخضاع السديد لقواها هو ما يمكِّن العنصر النبيل في الإنسان من بلوغ كماله. وكذلك الحال — أيضًا —

عند التعامل مع الدولة؛ فإن العدالة، أو الإخضاع الكامل للفئات المختلفة هو ما يجعلها دولة فاضلة (انظر [٤]، ص٨٣؛ [١١]).

(٢-١) موجز الاستنتاجات

(١) مبادئ أفلاطون تلفيقية، وتشير إلى منشئها الأصلي

إن مبدأ الواقعي وغير الواقعي، تعبيرًا عن المقارنة بين الظواهر الطبيعية والمثل العليا، ليس إلا مثالًا لتطبيق مبدأ الأضداد. هنا نجد جميع الموجودات — في عالمنا الأرضي — لها نماذج مطابقة لها في عالم السماء؛ وهنا تتطابق المثل العليا مع الوجود، بينما تتطابق الظواهر مع اللاوجود. ولكن مبدأ الأضداد يمكن تتبُّع جذوره، ليس فقط عند سقراط وديمقريطس وبارمينيديس، والفيثاغوريين، بل إلى أبعد من ذلك، حيث مصدره الأصلي، أعني نظام الأسرار المصري، حيث كان مبدأ الأضداد، لا تمثله — فقط — أزواج الآلهة — ذكورًا وإناثًا، على نحو ما نجد في أوزيريس وإيزيس — بل، وأيضًا، أزواج الأعمدة في واجهة جميع المعابد المصرية (انظر [٥٠]، ف٣، ص٢٥-٢٦، ٣٥؛ [٣١]، ١، ٦ – ٢٦؛ [٢٤]، ك١، ص٣٣٩؛ [٥٦]، ص٦٤، ٧٣، ٨٨؛ [٢]، ص٦١؛ [٣٨]).

(٢) مبدأ العقل الكوني nous أو نفس العالم، أحد مبادئ السحر في مصر القديمة

منسوب إلى أفلاطون القول بهذا المبدأ على سبيل التشبيه البلاغي، والذي يمثِّل فيه العالم بحيوان حي، وأنه مؤلَّف من نفوس، وإن إحداها كاملة ومسئولة عن الحياة والمعرفة بالنسبة للحيوان أو الكون.

وهذا المبدأ يمكن تتبُّع تاريخه، والرجوع به ليس فقط إلى:

(أ) ديمقريطس الذي بنى تعاليمه، عن الذرات النارية للنفس والمعرفة، على أساس مبدأ السحر عند المصريين: «أن كيفيات الحيوان موزعة في كل أنحاء جسمه» ([٥٧]؛ [٥٠]، ص٤٠).

بل وإلى (ب) أناكساجوراس الذي قيل عنه إنه قدَّم مفهوم العقل الكوني nous باعتباره مسئولًا عن خلق النظام من العماء البدائي، وأنه عقل كوني القدرة والمعرفة ([٣]، ص٦٣).

وأن مبدأ العقل الكوني نشأ في الواقع عن (ج) نظام الأسرار المصري الذي ارتبط بتمثيل الإله أوزيريس في جميع المعابد المصرية برمز العين المبصرة، وهو ما سبق أن أشرنا إليه.

والرمز هنا لا يدل على البصر فحسب، الذي تجاوز الزمان والمكان، أي البصيرة، بل يدل — أيضًا — على المعرفة الإلهية، التي تحيط بالكون كله باعتباره العقل الأعظم الذي خلق الكون، ولا يزال يهديه ويوجِّهه. ويشكِّل هذا الرمز — أيضًا — جزءًا من الزخارف التي تزين جميع المحافل الماسونية في العالم الحديث، والتي يرجع تاريخها إلى عبادة أوزير، أو الشمس، عند المصريين القدماء، منذ أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد. وهذه الفكرة — ذاتها — عبَّر عنها المصريون في صورة إله، له عيون تحيط به، وسمَّوه «العين المحيطة — علمًا — بكل الوجود» (انظر [٢]، ص٨٠٩؛ [١٢]، ص١٨٩؛ [٢٥]).

(٣) مبدأ الصانع الأول في الخلق

هذا المبدأ، الذي يقال إن أفلاطون صاحبه، لم يبدأ — على الإطلاق — على يدي أفلاطون، إنه لم يكن فقط مبدأ سائدًا، ومعروفًا في زمن أفلاطون؛ بل كان أيضًا ذائعًا بين بلدان الشرق القديم، ويعلمونه قبل هذا التاريخ بقرون عديدة (٤٢٧–٣٤٧ق.م.).

يروي التاريخ أن الفرس كانوا يعلمون هذا المبدأ منذ أكثر من ستة قرون ق.م. على يدي زعيمهم زرادشت، ويروي التاريخ — أيضًا — أن فيثاغورس (٥٠٠ق.م.) علَّم المبدأ ذاته، والذي عبَّر عنه بمصطلح «الجواهر الفردة» فالكون قوامه وحدتان أي:

(أ) الوحدة التي صدرت عنها متوالية الأعداد أو الموجودات، وهي وحدة مطلقة ومصدر الجميع، أي جوهر الجواهر الفردة أو رب الأرباب. و(ب) الواحد أي الأول في متوالية الأعداد أو الموجودات الناشئة، وهو مقابل الكثرة، ومحدود بها، ومن ثَم فإنه وحدة نسبية، أي أنه جوهر فرد مخلوق أو رب (دميورج Demiurge أو الصانع)، ومن ثَم فإن التضاد بين الواحد والكثرة هو مصدر كل ما عدا ذلك.

ويروي التاريخ، علاوة على هذا، أن مصر هي المصدر الأول لمبدأ الأول في الخلق أو الصانع الأول، ويرجع تاريخه إلى قصة الخلق في مصر منذ ٤٠٠٠ق.م. والتي نجدها ضمن فقه الإلهيات في مدرسة ممفيس (نقش على حجر محفوظ الآن في المتحف البريطاني). ويشتمل هذا النقش على آراء في فقه الإلهيات، وفي تفسير نشأة نواميس الكون (الكوزمولوجيا) عند المصريين القدماء، وهي آراء يرجع تاريخها إلى البدايات الأولى للتاريخ المصري وقتما شيدت الأسرات الأولى عاصمة جديدة لهم في ممفيس، مدينة الإله بتاح، أي منذ حوالي ٤٠٠٠ سنة أو يزيد.

ونظرية نشأة ونواميس الكون «الكوزمولوجيا» المصرية يجب أن نمثِّلها في ثلاثة أجزاء، كل جزء مكمل للآخر؛ الجزء ١ يتعلق بأرباب العماء البدائي، والجزء ٢ يتعلق بأرباب النظام والترتيب في الخلق، والجزء ٣ يتعلق بكبير الأرباب الذي أنجز الخَلق بفضل عقله الكوني Logos. وفي الجزء الأول نجد العماء البدائي، أو ما قبل الخلق يمثِّله (أ) بتاح كبير الأرباب خارجًا من محيط المياه الأزلي، (نون) في صورة تل أو الربوة أو الأرض المرتفعة. (ب) أتوم أو الشمس الإله الذي يواكب مباشرة الإله بتاح بالصدور — أيضًا — من بين محيط الماء الأزلي للعماء البدائي (نون) والتربع فوق التل.

(ج) يلي هذا وصف للكيفيات الأخرى في العماء البدائي: هناك أربعة أزواج من الأرباب الذكور والإناث في صورة ضفادع وحيات، وأسماؤها:

(١) نون ونونيت محيط الماء الأزلي والمادة الأزلية. (٢) هوه وهوهيت اللامتناهي واللامحدود. (٣) كوك وكوكيت أو الظلمة والغموض. (٤) آمون وآمونيت أو الخفي والمحجوب (انظر [٥٠]، ص١٠، ٢١؛ [٦٨]، ص١٠، ٢١، ٥٢).

وفي الجزء ٢ نجد عرض أرباب النظام والترتيب على النحو التالي:

أول زوج لأرباب ما قبل الخلق موجودان هما أنفسهما، أي الإله بتاح والتل البدائي، وهما فكر وكلمة جميع الأرباب، بمن فيهم الإله أتوم الذي استوى واستقر فوق بتاح.

إن أتوم تمثَّل فكر بتاح وقدرته الخالقة، وبعدها بدأ عمل الخلق. ويعين بفكره أسماء أربعة أزواج من أعضاء جسده، والتي تصبح — بدورها — أربابًا.

وبهذا يتم خلق ثمانية أرباب، وبذلك يؤلفون — في مجموعهم — مع أتوم نفسه تسعة أرباب من أسرة واحدة أو ألوهية موحدة تُسمى التاسوع.

ملحوظة

السحر مفتاح تفسير الديانات والفلسفة القديمة:

(أ) الجزء ٣ يحدِّثنا عن القوى المميزة للإله بتاح التي تمثَّلها الإله أتوم، ولكنه لم يحدثنا كيف تمثَّلها الإله.

(ب) الجزء ١ يحدِّثنا كيف حدث هذا؛ إذ يصف لنا حركة أتوم وقد ظهر من بين المحيط الأزلي، وقد استوى فوق بتاح (الأرض المرتفعة أو التل).

ولكنه لا يقدم لنا سببًا لحركة أتوم، وهو سلوك يمكن فهمه فقط إذا ما طبَّقنا عنده تفسيره دليل مبادئ السحر.

(ج) المبدأ الأساسي للسحر:

والآن ما هو المبدأ الأساسي للسحر المتضمن في سلوك أتوم؟ إنه ما يلي:

إن كيفيات أو صفات الموجودات البشرية أو الإلهية موزَّعة في كل أنحاء كياناتهم، وإن الاتصال أو التماس بين هذه الموجودات يُطلِق تلك الكيفيات.

(د) يبدو واضحًا الآن أنه حين تماس أتوم مع بتاح، تلقَّى أتوم — مباشرة — صفات بتاح، وهي الفكر الخالق والكلام والقدرة الكلية، وأصبح الأداة واللوجوس أو العقل والصانع الأول (Demiurge)؛ ومن ثَم أُنجِزت واكتملت من خلاله مهمة الخلق [٥٧].

(هـ) واضح — أيضًا، حسب فقه إلهيات مدرسة ممفيس — أن مبادئ وجود صانع أول Demiurge وأرباب مخلوقين نشأت — أصلًا — في الديانة المصرية ونظام الأسرار المصري، وليس عند أفلاطون الذي عاش من ٤٢٧ و٣٤٧ق.م. (انظر [٥٠]، ص٢٠، ٢٣).

ملحوظة

سوف نتناول فقه إلهيات ممفيس في فصل مستقل لبيان منشأ الفلسفة اليونانية.

(١) مبادئ. (أ) الخير الأسمى. (ب) الفضيلة. (ج) الفضائل الأساسية.

ملحوظة

هذه — حقًّا — أول نظرية عن الخلاص، وقد نشأت — أصلًا — مع نظم الأسرار المصرية، وليس على يد أفلاطون.

(أ) الهدف الرئيسي لنظم الأسرار المصرية — قديمًا — هو خلاص النفس الإنسانية؛ إذ كان المصريون القدماء يعتقدون أن جسم الإنسان سجن، تحيا في داخله النفس مقيدة بعشرة أغلال، وأن هذا الوضع لم يؤدِّ فقط إلى بقاء الإنسان منفصلًا عن الله؛ بل جعله خاضعًا لعجلة إعادة الميلاد أو إعادة التناسخ.

وابتغاء الهرب من هذا الوضع، يتعين على المريد المبتدئ أن يفي بشرطين:

(١) ضرورة الحفاظ على الوصايا العشر التي تعلمها في نظم الأسرار، إنه، بفضل الالتزام بهذا الانضباط، يمكنه الانتصار على أغلال النفس، وأن يحررها؛ وبذا ييسر لها تطورها.

(٢) وبذلك، يصبح مؤهلًا — بشكلٍ جيدٍ — ومستعدًّا — على نحو ملائم — للمضي في الطريق.

وهنا يتعين عليه أداء بعض الشعائر لكي يطور نفسه من المرحلة البشرية إلى مرحلة التشبُّه بالإله. وعرف هذا التحول باسم الخلاص؛ إنه يضع المريد المبتدئ في تناغم مع الطبيعة والإنسان والإله. إنه تأليه للإنسان بمعنى جعل الإنسان شبيهًا بالإله، وكان هذا الهدف إذا ما تحقق يُعرَف بالخير الأسمى.

وحسب نظرية الخلاص هذه، من المتوقع أن يجاهد المرء ابتغاء خلاصه، دون وسيط بينه وبين الله.

(ب) يعرِّف أفلاطون الفضيلة بأنها نظام أو انضباط النفس، ونحن نقبل هذا المعنى ما دام يتفق مع غرض الوصايا العشر لنظم الأسرار.

إن مبادئ الفضائل العشر والأغلال العشرة قديمة قِدم التاريخ المصري ذاته، وإن كل وصية أو مبدأ تنظيمي يمثِّل مبدأ لإحدى الفضائل، ومهمة كل فضيلة إزالة قيد من القيود. ومن ثَم فإن حياة الفضيلة مقدمة وتمهيد للخبرات التالية، أي الطقوس والشعائر التي تفضي إلى الكمال التدريجي، وإلى تأليه المريد أي تشبُّهه بالإله.

(ج) منسوب — أيضًا — إلى أفلاطون أنه اختزل جميع الفضائل وردَّها إلى أربع فضائل أساسية، وأنه اعتبر الحكمة أرفعها مكانة، حسب الترتيب التالي: الحكمة – الجلد – الاعتدال – العدالة.

وعرفنا — أيضًا من خلال تاريخ الفلسفة — أن سقراط معلم أفلاطون المزعوم كان يعلِّم أن الحكمة مكافئ لجميع الفضائل، وهذا التباين — في الرأي — بين التلميذ ومعلِّمه هام جدًّا؛ إذ يبرز أن كليهما قنعا بتأمُّل نظام أخلاقي كان سائدًا في العالم القديم، ولم يكن نتاج أي منها.

وهذا النظام الأخلاقي، كما ذكرنا آنفًا، خاص بنظام الأسرار المصري الذي يشترط على المريدين المبتدئين، الذين يتهيَّئون للانضمام، أن يلتزموا بهذه الوصايا العشر التالية التي تركز على عشرة مبادئ أساسية للفضيلة:

إذ يتعين على المريد المبتدئ أن:

(١) يسيطر على أفكاره.
(٢) يتحكم في أفعاله.
(٣) يتفانى لهدفه.
(٤) يؤمن بقدرة معلمه على تعليمه الحقيقة.
(٥) يثق في قدرته على استيعاب الحقيقة.

(٦) يثق في قدرته على تطويع الحقيقة.
(٧) التحرر من مشاعر الاستياء إذا ما عانى اضطهادًا.
(٨) التحرر من مشاعر الاستياء إذا ما وقع عليه خطأ.
(٩) غرس القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب.
(١٠) غرس القدرة على التمييز بين ما هو واقعي، وما هو غير واقعي؛ إذ يجب أن يتحلى بحسٍّ مميز يدرك به الفضائل.

إذا قارنَّا — الآن — بين النظام المبيَّن في الموجز السابق، ونظام الفضائل الأساسية التي قيل إنه تم ترتيبها، سندرك — على الفور — أن أولية مكانة الفضيلة بين الفضائل الأخرى إنما حددته لها نظم الأسرار المصرية وليس أفلاطون. وبناء على هذا، يمكن أن نستخلص فضيلة الحكمة من ١، ٢ اللذين يوصيان بالسيطرة على الأفكار والأفعال، ويمكن أن نستخلص فضيلة الجَلَد من ٦ التي توصي بالتحرر من مشاعر الاستياء عند الاضطهاد. ويمكن أن نستخلص فضيلتي العدالة والاعتدال من ٩، ١٠ اللذين يوحيان بالقدرة على التمييز بين الصواب والخطأ، وبين ما هو واقعي، وبين ما هو غير واقعي، (انظر [١١]، ف ٤، ص٤٤، ٤٤٣؛ [١٢]، ص٢٥، ١٠٩–١١٢؛ [٣]، ص١١٥؛ [٢] ص١٥٥–١٥٧).

(أ) مبدأ الدولة المثالية

فيما يتعلق بتأليف هذا المبدأ ومصدره الأول، ثمة استنتاجان: الأول، أن أفلاطون ليس مؤلف الجمهورية، والثاني أن الصورة المجازية لسائق العربة والجوادين المجنَّحين ليست من عند أفلاطون، وإنما مأخوذة عن كتاب الموتى المصري في روايته لمشهد يوم الحساب في الآخرة.

أما عن الاستنتاج الأول، فإنه يتعين — بالضرورة — أن نؤكد ما سبق أن قيل بشأن كتابات أفلاطون، وأن ثمة تنازعًا — في الرأي — بشأنها، ليس فقط من جانب الباحثين المحدثين من أمثال جروت، وشارشميدث، بل ومن جانب المؤرخين القدماء — أيضًا — من أمثال ديوجين لايريتس، وأرسطوخينوس، وفافورينوس (٨٠–١٥٠م)؛ إذ يصرح هؤلاء أن موضوع كتاب الجمهورية موجود في كتاب المناظرات تأليف بروتاجوراس (٤٨١–٤١١ق.م.) وقد كان أفلاطون لا يزال صبيًّا وقت وفاته.

علاوة على هذا، فإن القول بأن أفلاطون هو المؤلف إنما يعتمد — فقط — على آراء أرسطو وثيوفراستوس، وكلاهما استهدفا تصنيف الفلسفة اليونانية تأسيسًا على مادة مصرية (انظر[٣٤]، ص٣١١، ٣٢٧؛ [٤٤] ك١؛ [٢]، ص٨ من المقدمة، وص١٣؛ [٣]، ٩٥).

وفيما يتعلق بالاستنتاج الثاني يتعين الإشارة إلى أن الصورة المجازية عن «سائق العربة والجوادين المجنحين»، هي وصف لخاصية النفس ومصيرها، على نحو ما تظهر في ساحة العدالة خلال مشهد يوم الحساب في الآخرة، في كتاب الموتى المصري القديم. ففي هذه الدراما نجد بيثيمبامنتيس أو أوزيريس رئيس العدالة الأعظم ورئيس العالم غير المرئي مستويًا على العرش، وفي رفقته كلا من إيزيس ونفتيس، بينما جلس من حوله ٤٢ قاضيًا مساعدًا.

وثمة بالقرب من أوزيريس أربعة من الأرواح الحارسة أو أقران أمينتي العالَم غير المرئي، تمثِّلهم أوانٍ فخارية قصيرة معروفة باسم كانوبي، والتي يحتَفظ فيها بأحشاء المرء محنَّطة باعتبارها رمزًا لسجايا الفرد الأخلاقية المكنونة، والمعروف أن الأحشاء لها رابطة هامة جدًّا بالسجايا الأخلاقية للفرد؛ إذ يقع عليها اللوم بسبب أي خطيئة يقترفها المرء، وعلى الطرف المقابل حورس يقدم الميت، بينما ينتصب في وسط الساحة ميزان العدالة الذي أقامه الإله أنوبيس. ويظهر على أحد جانبي الميزان إناء يشبه القلب، بداخله السجايا الأخلاقية للميت، بينما على الجانب الآخر من الميزان صورة إلهة الحقيقة، ويمسك توت الكاتب لفافة من ورق البردي، وهو واقف قرب الميزان يسجل عملية الوزن. وبعد أن تكتمل هذه العملية يتلقى حورس السجل من توت، ويتقدم نحو أوزيريس ليطلعه على النتائج. ينصت إليه أوزيريس، وعند نهاية التقرير ينطق الحكم بالثواب أو العقاب، وفي هذه الأثناء، تكمن وحوش مروعة متربصة حول الساحة للفتك بالنفس، إذا كان الحكم ضدها.

وحري بنا أن نلاحظ ما يلي:

(١) حركة ميزان مشهد يوم الحساب تتطابق مع حركة الجوادين المجنَّحين، صعودًا وهبوطًا في الصورة المجازية.

(٢) الكيفيات المناقضة التي تم وزنها على الميزان تتطابق مع الكيفيات المناقضة التي لدى الجوادين النبيل والخسيس، في الصورة المجازية.

(٣) مثال العدالة الذي يرمز إليه ميزان مشهد يوم الحساب يتطابق مع فكرة العدالة التي رسمتها الصورة المجازية.

(٤) الجوادان المجنَّحان يتطابقان مع الوحوش الممسوخة المروعة في مشهد يوم الحساب.

(ب) تأليف كتاب الجمهورية

حسب ما ورد في الكتاب الثالث من كتاب ديوجين لايرتيوس ص٣١٠، ص٣٢٧، يؤكد كلٌّ من أرسطوخينوس وفافورينوس أن كل موضوع كتاب الجمهورية — لأفلاطون — موجود برمته — تقريبًا — في مناظرات بروتاجوراس. زِد على ذلك، يوضح روجر في كتابه تاريخ الفلسفة للطلاب، ص٧٨، أن أفلاطون وإن كان قد اعتمد اعتمادًا كبيرًا على ذكريات سقراط الذي استمع إلى محاضراته إلا أن موضوع كتاب الجمهورية يمثل مذهبًا في الفلسفة اعتمد على قدرٍ من الاستدلال العقلي يفوق كثيرًا، بحيث لا يمكن أن نعزوه بسهولة إلى سقراط، وإن الكتاب — بأكمله — حجة متراكبة اشتملت على آراء متشابكة، في حذق وبراعة، تتناول — تقريبًا — كل موضوع له أهمية فلسفية.

ومن الواضح أن الدراسات الحديثة تشك في أن أفلاطون استمد موضوع كتاب الجمهورية من سقراط، وتميل إلى أن تنسب تأليف الكتاب إلى أفلاطون نفسه، ولكننا، إذا ما وضعنا في الحسبان حقيقة أن موضوع كتاب الجمهورية كان ذائعًا قبل أفلاطون بزمن طويل؛ إذ من المفترض أن بروتاجوراس عاش من ٤٨١–٤١١ق.م، بينما عاش أفلاطون من ٤٢٧–٣٤٧ق.م. فإن العقل يحُول دون أن نعزو تأليف الكتاب إلى أفلاطون.

ولكن يظل السؤال الهام باقيًا: من أي مصدر استقى بروتاجوراس أفكار كتاب الجمهورية المتداوَلة في المناظرات؟

تُحدِّثنا مراجع كتب الفلسفة اليونانية عن أن بروتاجوراس كان تلميذًا لديمقريطس، ولكن، إذا ما التفتنا إلى كتابات ديمقريطس لن نستطيع اكتشاف أي رابطة بينها وبين: (أ) النظام التعليمي. (ب) الحكم الأبوي الذي يدعو له كتاب الجمهورية. هذه الحقيقة تدفعنا إلى استنتاج أن موضوع كتاب الجمهورية لأفلاطون لم يكن صاحبه أفلاطون، ولا أي فيلسوف يوناني آخر.

(ج) تأليف محاورة طيماوس

حسبما جاء — أيضًا — في الكتاب الثامن لديوجين لايرتيوس، ص٣٩٩–٤٠١، نعرف أن أفلاطون حين زار ديونسيوس — في صقلية — دفع لفيلولاوس وهوفيثاغوري ٤٠ مينا إسكندريًّا من الفضة مقابل كتاب، نسخَ منه كل محتويات محاورة طيماوس.

ويبدو واضحًا، في ضوء هذه الظروف، أن أفلاطون لم يؤلف لا كتاب الجمهورية ولا محاورة طيماوس اللذين يتطابق موضوعاهما مع هدف نظم الأسرار المصرية (انظر [٤]، ص٧٦، ٧٨، ١٠٤؛ [٢]، ص١٣، ١٠٣؛ [٣] ص٧٩، ٩٥؛ [١٩]؛ [٦١]؛ [٣٨]؛ [٥٢]؛ [٩]؛ [١٢]؛ [٦٤]).

(٦) لم تكن العربة نمطًا ثقافيًّا عن اليونانيين القدماء في زمن أفلاطون، ولم يكونوا يستخدمونها في شئون الحرب.

الثقافة والتراث اليونانيان لم يزوِّدا أفلاطون بفكرة العربة ذات الجوادين المجنحين؛ ذلك لأننا لا نجد في تاريخ اليونان العسكري القصير (حتى زمن أفلاطون) أي استخدام لمثل هذا الآلة الحربية من قِبَل اليونانيين.

إن الأمة الوحيدة المجاورة لليونان، والتي تخصَّصت في صناعة العربات وتربية الخيول هم المصريون. فعندما كان يوسف وزيرًا في مصر كانت مصر تستخدم الحصان والعربة الحربية، وعندما لاذ الإسرائيليون بالفرار من البلاد تعقَّبهم فرعون حتى البحر الأحمر في عربات حربية. وأكثر من هذا، أن هومير وديودور اللذين زارا مصر يشهدان بأنهما رأيا أعدادًا كبيرة جدًّا من العربات الحربية، والعديد من الإسطبلات، على طول ضفتي النيل من ممفيس وحتى طيبة.

وحيث إن مشهد يوم الحساب، في كتاب الموتى المصري القديم، يكشف عن كل الفلسفة المتضمنة في الصورة المجازية؛ فإننا — لذلك — لا يمكن أن نقول إن أفلاطون هو مؤلفها.

ويبين العرض الموجز التالي لتاريخ اليونان أن العربة الحربية لم تكن مستخدمة عندهم، ولا كانت ضمن ثقافتهم:

(أ) الحروب الخارجية أو الحروب ضد الفرس

(١) ثورة الأيونيين ضد الحكم الفارسي ٤٩٩–٤٩٤ق.م. بلغت ذروتها في اشتباك بحري عند ليد، حيث مُني الأسطول الأيوني بالهزيمة.

(٢) معركة خليج ماراثون ٤٩٠ق.م.

في صيف ٤٩٠ق.م. التقى الإغريق والفرس عند خليج ماراثون، وبعد قتال قصير بالأقواس والسهام انسحب الفريقان المتحاربان إلى حين الاستعداد لاشتباكات أكثر حسمًا.

(٣) معركة ثيرموبيلاي ٤٨٠ق.م.

بعد مرور عشر سنوات على معركة خليج ماراثون التقى الفرس والإغريق — مرة ثانية — لحسم مشاكلهما. رسا الأسطول الفارسي في خليج باجاساي بينما رسا الأسطول اليوناني قرب رأس أرتيميزيوم، ودارت معركة سقطت بعدها ثيرموبيلاي في أيدي الفرس.

(٤) معركة سالاميس. عند سالاميس عام ٤٧٩ق.م. التقى الفرس والإغريق مرة ثانية، ووقع اشتباك بحري مُني فيه الطرفان بخسائر فادحة في السفن، وانسحب الجانبان المتحاربان دون حسم المعركة لصالح أي منهما.

(٥) حلف ديلوس وحروبهم مع الفرس ٤٧٨–٤٤٨ق.م.

استهدف الحلف الدفاع ضد العدوان الفارسي، ودارت معركتان بريَّتان: إحداهما عند نهر بورميدون في تمام ٤٦٧ق.م. حقق خلالها اليونانيون نصرًا متواضعًا، ودارت الأخرى عند قبرص عام ٤٤٩ق.م. وقتما كانت في أيدي الفرس:

ملحوظة

لم تُستخدم العربات الحربية في أي من هذه الاشتباكات.

(ب) الحروب الداخلية أي حروب البليبونيز

٤٦٠–٤٤٥ق.م. و٤٣١–٤٢١ق.م.

هذه الحروب خاضتها الدول-المدينة اليونانية المختلفة، وكانت أهم الاشتباكات هي اشتباكات بحرية.

في عام ٤٣٢ق.م. حاصر الأثينيون بوتيدايا؛ واستبعدت ميجارا من الأسواق اليونانية. وفي عام ٤٣١ق.م. هاجمت طِيبة بلاتايا، وبينما كان جيش البليبونيز يحتل أتيكا؛ شنَّ أسطول أثيني غارة ضد بيلوبونيسوس.

أشرف بريكليس على عملية إجلاء أتيكا، وذبح أعضاء حكومة كورسيرا، وعقب الاستيلاء على أمنيبوليس توسَّل نيكياس لعقد سلم عام ٤٢٢ق.م.

ملحوظة

واضح أن ثقافة الإغريق الاجتماعية وتراثهم لم يزودا أفلاطون بفكرة سائق العربة والجوادين المجنحين؛ إذ لا نجد في تاريخهم العسكري القصير (أي حتى وقت أفلاطون) أي ذكر بأن اليونانيين استخدموا آلة حرب تُسمَّى العربة الحربية. ونعرف أن مصر هي البلد الوحيد المجاور الذي تخصص في صناعة العربات الحربية، وفي تربية الخيل على نحو ما أسلفنا.

وحيث إن مشهد يوم الحساب في الآخرة، الوارد في كتاب الموتى عند المصريين القدماء، يعرض صورة مجازية لسائق العربة والجوادين المجنَّحين؛ فإننا لا ننسب تأليف القصة إلى أفلاطون، بل إلى المصريين (انظر [١]، ف١٢، ص١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٥، ف١٣، ص٢٢٠-٢٢١؛ [٦٩]، إصحاح ٤٥، ٢٧، ٤٧، ١٧؛ [٧٠]، ف٢، ص٣٨١؛ [٧]؛ [٤]، ص٨٣-٨٤؛ [٢٤] ج١، ص١٦٦؛ [٧]).

(٣) أرسطو

(١/أ) حياته الباكرة وثقافته.
(ب) قائمة كتبه كما كتبها هو.
(جـ) قوائم أخرى بكتبه.
(٢) المبادئ.
(٣) موجز الاستنتاجات.

- مبادئه.
- مكتبة الإسكندرية.
- المصدر الحقيقي لكتبه بأعدادها الضخمة غير المألوفة.
- تناقضات وشكوك في حياته.

(أ) الميلاد وحياته الباكرة وثقافته

حسب مراجع تاريخ الفلسفة اليونانية، وُلِد أرسطو عام ٣٨٤ق.م. في «ستاجيرا» إحدى مدن تراقيا. وقيل إن أباه نيوماخوس عمل طبيبًا لملك مقدونيا أمينتاس. ولا تذكر الكتب

شيئًا عن تعليمه في حياته الباكرة، وكل ما قيل إنه أصبح يتيمًا، وإنه ذهب إلى أثينا وعمره ١٩ عامًا، حيث قضى ٢٠ سنة تلميذًا على يدي أفلاطون.

وقيل — أيضًا — إنه بعد وفاة أفلاطون، ابن أخته، أصبح معلم مدرسته، وأن أرسطو سافر مباشرة إلى ميسيا حيث التقى ابنة أخته هيرميا، وتزوج بها.

وبعد وفاة أمينتاس — ملك مقدونيا — سار ابنه فيليب على سنة أبيه، واتخذ أرسطو معلمًا لابنه الإسكندر، وهو لا يزال صبيًّا في الثامنة عشرة من العمر (والذي عُرِف فيما بعد باسم الإسكندر الأكبر نتيجة غزوه مصر).

وعقب اغتيال الملك فيليب — عام ٣٣٦ق.م. — أصبح الإسكندر ملكًا، وقيل إنه — على الفور — شرع يخطط لحملة آسيوية شملت مصر، وقيل إن أرسطو — أثناء ذلك — عاد إلى أثينا وأسس مدرسة في جيمنازيوم كانت تسمى لوكيوم. وعرفنا — زيادة على ذلك — أن أرسطو تولى إدارة هذه المدرسة لمدة اثني عشر عامًا فقط، وأن الإسكندر الأكبر قدم له الأموال اللازمة لشراء عدد كبير من الكتب، وأن تلامذته أصبحوا يُسَمون المشائين. وعرفنا — أيضًا — أن كاهنًا، يُدعى أيوريميدون، اتهمه بالفسوق مما اضطر أرسطو، بسبب ذلك، إلى الفرار من أثينا إلى كالكيس في إيوبويا، حيث بقي في منفاه إلى أن وافته المنية عام ٣٢٢ق.م. (انظر [٤]، ص١٠٤؛ [٢]، ص١٧١-١٧٢؛ [٤٣] حياة أرسطو؛ [٥]، ص٩١-٩٢؛ [٣٤]، ك٥، ص٤٤٩).

(ب) قائمة كتبه كما كتبها هو

يُعزى إلى أرسطو أنه صنَّف كتبه على النحو التالي:

(١) النظري، وموضوعه الحقيقة، ويشتمل على:

(أ) الرياضيات.
(ب) الطبيعيات.
(ج) الإلهيات.

(٢) العملي، وموضوعه ما هو مفيد، ويشتمل على:

(أ) الأخلاق.
(ب) الاقتصاد.
(ج) السياسة.

(٣) المنتج أو الشعري، وموضوعه الجميل، ويشتمل على:

(أ) الشعر.
(ب) الفن.
(ج) الخطابة.

ملحوظة

لم تتضمن هذه القائمة المنطق والميتافيزيقا.
(انظر [٥]، ص٩٢).

(ج) قوائم أخرى بكتبه

ثمة قائمتان بالكتب وصلت إلى العصر الحديث من مصادر سكندرية وعربية.

(١) القائمة الأقدم، مأخوذة من هيرمبوس السكندري (٢٠٠ق.م.) والذي قدَّر عدد كتب أرسطو٤٠٠ عنوان. ويؤكد تسلر في كتابه «تاريخ الفلسفة» أن هذا العدد لا بد وأنه كان في مكتبة الإسكندرية وقت تصنيف القائمة ما دامت لم تتضمن الأعمال التي قيل إنها من تأليف أرسطو.

(٢) القائمة الأخرى مأخوذة عن مصادر عربية، وجمعها بطليموس في القرن الأول أو الثاني الميلادي، وتتضمن هذه القائمة أغلب الأعمال الواردة في المجموعة الحديثة، ويصل مجموعها إلى ألف كتاب (انظر [٢]، ص١٧٢-١٧٣؛ [٥]، ص٩٢-٩٣).

مبادئ أرسطو

(١) الميتافيزيقا أو المبادئ الأساسية في مجال ما بعد الطبيعة

(أ) يعرِّف أرسطو الميتافيزيقا بأنها علم الوجود من حيث هو وجود.
(ب) يحدد كيفيات الوجود بأنها:

(١) الوجود بالفعل «إنتلخيا» أي الكمال.
(٢) الوجود بالقوة: أي الاستعداد للكمال.

(ج) يؤكد أن جميع الموجودات تشتمل على حالتيْ الوجود بالفعل والوجود بالقوة، وهذان المبدآن موجودان ومتمازجان في جميع الموجودات ما عدا واحدًا، وجوده فعل أو تحقق محض، وقوامه مؤلف من:

(١) مادة وصورة.
(٢) جوهر وعرض.
(٣) النفس وملكاتها.
(٤) عقل مقال وعقل منفعل.

(٢) مبادئ الوجود في عالم الطبيعيات

ثمة مبادئ أربعة للوجود في عالم الطبيعة، والتي يسميها العلل:

(١) المادة أو العلة المادية، وهي الإمكان أو الاستعداد للوجود، وهي ما يُصنَع منها الوجود.
(٢) الصورة أو الماهية أو العلة الصورية، علة تحقق الوجود بالفعل. إنها ذلك الذي يصاغ فيه الوجود. وحين تتحد المادة مع الصورة ينتج عنهما وجود منتظم أو متحقق في الواقع، والذي يصدر إلى الوجود في عمليات الطبيعة.
(٣) العلة الغائية، وهي الغاية التي يوجد من أجلها كل شيء، فكل موجود له غرض وُجِد من أجله، وهذا الغرض هو علته الغائية، وتنطوي العلة الغائية — دائمًا — على عقل أو ذكاء؛ بيد أن هذا ليس صحيحًا دائمًا في حالة العلة الكافية.

بناءً عليه، فكل موجود أو كل كائن عضوي حي، في مملكة الطبيعة، هو ناتج معقد لعللٍ أربعة:

(١) الجوهر الذي منه يُصنَع الموجود (أي العلة المادية).
(٢) النمط أو المثل، والذي ينزع الجنين إلى التطور وفقًا له (أي العلة الصورية).
(٣) عملية الخلق أو التولُّد أو النشوء (أي العلة الكافية).
(٤) الغرض أو الغاية، التي من أجلها خلق الكائن الحي (أي العلة الغائية)، أو لنقل — بعبارة أخرى — إن المادة والنمط والخلق والغرض هي المبادئ الأساسية الأربعة لكل

الموجودات (انظر [٥]، ص٩٧–١٠٠؛ [٤٤]، ١، ٣؛ [٣]، ص١٣٦، ١٤٠؛ [٧٢] ص٨٠، ٨٤).

(٣) مبادئه عن وجود الله

(أ) على الرغم من أن الحركة أبدية، إلا أنه لا يمكن أن تكون هناك سلسلة لا متناهية من القوى المحرِّكة والقوى المتحركة؛ لذلك لا بد وأن يكون هناك الواحد أو الأول في هذه السلسلة، وهو غير متحرك. أعني لا بد من وجود المحرك غير المتحرك أو المحرك الأول.

(ب) الموجود بالفعل سابق على الموجود بالقوة؛ ذلك لأنه، وإن كان الأخير من حيث الظهور إلى الوجود، إلا أنه الأول من حيث الطبيعة، لذلك لا بد وأن الوجود بالفعل كان موجودًا قبل كل مادة، وقبل تآلف الموجود بالفعل مع الموجود بالقوة. ومن ثَم فإن الوجود بالفعل هو علة جميع الأشياء الموجودة. وحيث إنه وجود فعلي محض فإن حياته — بالضرورة — خلو من كل الشروط المادية. إنه فكر الفكر، أو الروح المطلق القائم في سلامٍ أبدي وبهجة ذاتية، ويعرف نفسه، وهو حقيقة مطلقة، ثم إنه بغير حاجة إلى فعل أو إلى فضيلة.

(ج) الله واحد؛ لأن المادة هي أساس الكثرة، والعقل الأول بريء من كل الظروف المادية، وحياته فكر تأملي، وإن التدبير والإرادة لا يشبهان — في شيء — الراحة الأبدية التي يقيم فيها؛ فالله غير معني بالعالم.

(٤) مبدؤه عن نشأة العالم

العالم خالد لخلود المادة والحركة والزمان.

(٥) مبدؤه عن الطبيعة

الطبيعة هي كل ما تأسس على الحركة من السكون، إنها تلقائية، أو تحدد ذاتها من داخلها. الطبيعة لا تفعل شيئًا عبثًا، ولكن حسب قانون محدد. إنها تكابد دائمًا من أجل الأفضل، حسب خطة للنمو والتطور، والتي لا يعيقها شيء سوى المادة فقط، واتجاه مكابدة الطبيعة، من الأقل كمالًا إلى الأكثر كمالًا.

(٦) مبدؤه عن الكون

العالم شبه كرة؛ دائري، وشكله على أكمل صورة. والسماء المكونة من أثير في موضع يجعلها على اتصال مباشر بالعلة الأولى. والنجوم، وهي خالدة، تأتي في المرتبة التالية لها. والكرة الأرضية في الوسط، وهي في أبعد نقطة بالنسبة إلى المحرك الأول، وأقل نصيبًا — من حيث المشاركة — في الألوهية (انظر [٣]، ص١٤١–١٤٣؛ [٥]، ص١٠٢-١٠٣؛ [٢]، ص٢٢١؛ [٤] ص١٠٩؛ [٧٣] ج٢، ١، ح٤؛ [٥]، ص١٠٤).

(٧) مبدؤه عن النفس

النفس ليست مجرد تناغم الجسد أو امتزاج الأضداد، إنها ليست العناصر الأربعة ولا مركب منها، ذلك لأنها تعلو جميع الشروط المادية.

والنفس والجسم ليسا شيئين متمايزين، ولكنهما وجهان مختلفان لواحدٍ، أي مثل علاقة الصورة بالمادة.

النفس هي القوة التي يمتلكها الجسم الحي، وهي الغاية، التي من أجلها يوجد الجسم، أي هي العلة الغائية لوجودها.

وبينما تكون النفس، وهي المبدأ الجذري للحياة، واحدًا، إلا أن لها ملكات متعددة، هذه الملكات هي: (١) الحسية (٢) العقلانية (٣) الغذوية (٤) الشهوية (٥) الحركية.

ومَلَكتا الحس والعقل، هما الأهم — شأنًا — من بين هذه الملكات. فالحس هو المَلَكة التي ندرك بها صورة الموجودات الحسية، تمامًا مثل الطبعة بواسطة الخاتم؛ والمعرفة العقلانية هي المَلَكة التي نكتسب بها المعرفة الذهنية، إنها موطن الأفكار فقط، ولكنها لا تخلقها؛ حيث المعرفة تأتي عن طريق الحواس (انظر [٥]، ص١٠٥، ١٠٦؛ [٣]، ص١٤٧–١٥٣؛ [٢]، ص٢٠١–٢٠٤).

(٣) موجز الاستنتاجات

(أ) مبادئه

(١) مبدأ الوجود:

يعلن أن صفات الوجود:

(أ) التحقق أو الوجود بالفعل بمعنى المبدأ المحدد.

(ب) الوجود بالقوة أو المبدأ غير المحدد: إذ حاول أرسطو بذلك تفسير الواقع في ضوء مبدأ الأضداد.

غير أن هذا المبدأ لم يستخدمه فقط الفيثاغوريون وبارمينيديس وديمقريطس بنفس الطريقة؛ بل استخدمه — أيضًا — سقراط في محاولة للبرهنة على خلود النفس، كما استخدمه أفلاطون الذي رأى الحقيقة هي مفهومنا عن الأشياء في تمايزها عن الأشياء ذاتها: الوجود في ذاته أو الجوهر الباطن متمايزًا عن الظاهر؛ أو لنقل الواقع في تمايزه عن غير الواقعي.

ولكن مبدأ الأضداد نشأ — أصلًا — في نظام الأسرار المصري الذي رأى الأرباب أزواجًا، ذكورًا وإناثًا، وتميزت المعابد بوجود أزواج من الأعمدة عند الواجهة كرمز لمبدأ الأضداد؛ وبذا يتضح أن أرسطو لم يكن هو صاحب هذا المبدأ، بل المصريين (انظر [٤٤]؛ [٣٨]؛ [٧٤]؛ [٥٠]، ص٦٤، ٧٣، ٨٨).

(٢) وجود الله:

أ- المفهوم الغائي لم يعتنقه فقط سقراط وأفلاطون وأرسطو، بل كان عقيدة الشعوب منذ أقدم العصور، فإذا طالعنا روايات الإصحاح الأول من سفر التكوين، أو طالعنا فقه إلهيات مدرسة ممفيس، وهما موجودان في الفصلين ٢٠، ٢٣ من كتاب فرانكفورت وعنوانه «الديانة المصرية القديمة» نجد أن الخلق بدأ بعملية تحول من العماء البدائي إلى النظام، حسب خطوات محددة وتدريجية، تكشف عن تخطيط وغرض في الطبيعة، مما يوحي أن هذا — بالضرورة — عمل عقل إلهي، وتاريخ هذه النصوص يعود بنا إلى عصور ضاربة في القِدم قبل أرسطو بقرون طويلة، فيما بين ٢٠٠٠ و٥٠٠٠ق.م.

ورُوي — أيضًا — أنه، بالإضافة إلى المفهوم الغائي، قدَّم أرسطو مفهوم «المحرك غير المتحرك» دليلًا يثبت به وجود الله. غير أن مفهوم «المحرك غير المتحرك» ليس شيئًا آخر غير أتوم في فقه إلهيات مدرسة ممفيس عند قدماء المصريين، أو الصانع الأول Demiurgo الذي خلق بكلمة اللوجوس Logos منه أربعة أزواج من الآلهة، وقد خلقها من أعضاء مختلفة من جسده سبحانه، وتحركت خارجة منه. وتمت عملية الخلق هذه بينما ظل أتوم ثابتًا لا يتحرك، وهو يعانق بتاح، وهكذا اكتمل خلق تسعة آلهة وسُمُّوا التاسوع. ويبدو — واضحًا تمامًا — أن مفهوم «المحرك غير المتحرك» مستمر من فقه إلهيات مدرسة ممفيس أو نظام الأسرار المصري القديم، وليس من أرسطو، على نحو ما ذهب الظن في العالم الحديث.

ملحوظة

يمكن أن نذكر، بطريقة عارضة، وإن كان هذا لا يقلل من أهمية الموضوع، أن قصة الخلق هذه، التي توضح كيف خلق أتوم، أو إله الشمس، بقية الأرباب ليؤلف عائلة ربوبية من تسعة آلهة يُسمون التاسوع، إنما تشير إلى المصدر الرئيسي لفرضيْن علميين هامين في العصر الحديث.

(١) القول بوجود تسعة كواكب كبرى.
(٢) والشمس هي الأب بالنسبة للكواكب الأخرى (وقد وجد هذا التصور دعمًا من الفرض السديمي القائل إن النظام الشمسي ناشئ عن سديم غازي).

(أ) إن عبادة الكواكب بدأت في مصر.
(ب) وإن المعابد المصرية كانت أول مراصد فلكية في التاريخ.
(ج) في محاولة إثبات وجود الله أو علة أولى بالإشارة إلى الوجود بالقوة، والوجود بالفعل، إنما اتَّبع أرسطو — ببساطة — العرف التقليدي عند القدماء، الذين استخدموا مبدأ الأضداد لتفسير وظائف الطبيعة.
(د) استخدم أفلاطون هذا المبدأ من خلال نظرية المثل ليفسر الواقعي وغير الواقعي في ظواهر الطبيعة.
(هـ) واستخدمه سقراط ليؤكد فكرة الخلود، حين قال إن موت إحدى صور حياة الموجودات ليس إلا بداية لصورة أخرى لحياتها، أو لنقل، بعبارة أخرى، إن الحياة خالدة، وإن التغير هو تغير يطرأ فقط على الشكل في مساره المرحلي.

وطبَّق ديمقريطس مبدأ الأضداد في تفسير حالة خاصة من حالات الواقع، ومن ثَم لا يمكن اعتبار استخدام أرسطو لمصطلحي القوة والفعل — في مشكلة وجود الله — منهجًا جديدًا في التفسير.

علاوة على هذا، فإن استعراض أرسطو لمبادئ جميع الفلاسفة السابقين عليه، بمن فيهم أفلاطون، وكذلك فضحه لأخطائهم وتهافتهم؛ إنما يبين أنه أصبح واثقًا، ليس فقط من أنه حائز على معارف جديدة صحيحة لم تكن متاحة لمن سبقه من اليونانيين، وإنما متأكد — أيضًا — من أنه أصبح قادرًا على أن يتكلم عن ثقة كبيرة وسلطان معرفي. وأجد لزامًا عليَّ — هنا — أن أؤكد اقتناعي بأن أرسطو يمثِّل هوة ثقافية مداها خمسة

آلاف عام، أو أكثر، بين إبداعه، وبين مستوى حضارة اليونان القديمة؛ إذ يستحيل عليه الإفلات من الإيمان الراسخ بأنه اكتسب تعليمه وكتبه من أمة غير اليونان، أعني المصريين الذين كانوا متقدمين، في ثقافتهم، بمسافة كبيرة عن اليونانيين في عصرهم (انظر [٥٠]؛ [٧٥]؛ [٣١]، ك١، ص٦–٢٦؛ [٧٦] ص٦٤، ٧٣، ٨٨؛ [٣٨]؛ [٢]، ص٦١؛ [٥٥]؛ [٢]، ص٢٢١؛ [٣]، ص١٤١–١٤٣؛ [٥]، ص١٠٢-١٠٣؛ [٥]، ص٩٢، ٩٣؛ [٤]، ص١٠٤؛ [٣]، ص١٢٦-١٢٧، ١٣٥؛ [٢]، ص١٧١–١٧٣).

(٣) مبدأ أصل العالم:

يقضي المبدأ المنسوب إلى أرسطو أن أبدية المادة والحركة والزمان يعني — أيضًا — أبدية العالم، ويقرر ويكرر مبدأ منسوبًا — أيضًا — إلى ديمقريطس (٤٠٠ق.م.)، وهو اعتقاد مألوف لدينا عنه؛ إذ يقول «لا شيء يصدر عن العدم»، ومن ثَم فإن المادة، أو العالم، كان موجودًا — دائمًا — بالضرورة.

بيد أن قِدم مبدأ أبدية طبيعة المادة يعود بنا إلى قصة الخلق في فقه إلهيات مدرسة ممفيس عند المصريين القدماء، التي تقول إن العماء البدائي يمثِّله محيط الماء الأزلي نون، والذي خرج منه التل الأزلي تا-تجينين Ta-Tjenen، وفي ضوء هذه الظروف لا يمكن أن نعطي أرسطو مصداقية تأليفه لهذا المبدأ.

وعلاوة على زيف الادعاء بأن أرسطو هو صاحب هذا المبدأ، فإنه يناقض نفسه في كتابه «الطبيعيات» جـ ٨ حين يتحدث أيضًا عن العالم باعتباره معلولًا؛ إذ لا يمكن أن يكون الشيء أبديًّا ولا نهائيًّا، ويكون في الوقت — ذاته — متناهيًا (انظر [٥٠]، ص٢٠؛ [٦٨]، ص١٠، ٢١، ٥٢).

(٤) مبدأ صفات الطبيعة:

يعرِّف أرسطو الطبيعة بأنها ذلك الذي ينطبق عليه مبدأ الحركة والسكون، ويضيف — أيضًا — أن الحركة جهد للتحرك مما هو أقل كمالًا إلى ما هو أكثر كمالًا، حسب قانون محدد، مثل ما نقوله اليوم باسم قانون التطور.

إذا دققنا في هذا التعريف، نجد أن أرسطو طبَّق فقط مبدأ الأضداد ليفسر أحد الأنماط التي تتجلى فيها الطبيعة، وهو يفعل هنا — تمامًا — ما فعله في محاولته تفسير الوجود في ضوء مصطلحي القوة والفعل.

بيد أن التغير والحركة، الدوام والسكون، لم تكن — بحال من الأحوال — مشكلات جديدة على زمن أرسطو؛ إذ سبق بحثها، ليس فقط على أيدي بارمينيديس، وزينو،

وملیسوس، بل، وأیضًا، على يد ديمقريطس، الذي شدَّد على مفهوم الدوام في مقولته الشهيرة (لا يصدر وجود من عدم)، مما يفيد — ضمنًا — أن الطبيعة وجود دائم أبدي.

وبالمثل، فإن إشارته إلى حركة الطبيعة، من الأقل كمالًا إلى الأكثر كمالًا لم يكن اكتشافًا جديدًا — على الإطلاق — لمبدأ من مبادئ الطبيعة.

إن قصة الخلق الواردة في الإصحاح الأول من سفر التكوين في العهد القديم تحكي التطور التدريجي للحياة، حيث انهمك الصانع الأول Demiurge أو اللوجوس Logos في العمل ست مراحل ثم استراح في السابعة، وبالمثل أيضًا، قصة الخلق عند المصريين القدماء الموجودة في فقه إلهيات مدرسة ممفيس؛ إذ يحكي عن حركة الطبيعة من العماء البدائي إلى النظام.

هاتان القصتان تسبقان زمن أرسطو بآلاف السنين؛ إذ الأولى منذ حوالي ٢٠٠٠ سنة ق.م، بينما الثانية منذ ٤٠٠٠ق.م. وحيث أوضحنا أن مبدأ الأضداد نشأ — أصلًا — على أيدي المصريين القدماء، مثلما قالوا — أيضًا — بالتطور التدريجي للحياة؛ إذن يبين بجلاء أن هذا المبدأ، بشأن صفات الطبيعة، لم ينشأ بداية على يد أرسطو (انظر [٢]، ص٦٠–٦٥؛ [٣]، ص٤٤–٥٢؛ سفر التكوين إصحاح ١؛ [٤]، ص٢٨–٣٢؛ [٦٨]، ص٢١، ٥١–٦٠؛ [٧٦]، ص٢٠، ٣٠).

(٥) النفس:

يرى أرسطو أن النفس لها الصفات التالية:

(١) الاتحاد بالبدن، شأن اتحاد الصورة بالمادة.

(٢) القوة التي يتمتع بها الجسم الحي، أي المبدأ الأساسي للحياة، والذي يتجلى في الصفات التالية:

(أ) الحساسية.
(ب) العقلانية.
(ج) الغذوية.
(د) الشهوية.
(هـ) الحركية.

هذا الوصف الذي قدمه أرسطو للنفس ينطوي، من ناحية على قدر بسيط من التغير بالقياس إلى الأفكار الأكثر شيوعًا وذيوعًا، على أيدي أصحاب مذهب الذرة. وينطوي من

ناحية ثانية على قدر بسيط من الاختلاف عن أفكار سقراط وأفلاطون والفيثاغوريين؛ إذ كان الفريق الأول يعتقد أن النفس مادية وتتألف من ذرات نارية، ورأى الفريق الثاني أن النفس تناغم البدن وامتزاج أضداد (انظر [٣]، ص٤٢، ٦٧–٦٨؛ [٣٨]، ف١٥؛ [٢]، ص٦١).

وطبيعيًّا أن نجد أنفسنا هنا مضطرين إلى أن نسأل السؤال التالي: هل نشأ مبدأ النفس هذا — أصلًا — على يد أرسطو؟ واضح أنه لم يأخذه عن معلمه أفلاطون، ولا عن الفيثاغوريين أو أصحاب مذهب الذرة، ولكن عن مصدر آخر خارج اليونان.

وإذا اتجهنا بأنظارنا إلى التاريخ القديم، نكتشف، وفي داخلنا شعور بالسعادة، أن هناك مصدران لهذا المبدأ خارج اليونان. (١) حركة الخلق في سفر التكوين في الإصحاح الأول من العهد القديم. (٢) كتاب الموتى لقدماء المصريين الذي لا يحدثنا فقط عن صفات النفس على نحو يتطابق — تمامًا — مع ما قاله أرسطو، بل نجد ما هو أكثر من ذلك؛ حيث نطالع مذهبًا فلسفيًّا محكمًا يفسر الطبيعة البشرية بأنها وحدة من تسعة أجزاء، لا انفصال بينها، ومؤلَّفة من أجسام وأنفس متباينة، ومعتمدة على بعضها البعض، وإن أحدها هو الجسم الطبيعي أو البدن (كتاب الموتى المصري، إعداد سير إي إيه بودج E. A. Budge، المقدمة، ص٢٨–٦٤).

وتؤكد قصة الخلق في سفر التكوين أن الله صوَّر الإنسان من المادة (أي من تراب الأرض أو الطين) ونفخ فيه الحياة؛ إذ نفخ فيه من روحه من خلال منخاريه؛ وبذا أصبح الإنسان نفسًا حية، «وهنا نطالع صورة واضحة لوحدة الجسم والنفس» حسبما وردت في وثيقة (سفر التكوين)، وتسبق زمن أرسطو بعدة قرون طويلة.

وتطالع في كتاب الموتى المصري أن النفس البشرية تتألف من تسعة أجزاء غير قابلة للانفصال:

(١) الكا Ka وهي شخصية مجردة للإنسان الخاص بها، وتمتلك صورة وصفات الإنسان، ولها قدرة على الحركة والوجود الكلي، والقدرة على تلقي الغذاء مثل الإنسان، إنها معادل المثال Eidelon.

(٢) الخات Khat وهي الشخصية المجسدة، أي الجسد الطبيعي الفاني.

(٣) البا Ba النفس القلبية أو الكامنة في القلب وتسكن الكا Ka وتكون أحيانًا بمحاذاته كي تمده بالهواء والطعام، ولها قدرة على التحوُّل والتشكل؛ بحيث تغيِّر صورتها حسب الإرادة.

(٤) الأب Ab أو القلب، الحياة الحيوانية في الإنسان، وهي عقلانية وروحية وأخلاقية. وهي مرتبطة بالبا Ba (النفس القلبية). وحسب مشهد يوم الحساب في الآخرة، طبقًا للرواية المصرية القديمة، فإن القلب Ab هو الذي يواجه الحساب في حضرة أوزيريس القاضي الأعظم في العالم الخفي.

(٥) الكيبيت Kaibit بمعنى الظل أو الخيال. ويرتبط بالبا Ba (النفس القلبية)؛ إذ يتلقى منه، مثل ما يتلقى الكا غذاءه، وله قدرة على الحركة والوجود في الكل.

(٦) الخو Khu أو النفس الروحية، وهي خالدة أبدية، وترتبط ارتباطًا وثيقًا بالبا Ba (النفس القلبية)، وهي وجود أثيري.

(٧) الساهو Sahu أو الجسد الروحي، وتسكنه الخو أو النفس الروحية، وتتحد فيه الصفات العقلية والروحية للجسم الطبيعي بالقوى الجديدة المميزة لطبيعته.

(٨) السيخيم Sekhem أو القوة، أو التجسد الروحي للقوة الحيوية للإنسان، وموطنها في السموات، مع الأرواح أو الخو Khu.

(٩) الرين Ren أي الاسم أو الصفة الجوهرية للحفاظ على الفرد؛ إذ كان يعتقد المصريون القدماء أن غياب الاسم غياب أو موت لوجود الفرد.

ملحوظة

يجب ملاحظة أنه، وفقًا للمفهوم المصري القديم:

(١) النفس لها تسعة أجزاء، تكتمل باتحادها ببعضها، حتى إن الرين Ren أي الاسم صفة جوهرية؛ إذ بدونه لا يمكن أن يكون للنفس وجود.

(٢) البا Ba أو (النفس القلبية) مرتبطة بكل من الكا KA والكيبيت Kaibit والأب Ab (أو الشخصية المجردة والظل والحياة الحيوانية)، هذا من ناحية، ومرتبطة أيضًا بالخو Khu والسيخيم Sekhem (النفس الروحية والتجسد الروحي للقوة الحيوية) من ناحية أخرى باعتبارها قوة التغذية.

(٣) الساهو Sahu جسم روحي يستخدمه كلٌّ من الخو Khu والسيخيم Sekhem.

(٤) الخات Khat الجسد العضوي، وهو عنصر جوهري للروح عند تجليها على المستوى الطبيعي.

(٥) والنفس لها الصفات الأخرى التالية:

(أ) الحضور الكلي أو الحضور في الكل.
(ب) التحوُّل.
(ج) الحركة.
(د) الغذوية.
(هـ) الفناء (في حالة الخات Khat).
(و) الخلود.
(ز) العقلانية.
(ح) الروحية.
(ط) الأخلاقية.
(ي) الأثيرية.
(ك) الخيالية أو الظلية.

(٦) لذلك يبدو واضحًا — من مثل هذه المقارنة — أن مبدأ أرسطو عن النفس متطابق ومتوافق مع جزء بسيط جدًّا فقط من الفلسفة المصرية عن النفس، والذي يقف منها موقف الجزء من الكل. ومن ثَم نخلص إلى أن أرسطو أخذ مبدأه عن النفس من كتاب الموتى المصري، سواء مباشرة أو بطريقة غير مباشرة.

(ب) مكتبة الإسكندرية هي المصدر الحقيقي لهذا العدد الضخم من كتب أرسطو

لنا أن نتوقع أن مكتبة الإسكندرية سرعان ما نقب فيها الإسكندر ونهبها، هو وفريقه. وشارك في ذلك أرسطو وآخرون، الذين لم يقنعوا بما أخذوه، عنوة واقتدارًا، من كميات ضخمة من الكتب العلمية، بل عادوا — مرارًا وتكرارًا — إلى الإسكندرية بغرض البحث، ومثلما حدث، عندما استولى جيش الإسكندر على هذه الكتب في مصر، ووقعت بذلك في يد أرسطو، كذلك بعد وفاة أرسطو؛ كان مصير هذه الكتب ذاتها أن تقع في أيدي جيش الرومان، ويستولي عليها وينقلها إلى روما. وهذا حسب القصة التالية المأخوذة عن كتب التاريخ التي كتبها سترابو وبلوتارك.

«وقعت كتب أرسطو في يدي ثيوفراسطوس الذي خلفه رئيسًا لمدرسته، وعند وفاة ثيوفراسطوس ورثها عنه نليوس من سكيبيس، وعقب وفاة نليوس تم إخفاء الكتب في قبوٍ، حيث بقيت مخبَّأة في هذا المكان نحو قرنين من الزمان.

وبعد أن سقطت أثينا في أيدي الرومان عام ٨٤ق.م. استولى صولا على الكتب، وأرسلها إلى روما؛ حيث استنسخها تيرانيو عالم اللغات؛ وخوَّل أندرونيكوس الروديسي حق نشرها (انظر [٩]؛ [٣٢] في [٣]، ص١٢٨ هامش).

إن كتابات أرسطو، وهي كتابات مقطعة الأوصال، لا تربطها وحدة واحدة، إنما تكشف عن حقيقة أنه — هو نفسه — أخذ ملاحظات — على عجلٍ — من كتب عديدة، أثناء بحثه في المكتبة المصرية الكبرى. ونعرف أن المنهج القديم في التعلُّم كان شفاهيًّا، وليس عن طريق محاضرات أو كتابة مذكرات وحواشٍ.

وأجد لزامًا — هنا — أن أكرر اقتناعي بأن أرسطو يمثِّل هوة ثقافية مداها ٥٠٠٠ سنة، هي المسافة الزمنية الفاصلة بين إبداعه، وبين مستوى الحضارة اليونانية في زمانه؛ إذ من المستحيل أن نتخلص من الاقتناع بأنه اكتسب تعليمه، وحصل على كتبه من بلد آخر غير اليونان، بلد متقدم — بمسافة كبيرة — على ثقافة اليونان آنذاك، وأن هذا البلد هو مصر والمصريين (انظر [٥]، ص٩٢، ٩٣؛ [٤]، ص١٠٤؛ [١٣] ص٧٧، ٧٨؛ [٣] ص١٢٦، ١٢٧، ١٣٥؛ [٢] ص١٧١–١٧٣؛ بلوتارك في [٥]، ف٨؛ [٤٤]؛ [٣]، ١٢٨).

إن الكتب المنسوبة إلى أرسطو تتناول معارف علمية لم تكن متداولة بين الإغريق، ومن ثَم، يغدو من رابع المستحيلات بالنسبة له، كما سبق أن أوضحنا، الزعم بأنه اشتراها من آخرين، ممن قيل عنهم إنهم فلاسفة يونانيون.

ورغبة في إخفاء المصدر الحقيقي لكتبه وتعليمه، يروي التاريخ قصصًا شديدة الغرابة عن أرسطو: (أ) أنه قضى ٢٠ عامًا تلميذًا لأفلاطون، الذي نعرف أنه لم يكن أهلًا لتعليمه. (ب) أن الإسكندر الأكبر منحه أيضًا أموالًا لشراء عدد كبير من الكتب ارتبط اسمه بها، ولكنه — في الوقت نفسه — لم يذكر لنا متى؟ ومن أين؟ ومِن مَن اشترى أرسطو هذه الكتب؟

علاوة على هذا، وكما سبق أن أوضحنا، أن استعراض أرسطو لمبادئ الفلاسفة السابقين عليه، بمن فيهم أفلاطون، علاوة على كشفه لأخطائهم وتهافتهم، إنما يبين أنه أصبح على يقين من أنه ليس — فقط — مالكًا للمعرفة الصحيحة، التي لم تكن متاحة قبل ذلك التاريخ للإغريق، بل، وأيضًا، أصبح قادرًا على التحدث عنها بثقة كبيرة.

(ب-٢) عدم تطابق قوائم الكتب يوحي بالارتياب في تأليفها

(١) هناك — على الأقل — ثلاث قوائم بالكتب، إحداها هي، كما قيل، تصنيف أرسطو — نفسه — لكتاباته. وطبيعيًّا أن تاريخها يرجع بالضرورة إلى فترة حياته (٣٨٤–٣٢٢ق.م.) وأفاد أرسطو، في هذه القائمة، أنه كتب مؤلفات في:

(أ) الرياضيات والطبيعيات والإلهيات.
(ب) الأخلاق والاقتصاد والسياسة.
(ج) الشعر والفن والخطابة.

والآن فإن من يؤلف هذه الكتب لا بد وأن يكون قد تلقى تعليمه وثقافته وتدريبه في الموضوعات المؤلَّف عنها. وعرفنا من تاريخ فلسفة اليونان أن سقراط علَّم أفلاطون، وأن أفلاطون علَّم أرسطو، ولكن ليست — لدينا — أي بيِّنة على أن سقراط علَّم أحدًا على الإطلاق الرياضيات أو الاقتصاد أو السياسة.

وبناءً عليه، يستحيل عليه أن يعلِّم أفلاطون هذه الموضوعات، كما يستحيل — بالتالي — على أفلاطون أن يعلِّم أرسطو هذه الموضوعات وفقًا لنظام الأسرار المصري، الذي كان نظامًا متدرجًا، ويستلزم برهانًا على الكفاءة قبل التأسيس.

لهذا، فإننا لا نستطيع قبول الزعم بأن أرسطو مؤلِّف هذه الكتب.

(٢) هناك قائمتان مأخوذتان عن مصدرين مختلفين، وكلتاهما تختلفان عن بعضهما اختلافًا بيِّنًا من حيث: (أ) العدد. (ب) الموضوع. (ج) التاريخ.

قائمة هيرمبوس السكندري (٢٠٠ق.م.)، وتحتوي على ٤٠٠ كتاب، والقائمة التي جمعها بطليموس، فيما بين القرنين الأول والثاني الميلاديين، وتحتوي على ١٠٠٠ كتاب. وأن مجرد عدم التماثل بين القائمتين يثير الشك في تأليفها. كذلك لو قلنا إن أرسطو لم يكن لديه سوى ٤٠٠ كتاب عام ٢٠٠ق.م. إذن نسأل ما هي المعجزة التي أدت إلى زيادة عددهم إلى ١٠٠٠ في القرن الثاني الميلادي؟ أم أن الأمر ينطوي على تزييف؟

(ج) التناقضات والشكوك في حياته

(١) أضاع ٢٠ عامًا من حياته تلميذًا لأفلاطون.

قيل بأنه قصد أفلاطون، وسنه ١٩ عامًا، وأمضى ٢٠ عامًا تلميذًا على يديه. بيد أن هذا مشكوك فيه وغير معقول؛ إنه قول مشكوك فيه؛ وذلك لأن أفلاطون كان ينظر إليه

باعتباره فيلسوفًا، أما أرسطو، فكان يُنظَر إليه باعتباره عالمًا، وعُزِي إليه تأليف المعارف العلمية للعالم القديم، ومن المستحيل أن يعلِّم أستاذ تلميذًا ما لا يعرفه المعلم نفسه.

وهو أيضًا قول غير معقول أن نتوقع من إنسان، منسوب إليه معارف مثل معارف أرسطو أن يضيع ٢٠ عامًا، من أفضل سنوات العمر، على يدي معلم غير أهل لأن يلقِّنه العلم (انظر [٥]، ص٩٢؛ [٤]، ص١٠٤).

(٢) تشويه الحقائق بشأن كيفية حصوله على هذا العدد الكبير من الكتب.

قيل إنه تلقى مساعدة مالية من الإسكندر الأكبر، ومن ثَم استطاع أن يشتري عددًا كبيرًا من الكتب بغية تطوير دراساته (انظر [٢]، ص١٧١؛ [٣]، ص١٢٧).

بيد أن هذا حديث أقرب إلى الخرافة منه إلى الحقيقة؛ إذ إن التعليم اليوناني — حتى عهد أرسطو — كان يمثِّله السوفسطائيون الذين كانوا يعلمون الخطابة والجدل. أما دراسة العلوم الأولية فقد كانت قاصرة على عدد قليل غير معروف من الفلاسفة. وكان هذا هو مستوى التعليم اليوناني؛ حيث كان السوفسطائيون هم وحدهم المنوط بهم التعليم.

ولكن أرسطو هذا منسوب إليه إنتاج ألف كتاب مختلفة الموضوعات، تتناول جميع فروع المعرفة العلمية عند القدماء، والشيء اليقيني أنه ما كان بإمكانه تحصيل هذه العلوم من اليونانيين؛ ذلك لأن هذا القدر الهائل من المعارف، الذي يحمل اسمه، والذي جرى عرضه باعتباره معارف جديدة، كان — في الواقع — ملكية شائعة تقليدية لدى جميع من كانوا أعضاء في مدارس الفلسفة اليونانية؛ لأنهم هم وحدهم الأشخاص المأذون لهم — داخل اليونان — بامتلاك هذه الكتب، إذ كانت المعرفة محمية باعتبارها من الأسرار.

يبين — بوضوح — في مثل هذه الظروف، أن القسط الأكبر من المعارف العلمية المنسوبة إلى أرسطو لم تكن في حوزة اليونانيين آنذاك، ولم يكن ثمة مَن هو أهل، وله صلاحية لتعليم هذه العلوم في اليونان، أو على الأقل، تعليمها على نطاق واسع.

(٣) حصل على الكتب عن طريق نهب مكتبة الإسكندرية.

بقي الآن سؤال، لا مناص من أن نسأله: كيف إذن أمكن لأرسطو، وهو فرد مستقل، أن يحوز مثل هذا العدد الضخم من المؤلفات العلمية، وهي تراث علمي لمعارف استغرق العالم القديم، في سبيل جمعها، خمسة آلاف عام أو يزيد؟ واضح أن شهرة أرسطو كمفكرٍ صادفت قدرًا هائلًا من المبالغة، ذلك لأن مثل هذا الإنجاز مستحيل بدنيًّا وعقليًّا. ولقد شهد العالم كثيرين من العباقرة، على مدى تاريخ التقدم الفكري للإنسان، بيد أن هؤلاء كانوا متخصصين في مجالات بذاتها، وليسوا متخصصين في جميع أفرع العلم.

والعالم الحديث ليس استثناء من هذا؛ وذلك لأن رجال العلم العِظام — في عصرنا — ليسوا متخصصين في جميع أفرع العلم، بل في فرع بذاته، وهذا هو الطريق الذي يتفق مع طبيعة الأمور.

واقع الحال أن التناقضات والشكوك الكثيرة التي تزخر بها حياة أرسطو وأنشطته تفضي بنا إلى الحل المعقول والوحيد للمشكلة، بدلًا من الحكايات والأقاصيص التي تزعم:

(أ) أن الإسكندر الأكبر منحه مالًا لشراء الكتب.

(ب) أنه قضى ٢٠ عامًا من حياته تلميذًا لأفلاطون.

(ج) أنه ترك قصر الإسكندر إلى أثينا عندما بدأ الإسكندر غزوه مصر، بل على العكس، لا بد وأنه قضى قسطًا كبيرًا من العشرين عامًا تلميذًا على أيدي كهنة مصر. ولا بد بالضرورة وأنه صاحب الإسكندر عند غزوه مصر، مما أتاح له فرصة، ليس فقط ليأخذ ما يشاء من كتب مكتبة الإسكندرية، وهي ذلك العدد الهائل من الكتب التي يقال إنه صاحبها ومؤلفها. بل أتاح له — أيضًا — فرصة لاستنساخ هوامش وحواشٍ خاصة بعددٍ كبير من المجلدات. والحقيقة أن الدراسات الحديثة أثبتت أن كتابات أرسطو تحمل العلامات الدالة على استنساخ هوامش على عجلٍ، مما يوحي بأن أرسطو — نفسه — استنسخ هذه الهوامش من كتب مكتبة الإسكندرية؛ صفوة القول إن الرؤية التاريخية لحياة أرسطو ليست موضع تصديق.

(٤) كانت عادة الجيوش — قديمًا — الاستيلاء على الكتب باعتبارها غنيمة حرب قيمة.

كانت العادة — قديمًا — حين تستولي الجيوش المظفرة على بلدٍ ما، أن تتولى مجموعات خاصة البحث عن غنائم الحرب والاستيلاء عليها؛ أي أن يتولَّوا — هم بأنفسهم — أمر الاستيلاء على كل ما يرونه قيمًا. وكان الإغريق — من بين جميع البلدان المحيطة — الأكثر لهفة للحصول على الأسرار القيمة للمصريين في العلوم القديمة. ويبدو واضحًا أن أعظم فرصة سنحت لهم لتحقيق رغبتهم وقت أن غزا الإسكندر الأكبر مصر. وكما أسلفنا فإن الجيوش الغازية اعتادت أن تغتنم المكتبات بسبب القيمة العظيمة التي تُعزى لها. كذلك تم الاستيلاء على محتويات المعابد باعتبارها غنيمة، ليس فقط بغية الحصول على الكتب، بل وأيضًا للحصول على الذهب والفضة التي كانت مادة صناعة الآلهة ومواكب الاحتفالات.

الفصل السابع

المنهاج التعليمي في نظام الأسرار المصري

(١) تعليم الكهنة المصريين حسب مراتبهم

عرفنا من ديودور وهيرودوت وكليمنت السكندري أنه كانت هناك ست مراتب للكهنة المصريين، وأن كل مرتبة عليها أن تمتلك ناصية عدد معين من كتب هرمس. وقد وصف كليمنت موكبًا للكهنة، وسمَّاهم — حسب مراتبهم — موضحًا صفات كل منهم على النحو التالي:

جاء في المقدمة أودوس حاملًا آلة موسيقية، كان لزامًا عليه أن يستظهر كتابين من كتب هرمس، أحدهما يشتمل على تسابيح للإله، والثاني خاص بحياة الملك. وجاء بعده المنجم حاملًا — في إحدى يديه — جهازًا لقياس الوقت أو مزولة شمسية وسعفة نخيل، وهي رموز على الفلك، وكان لزامًا عليه أن يعرف خمسة من كتب هرمس الخاصة بالفلك.

ويلي هذين حامل الرموز السرية، وقد غطى رأسه بالريش، وفي يديه كتاب وحقيبة مستطيلة الشكل مع أدوات الكتابة أي الحبر والقصبة، وهذا عليه أن يتعلم اللغة الهيروغليفية ووصف معالم الكون «الكوزمولوجيا» والجغرافيا والفلك وطوبوغرافيا مصر، أي وصف مصر ورسم أماكنها، والأواني المقدسة وأدوات القياس وأثاث المعبد والأراضي.

يأتي، عقب هؤلاء، الكهنة بأرواب مزركشة، حاملين ذراع العدالة وأواني السائل المقدس، وهؤلاء عليهم الإحاطة بكتب هرمس التي تتناول موضوع ذبح الحيوانات.

يأتي من بعدهم المتنبئ، حاملًا إناء الماء المقدس، وفي أعقابه حملة أرغفة القربان.

والمتنبئ هو رئيس المعبد، وعليه أن يحيط — علمًا — بعشرة كتب تُسمَّى الكهانة، وتحتوي على القوانين والمبادئ المتعلقة بالآلهة (فقه الإلهيات السري)، وكل مناهج التعليم الخاصة بالكهنة. وكتب هرمس عددها ٤٢ كتابًا، وجميعها ضرورية ضرورة مطلقة،

ويتعين على المراتب السابقة على مرتبة المتنبئ أن تعرف ٣٦ من هذه الكتب، وتشتمل على كل الفلسفة المصرية، أما الكتب الستة الباقية فيجب أن يعرفها إخوة مرتبة الباستوفوري، وهذه هي كتب طبية، وتتناول وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا)، وأمراض الذكور والإناث، والتشريح والعقاقير والأدوات. ولقد كانت كتب هرمس معروفة جيدًا للعالم القديم، وكان يعرفها كليمنت السكندري الذي عاش في بداية القرن الثالث الميلادي.

وعلاوة على التعليم المتضمن في كتب هرمس الـ ٤٢، كان الكهنة يحصلون على معارف هامة من خلال عمليات الانتقاء بين أضحيات القرابين ودراستها، وعمليات التطهر البدني الصارمة التي يفرضها عليهم نظامهم الكهنوتي.

وبالإضافة إلى المنجم، وإلى حامل الرموز السرية، وكلاهما بارعان في فقه الإلهيات وفي اللغة الهيروغليفية المقدسة، كان الكاهن يعمل — أيضًا — قاضيًا ومفسرًا للقانون. وأفضى هذا إلى نظام المحكمة المختارة، وهو نظام جعل من الكاهن المصري مستودع كل أنواع الأدب، وقيل — أيضًا — إن علم الإحصاء كان موضوعًا حقق فيه الكهنة المصريون أعظم قدر من الكمال في مستوى العصر (انظر [٧]، ك١، ص٨٠؛ [٦٤]، ٦، ٤، ص٧٥٦؛ [٢٤]، ك١، ص٣٧٨-٣٧٩، ك٢، ص٨٥–٨٧، ص٣١–٣٣).

(٢) تعليم الكهنة المصريين

(أ) الفنون السبعة العقلية.
(ب) النظم السرية للغات والرموز الرياضية.
(ج) السحر.

(أ) تعليم الكهنة المصريين الفنون السبعة العقلية

كما سبق أن أوضحنا، خلال حديثنا عن أفلاطون والفضائل الأساسية، فقد كانت نظم الأسرار المصرية هي مركز الثقافة المنظمة، ومصدر التعليم المعتمد في العالم القديم. وكان المريدون الجدد يتدرجون، حسب كفاءتهم المعنوية وأهليتهم العقلية، ويتعين عليهم الخضوع — سنوات طويلة — لاختبارات وامتحانات قاسية، حتى يمكن تحديد صلاحيتهم للتقدم. واشتمل تعليمهم على الفنون السبعة العقلية والفضائل، ولم تكن الفضائل تجريدات أو أفكار أخلاقية عاطفية فحسب، بل المظاهر الإيجابية لشجاعة وحيوية النفس، ويدخل الكهنة بعد هذا لدراسة مناهج للتخصص.

(ب) تعليم الكهنة المصريين اشتمل أيضًا على التخصص في النظم السرية للغة والرموز الرياضية

(١) سيظهر — بوضوحٍ — أن المصريين كانوا يستخدمون صورتين للكتابة:

(أ) الديموطيقية، والتي كانوا يعتقدون أن الفرعون بسماتيك هو الذي أدخلها لأغراض تجارية.

(ب) الهيروغليفية، وكان منها شكلان للكتابة: الهيروغليفية الخالصة، والهيرية أو الكهنوتية وهي ذات شكل طولي. وهذان الشكلان قاصران على الكهنة وحدهم بغية إخفاء المعنى السري والرمزي لهذه المبادئ (انظر [٦٤]، ك٥، ف٤، ص٦٥٧؛ [٣٢]، ك٢، ص٣٧٤؛ [٢٤]، ك٢، ص٨٤، ١١٩، ٣٣٦، ٢٤٥).

(٢) وعرفنا — أيضًا — أن نظام الأسرار المصري استخدم أساليب للغة المنطوقة التي لا يفهمها سوى المبتدئين من المريدين، ولم تكن هذه الأساليب تشتمل على الأساطير والأمثال، بل اشتملت، كذلك، على لغة سرية اسمها سنزار Senzar (انظر [١٢]، ص٢٣).

(٣) ونفهم كذلك أن المصريين عزوا قيمًا عددية لأحرف الكلمات ولأشكالها الهندسية، وذلك لأغراض تتطابق مع أغراضهم من استخدام اللغة الهيروغليفية، أي لإخفاء تعاليمهم. وفهمنا، علاوة على هذا، أن الرمزية العددية والهندسية عند المصريين متضمنة في كتب هرمس الـ ٤٢؛ وقد كان نظامها هو النظام الأقدم، والمستودع — الأكثر شمولًا — للرمزية الرياضية. وهنا نتذكر مرة أخرى مصدر فلسفة العدد عند فيثاغورس (انظر [١٢]، ص٢٢-٢٣؛ [٦٤] ك٥، ف٧، ٩).

(ج) تعليم الكهنة المصريين اشتمل أيضًا على التخصص في السحر

حسب رواية هيرودوت، فقد كان الكهنة المصريون يتمتعون بقوى خارقة للطبيعة لأنهم تدربوا على فلسفة قاصرة على عدد محدود من الصفوة هي الأسرار الأعظم، مثلما كانوا خبراء في السحر، وكانوا يتمتعون بقدرة على التحكم في عقول الناس (التنويم)، والقدرة على التنبؤ بالمستقبل، والقدرة على السيطرة على الطبيعة (قدرات إلهية)، وذلك بإعطاء أوامر باسم الإله؛ وبذا يأتون أفعالًا عظيمة. ويرى هيرودوت كذلك أن مصر موطن أشهر عمليات الوحي الإلهي التي عرفها العالم القديم: مينيرفا في سايس، وديانا في بوبسطة،

ومارس في بابريميس، وجوبيتر في طيبة وأمونيوم، ويرى أن أحداث الوحي اليونانية إنما كانت محاكاة لما يجري في مصر.

وحري بنا أن نذكر هنا أن الكهنة المصريين هم أول كهنة حقيقيين في التاريخ مارسوا، حسب الزعم السائد، السيطرة على قوانين الطبيعة. ولعل مما يجدر ذكره هنا، أن كتاب الموتى المصري هو كتاب وصفات وتعاليم سحرية استهدف توجيه قَدَر النفس الراحلة. لقد كان كتاب الصلوات الخاص بنظام الأسرار المصري، وقد تدرب الكاهن المصري على ظروف ما بعد الوفاة، وطرق التحقق منها، ويجب أن نلاحظ أن السحر هو دين تطبيقي، أو منهج علمي بدائي (انظر كتاب الموتى المصري، [٣١] ك ٢، ص١٠٩، ١١٧؛ [١]، ص٢٧، ٥٠٧؛ [٥٧] تعريف السحر).

(٣) مقارنة المنهاج التعليمي لنظام الأسرار المصري بقوائم الكتب المنسوبة إلى أرسطو

(أ) المنهاج التعليمي

كان المنهاج التعليمي لنظام الأسرار المصري مؤلفًا من الموضوعات التالية:

(١) الفنون العقلية السبعة، التي تشكِّل أساس التثقيف لجميع المبتدئين، وتشمل قواعد النحو والصرف والحساب والخطابة والجدل (أي الرباعية) والهندسة والفلك والموسيقى (أي الثلاثية).

(٢) علوم كتب هرمس الـ ٤٢؛ إذ علاوة على التثقيف الأساسي المخصص لجميع المريدين المبتدئين، فإن من يلتمسون المراتب القدسية عليهم استظهار كتب هرمس، ويقول كلمنت السكندري إن نظمها وموضوعاتها كالآتي:

(أ) المرتل أو أودوس، ويتعيَّن عليه الإحاطة بكتابين من كتب هرمس خاصة بالموسيقى، أي التسابيح للآلهة.

(ب) المنجِّم ويتعيَّن عليه الإحاطة بأربعة من كتب هرمس خاصة بالفلك.

(ج) حامل الرموز السرية، ويتعين عليه أن يجيد اللغة الهيروغليفية و«الكوزموجرافيا»، أي وصف معالم الكون والجغرافيا والفلك وطوبوغرافيا مصر ومساحة الأراضي.

(د) حاملو الأرواب المزركشة، ويتعين عليهم معرفة كتب هرمس بشأن ذبح الحيوانات وعملية التحنيط.

(هـ) المتنبئ وهو رئيس المعبد، ويتعين عليه الإحاطة بكتب هرمس الخاصة بالمستوى الأرفع من فقه الإلهيات للنخبة، فضلًا عن كل ما يتعلمه الكهنة.

(و) الباستوفوري Bastophori ولا بد له أن يعرف ستة من كتب هرمس وهي كتب الطب، والتي تتناول وظائف الأعضاء وأمراض الذكور والإناث والتشريح والعقاقير والآلات الطبية.

(٣) علوم الآثار (الأهرامات – المعابد – المكتبات – المسلات – تماثيل سفنكس أو أبو الهول – الأوثان)، العمارة – البناء – النجارة – الهندسة – النحت – علم المعادن – الزراعة – التعدين أو استخراج المعادن – الجراحة – الفنون (الرسم والتلوين).

(٤) العلوم السرية:

الرموز العددية، الرمزية الهندسية، السحر، كتاب الموتى، الأساطير، الحكم والأمثال.

(٥) النظام الاجتماعي وحمايته.

كان الكهنة المصريون، علاوة على هذا، محامين وقضاة وموظفي دولة، ورجال أعمال وتجارة وقباطنة. ومن ثَم، فلا بد وأنهم تثقفوا في مجالات الاقتصاد والتربية المدنية والقانون والحكم والإحصاء والتعداد والملاحة وبناء السفن والعلم العسكري، وصناعة العربات وتربية الخيول.

واذا قارنا بين ٣ أو ٣ب التي تليها مباشرة سوف نكتشف أن المنهاج التعليمي لنظام الأسرار المصري يشمل نطاقًا واسعًا جدًّا من الموضوعات العلمية، تفوق — كثيرًا — الموضوعات الواردة في قائمة أرسطو.

ملحوظة:

نلاحظ أن الفنون العقلية السبعة: الرباعية والثلاثية نشأت بداية في نظم الأسرار المصرية (انظر [٧٦]؛ [٧٧]؛ [٧٨]؛ [٧٩]؛ [٨٠]؛ [٨١]).

(ب) قائمة كتب أرسطو التي أعدَّها بنفسه

أعد أرسطو قائمة بالكتب، حسب الترتيب التالي (انظر [٥]، ص٩٧؛ [٣]، ص١٢٩).

(١) العلوم النظرية، وهدفها الحقيقة، وتضمنت:

(أ) الرياضيات.

(ب) الطبيعيات.

(جـ) الإلهيات.

(٢) العلوم العملية، وهدفها النفع، وتضمنت:

(أ) الأخلاق.
(ب) الاقتصاد.
(ج) السياسة.

(٣) علوم الشعر أو الإبداع، وهدفها الجمال، وتضمنت:

(أ) الشعر.
(ب) الفن.
(ج) الخطابة.

وإن دراسة ومقارنة ١أ و٣ب توضحان:

(أ) المنهاج التعليمي لنظام الأسرار المصري اشتمل على جميع الموضوعات العلمية والفلسفية المنسوب إلى أفلاطون تأليفها.

(ب) الكتب المنسوبة إلى أرسطو، وقيل إنه هو مؤلفها، لا يمكن فصلها عن أصلها المصري على نحو ما أشرنا — في موقع سابق — سواء عن طريق نهب المكتبة الملكية بالإسكندرية، أو عن طريق البحث الذي أجراه أرسطو بنفسه هناك. وكما أشرنا — أيضًا في السابق — فإن كتابات أرسطو موضع خلاف ونزاع بين الباحثين المحدثين (انظر [٣]، ص١٢٧). وإني أشعر بأن لدينا مبررًا واضحًا يدعونا إلى المقارنة بين المنهاج التعليمي لنظام الأسرار المصري وبين القائمة التي قيل إن أرسطو أعدَّها بنفسه، وقال إنه صاحبها، فضلًا عن القائمة المشبوهة التي تضم ألف كتاب، فإن موضوعاتها — على الرغم من ذلك — متضمنة أيضًا في المنهاج التعليمي لنظام الأسرار المصري (انظر [٢]، ص١٧٣).

الفصل الثامن

فقه إلهيات ممفيس

أساس جميع المبادئ الهامة في الفلسفة اليونانية

تاريخ ووصف مدرسة ممفيس

فقه إلهيات مدرسة ممفيس هو نقش على حجر محفوظ الآن في المتحف البريطاني، ويحتوي على آراء المصريين القدماء بشأن الإلهيات والكوزمولوجيا (نظرية عن أصل الكون وبنيته ونواميسه) والفلسفة. وسبق أن أشرنا إليه في معرض تناولنا مبادئ أفلاطون. ولكن نجد لزامًا أن نكرره هنا لبيان أهميته الكبرى والشاملة، كأساس لمجال الفلسفة اليونانية عامة. ويرجع تاريخه إلى عام ٧٠٠ق.م.، ويحمل اسم فرعون مصري يقرر فيه أنه استنسخ نقشًا لأسلافه. وأمكن التحقق من هذا الرأي على أساس اللغة ونظام ترتيب النص. ولهذا يرجع التاريخ الأصلي لفقه إلهيات مدرسة ممفيس إلى فترة مبكرة جدًّا من التاريخ المصري، أي الزمن الذي أقامت فيه الأسر الأولى عاصمتها الجديدة في ممفيس: مدينة الإله بتاح فيما بين ٤٠٠٠، ٣٥٠٠ق.م. (انظر [٦٨]، ص٥٥).

(١) النص

يتألف من ثلاثة أجزاء متكاملة، وسوف نعالج كلا منها مستقلًّا عن الآخرين، سواء من حيث التعاليم، وأيضًا من حيث التطابق مع الفلسفة اليونانية.

يمثِّل الجزء الأول آلهة العماء البدائي، ويمثِّل الجزء الثاني آلهة النظام والترتيب عند الخلق. ويمثِّل الجزء الثالث كبير الآلهة، أو رب الأرباب (اللوجوس)، الذي يرجع له إنجاز عملية الخلق.

(أ) نص الجزء الأول

بتاح كبير الآلهة حمل في قلبه كل ما هو موجود، وبكلمته خلقهم جميعًا، ظهر أولًا من مياه المحيط الأزلي نون في صورة تل سرمدي، وعقب التل مباشرة ومرادف له. وإلى جواره ظهر أيضًا الإله أتوم من المياه، واستوى فوق بتاح (التل). وبقي في الماء أربعة أزواج من الأرباب الذكور والإناث، وهم الثماني الربوبي الموحد Ogdoad ويحملون الأسماء التالية:

(١) نون ونونيت أي محيط المياه الأزلي والسماء المقابلة.
(٢) هوه وهوهيت أي اللامحدود وضده.
(٣) كوك وكوكيت أي الظلمة وضدها.
(٤) آمون وآمونيت أي الخفي وضده.

(انظر [٥٦]، ص٢؛ [٦٨]، ص٢١).

(ب) فلسفة الجزء الأول

بتاح له الصفات التالية:

(أ) كبير الآلهة أو رب الأرباب.
(ب) اللوجوس، أي الفكر وكلمة الخلق والقوة (انظر [٥٦]، ص٢٣).
(ج) إله النظام والصورة.
(د) الإله الصانع والخزاف.

(انظر [٦٢]؛ [٢٢]؛ [٢٤]، ك١، ص٣١٨، ٣٣٩).

ويجب الإشارة هنا إلى أنه، في الوقت الذي استوى فيه إله الشمس أتوم فوق بتاح التل الأبدي أنجز، سبحانه، عمل الخلق. غير أن فقه إلهيات مدرسة ممفيس يرجع إلى ٤٠٠٠ق.م. في وقت لم يكن أحد يعرف شيئًا عن الإغريق (انظر [٥٠]، ص٥، ٥٣، ٥٥، كتاب الموتى، ص١٧).

إن هذا الترتيب، الذي يحدثنا عنه فقه الإلهيات لمدرسة ممفيس، لا يعني شيئًا سوى أن مقومات العماء الأزلي كانت تشتمل على عشرة مبادئ أساسية: أربعة أزواج من المبادئ المتضادة مع اثنين آخرين من الأرباب: بتاح، ويمثِّل العقل والفكر وكلمة الخلق. هذا بينما يربط الإله أتوم نفسه بالإله بتاح، ويعمل باعتباره الصانع الأول Demiurge وينجز

عمل الخلق. من خلال تنظيم الكون، على هذا النحو، نصبح في وضع يسمح لنا باستنتاج الفلسفات التالية:

(أ) الماء مصدر كل شيء حي.

(ب) الخلق إنجاز تحقق بفضل وحدة مبدأين خالقين: بتاح وآمون، أي وحدة العقل (نوس Nous) مع لوجوس (كلمة الخلق).

(ج) أتوم هو الصانع الأول أو الإله الوسيط في عملية الخلق، وهو أيضًا إله الشمس أو إله النار.

(د) المبادئ المتضادة تحكم حياة الكون.

(هـ) عناصر الخلق هي النار (أتوم) والماء (نون) والتراب وبتاح أو تا-تجينين Ta-tjenen والهواء. وبذا يعتبر الجزء الأول من فقه إلهيات مدرسة ممفيس المصدر الصحيح لهذه الفلسفات، ولكن الغريب أن الإغريق زعموا أنه من إنتاجهم، وهو قول غير صحيح بالمرة.

(ج) فلاسفة اليونان اللذين نُسِب إليهم — كل على حدة — تأليف أجزاء من فلسفة فقه إلهيات ممفيس

نذكر من هذه المبادئ، مبدأ الماء مصدر كل الموجودات، والمنسوب إلى طاليس ([٢]، ص٣٨)، واللامحدود أو اللانهائي، والمنسوب إلى أناكسيماندر ([٢]، ص٤٠)، ومبدأ «الهواء أساس الحياة»، ومنسوب إلى أناكسيمانز ([٢]، ص٤٢)، علاوة على هذا مبدأ النار أساس حياة الكون، ومنسوب إلى فيثاغورس، الذي حدَّثنا عن وظائف النار المركزية والنار المحيطية، وهو منسوب أيضًا إلى هيرقليطس الذي تحدَّث عن تحول النار إلى العناصر الأخرى، ثم تحولها بعد ذلك إلى نار ثانية. كذلك ديمقريطس الذي تحدث عن ذرات النار التي تملأ الفضاء باعتبارها عقل أو نفس العالم، وتحدث عنها أيضًا أفلاطون، الذي قال إن نفس العالم تتألف من ذرات نارية ([٣]، ص٤٢؛ [٢]، ص٥٣، ١٤٩، [٢١]، ٣٠أ؛ [٥]، ص٤٠).

كذلك نسب مبدأ الأضداد إلى فيثاغورس، الذي تحدث عن عناصر الوحدة بين الفردي والزوجي من الأعداد، ونسب المبدأ — ذاته — أيضًا إلى كل من: (أ) هيرقليطس الذي تحدث عن وحدة الأضداد المتحاربة. (ب) بارمينيديس الذي تحدث عن التمييز بين الوجود والعدم. (ج) سقراط الذي تحدث عن أشياء تتولَّد عن أضدادها. (د) أفلاطون

الذي تحدث عن المثل العليا، والأشياء في ذاتها باعتبارها حقيقية وكاملة، أما الظواهر فهي غير حقيقية وناقصة (انظر [٦٦]، ص٢٥٠؛ [٧٤]١٣٢ د؛ [٤٤]، ١، ٦؛ [٣٨]؛ [٢] ص٥١، ٦١، ٦٨؛ [٢١]، ص٢٨).

علاوة على هذا مبدأ العقل أو Nous أو قوة فاعلة عاقلة مسئولة عن الخلق منسوب إلى أنكساجوراس، وأيضًا إلى سقراط الذي تحدث عن وجود أشياء مفيدة يمثِّلها نشاط العقل. ومنسوب إلى أفلاطون، الذي تحدث عن نفس عالمية أو عقل باعتباره علة الحياة والمعرفة في الكون، ومنسوب إلى ديموقرايطس، الذي أعطاه نفس المعنى ([٢]، ص٨٠، ٨٥؛ [٣]، ص٨٢، ١٠٩).

ومبدأ اللوجوس منسوب إلى هيرقليطس الذي تحدث عن النار باعتبارها اللوجوس أو المبدأ الخالق في الطبيعة. أما مبدأ الصانع الأول Demiurge أو الإله الوسيط، الذي خلق العالم، فهو منسوب إلى أفلاطون (انظر [٣]، ص٥٥، ١٠٨).

(أ) نص الجزء الثاني

آلهة النظام والترتيب في الكون يمثِّلها تسعة آلهة في وحدة ربوبية واحدة يُسَمون التاسوع. هنا الإله أتوم مصدر الثماني الربوبي الموحد Ogdoad.

وهو أيضًا مصدر أرباب النظام والترتيب، ويسمى أتون Atum أو Atom أربعة أزواج من أعضاء جسده هو، وبذا يخلق ثمانية أرباب، بحيث يؤلفون معه تاسوعًا.

وهذه الآلهة الثمانية هم آلهة مخلوقة، وهم أول المخلوقات في هذا العالم، وأتوم الإله الخالق أو الإله الصانع البارئ الذي حدثنا عنه أفلاطون، والآلهة الذين صورهم أتوم من أعضاء جسده هم:

(١) شو أو الهواء.
(٢) تفنوت أو الرطوبة.
(٣) جب أي الأرض.
(٤) توت أو السماء.

ورُوي أنه تولَّد عن هذه الآلهة أربعة آلهة آخرين:

(٥) أوزيريس (إله الوجود في الكل والمعرفة المحيطة بالكل).
(٦) إيزيس (زوج أوزير ومبدأ أنثوي).

(٧) ست (مضاد الخير).
(٨) نفتيس (مبدأ أنثوي في العالم الخفي).

(انظر [٣٢] إيزيس وأوزيريس، ٣٥٥أ، ٣٦٤ج، ٣٧١ب؛ [٥٠]، ص٦٦، ٦٧).

(ب) فلسفة الجزء الثاني

ونحن نطالع نص الجزء الثاني نجد أن أتوم إله الشمس، الذي كان موجودًا في العماء الأزلي، كان موجودًا كذلك مع استحداث وتطور الترتيب المنظم للكون. وفي هذه المرحلة يضطلع أتوم بدور خالق جميع الأرباب، فيما عدا بتاح، رب الأرباب، ثم يشرع — بعد ذلك — في إنجاز هذا النمط الخاص من الخلق على النحو التالي: يأمر ثمانية آلهة بالصدور عن جسده — سبحانه — حسب أسماء تلك الأعضاء الثمانية:

(و) أسفرت عملية الخلق هذه في رؤية الإنسان لها عما يُسمى:

(أ) التاسوع أو وحدة الأرباب التسعة في ربوبية واحدة.
(ب) مبدأ الصانع البارئ، على نحو ما هو مبين في الجزء١.
(ج) مبدأ الأرباب المخلوقة.
(د) مبدأ المحرك غير المتحرك.
(هـ) مبدأ الأضداد.
(و) الحضور في الكل، والمعرفة المحيطة بالكل.

وسوف نتناول، من بين هذه المبادئ، مبدأ «التاسوع»، ونعرض له في موضع آخر؛ وحيث إننا تناولنا — في السابق — مبدأ الصانع مع المبدأ ج أي الأرباب المخلوقة، فسوف أناقش هنا مبدأ المحرك غير المتحرك باعتبار أنه مؤسَّس على عملية الخلق ذاته.

نعرف، حسب فقه إلهيات مدرسة ممفيس عند المصريين القدماء، أن أتوم خلق ثمانية آلهة، صدروا عن ثمانية أعضاء من جسده، سبحانه، واستوى بعد ذلك فوق بتاح التل الأزلي، وبقي ثابتًا لم يتحرك. وأصبح الإله أتوم في عملية الخلق هذه هو المحرك غير المتحرك. وعلى الرغم من أن فقه إلهيات مدرسة ممفيس هو المصدر المباشر لهذه المبادئ، إلا أنهم نسبوا إلى أفلاطون مبدأ خلق الأرباب، ونسبوا إلى أرسطو القول بالمبدأ «المحرك غير المتحرك». يقينًا إن العالم لم يقع فريسة لمثل هذا التضليل أبدًا.

وهنا نجد — لزامًا — أن نوضح — بجلاء — أن مبدأ الصانع أو البارئ Demiurge في الخلق يشتمل على مبدأين: مبدأ الأرباب المخلوقة، ومبدأ المحرك الذي لا يتحرك.

لقد كانت وظيفة الإله الصانع الأول أن يخلق الكون، وأول عمل له — في هذا الصدد — خلق الأرباب الذين أصبحوا — بالتالي — أول المخلوقات.

ولكن الطريقة التي خلق بها الإله الصانع البارئ الأول Demiurge الأرباب هي عملية إصدارهم من جسده هو سبحانه.

وطريقة الخلق هذه تجعل — بوضوح — الإله الصانع المحرك غير المتحرك.

ولكن تاريخ الفلسفة اليونانية عزا تأليف مبدأي الإله الصانع والأرباب المخلوقة إلى أفلاطون، كما عزا تأليف مبدأ المحرك غير المتحرك إلى أرسطو.

ولكن هذا المبدأ، الموسوم بالمبدأ الأفلاطوني، مؤلف من ثلاثة أجزاء، لا انفصال بينها:

(أ) الإله الصانع أو البارئ Demiurge.

(ب) وظيفة الإله الصانع.

(ج) طريقة العمل: وهي وحدة تناقض الزعم بأن أرسطو هو مؤلف ما ليس في الواقع سوى استنتاج مباشر من مبدأ زعموا أنه نشأ على يدي أفلاطون.

(انظر أسطورة الخلق، كما رواها أفلاطون في محاورة طيماوس؛ وانظر [٣] ص١٠٩، ١١٠؛ [٢]، ص١٩٢؛ [٣] ص١٤٢).

بيد أننا سبق أن ناقشنا مبدأ الأضداد في الجزء الخاص بفقه الإلهيات مدرسة ممفيس، إن أحد أزواج الآلهة المخلوقة، وهما أوزيريس وإيزيس، استخدم لتمثيل مبدأي الذكورة والأنوثة في الطبيعة، وأوزيريس له، علاوة على هذا، صفات أخرى خاصة، ويمكن فهمها من الاشتقاقات التالية:

(أ) أوش OSH وتعني الكثير. (ب) أيري IRI وتعني أن أفعل. (ج) وتعني عينًا.

ومن ثَم، فإن أوزيريس لم يكن صدوره إلى الوجود ليعني — فقط — البصير بعيونه الكثيرة أو الحاضر في الكل، بل ويعني أيضًا الكلي القدرة، أو ذا القدرة المكين بغير حدود. وهنا، وكما سبق أن لاحظنا في جميع الأمثلة التي عرضناها، فإنه، على الرغم من حقيقة أن فقه إلهيات مدرسة ممفيس هو مصدر الفلسفة اليونانية، إلا أن مبدأ العلة العاقلة أو العقل المفكر والمدبر Nous المسئول عن حياة العالم وتدبير شئونه نسبَتْه الفلسفة الإغريقية إلى أناكساجوراس وسقراط — وأيضًا — إلى أفلاطون الذي قال إن نفس العالم تتألف من ذرات نارية، شأنه في هذا شأن نفس العالم عند ديمقريطس (انظر [٢١]، ٣٠، ٣٠؛ [٥٢]، ١، ٤، ٢؛ [٣]، ص٦٣).

(أ) نص الجزء الثالث

في الجزء الثالث من فقه إلهيات ممفيس، نجد كبير الآلهة ممثلًا في بتاح: الفكر واللوجوس والقوة الخالقة صاحبة النفوذ فوق جميع المخلوقات، إنه ينقل القوة والروح إلى جميع الأرباب، ويدبر حياة جميع الموجودات، بما في ذلك الحيوان والإنسان، من خلال فكره وأوامره سبحانه، أو بعبارة أخرى، إن جميع الموجودات فيه — سبحانه — تحيا وتتحرك وتملك وجودها الخالد.

(ب) فلسفة الجزء الثالث

نستنتج من الجزء الثالث المبادئ التالية:

(أ) جميع الموجودات خلقها بتاح، رب الأرباب بفكره وأمره وكلمته .

(ب) نحن — جميعًا — نحيا ونتحرك ونملك وجودنا الخالد من خلال فكر بتاح وأمره أو كلمته.

(ج) بتاح هو الخالق والحافظ، وانتقلت قوى بتاح — بوسائل سحرية — إلى أتوم الذي باشر عملية الخلق (انظر [٦٨]، ص٥٢–٦٠).

(٢) فقه إلهيات ممفيس هو مصدر المعرفة العلمية الحديثة

(أ) التاسوع والفرض السديمي.[١]

(ب) تطابق أتوم إله الشمس Atum والذرة Atom في العلم.

(أ) تطابق التاسوع والفرض السديمي

مثلما أن فقه إلهيات ممفيس هو مصدر الفلسفة اليونانية أو العلم البدائي، كذلك فإنه — أيضًا — أساس العقيدة العلمية الحديثة، إن أرباب النظام والترتيب في الكون يمثِّلها

[١] فرض يفسر نشأة الكون، ويقضي بأن النظام الشمسي (أو الأجرام السماوية بعامة) تطورت عن سديم مخلخل البنية. والمصطلح تعبير عن فرضية لابلاس، الذي قال إن الكواكب تكوَّنت من سديم غازي متقد أو ملتهب. وإن كان الفيلسوف الألماني كانط قد افترض أن الكواكب نشأت من سديم غبار كوني، ولا تزال هذه الفرضية قائمة في تفسير النشأة الطبيعية للأجرام السماوية وغيرها من مواد كونية مثل الغبار والغاز. (المترجم)

تسعة آلهة في ربوبية واحدة تُسمَّى التاسوع. ذلك أن أتوم Atum أو Atom الإله الشمس أو إله النار يخلق ثمانية آلهة آخرين صدروا إلى الوجود حين سمَّى أربعة أزواج من أعضاء جسده، وكانت أسماء الأرباب المخلوقة هي شو وتفنوت أو الهواء والرطوبة، وجب ونوت أو الأرض والسماء، وزوجان آخران من الأضداد، أوزيريس وايزيس وست ونفتيس، الذين كان — من المفترض — أنهم — جميعًا — أول المخلوقات في هذا العالم (انظر [٦٨]، ص٥٤).

والآن إذا ما قارنَّا هذه الكوزمولوجيا (نظرية نشأة الكون وبنيته ونواميسه) المصرية مع الفرض السديمي الذي قال به لابلاس؛ سنجد أوجه تشابه مذهلة بين النصين؛ إذ يقضي الفرض السديمي أن نظامنا الشمسي الراهن كان في السابق سديمًا غازيًّا منصهرًا، ودار هذا السديم على محور بسرعة مهولة، ثم تقلصت الكتلة مع البرودة وتولدت سرعة أكبر، وأسفر هذا عن انتفاخ عند خط الاستواء، وانفصال تدريجي لحلقات غازية، تشكَّلت ذاتيًّا إلى كواكب، وأطلقت هذه الكواكب — بدورها — حلقات غازية، تشكلت هي الأخرى ذاتيًّا في صورة أجرام أصغر حجمًا إلى أن أصبحت الشمس — أخيرًا — البقية الباقية من السديم الأب الأصلي. ويبدو — واضحًا — من هذا النص أن السديم المنشأ الأصلي كان النار أو الشمس، وأنه إذ أطلق أجزاء من نفسه خلق بعض الكواكب، التي أطلقت — بدورها — أجزاء منها وخلقت غيرها. ويذهب نص فقه إلهيات ممفيس إلى أن الإله الخالق هو الإله الشمس أو الإله النار أتوم Atom أو Atum الذي سمَّى أربعة أزواج من أعضاء جسده، وصدرت عنها فورًا الأرباب.[٢]

ولكن أتوم ألَّف — مع الأرباب الثمانية المخلوقة — التاسوع أو الربوبية التساعية الواحدة. وفي هذا تشابه مذهل مع العلم الحديث، الذي يعلمنا بأن هناك تسعة كواكب رئيسية. ويمكن تلخيص أوجه التشابه هذه فيما يلي:

(أ) الإله الخالق، وهو الشمس أو النار عند المصريين، وفي الكوزمولوجيا الحديثة.

[٢] لم نشأ مناقشة هذا الرأي على الرغم مما فيه من مفارقة تاريخية، وإغفال صارخ لأسباب وظروف وتاريخية نشأة وتطور الفروض والنظريات العلمية الحديثة. ولكن تركنا حديث المؤلف على علَّاته دون نقد، خاصة وأن هذا ليس هو بيت القصيد من الكتاب، وإن كان المؤلف لا يعني أن المصريين القدماء تحدثوا بلسان علوم عصرنا الحديث. (المترجم)

(ب) الإله الخالق في كلتا النظريتين عن نشأة الكون ونواميسه (الكوزمولوجيا) يخلق الأرباب من أعضائه.

(ج) عدد الأرباب تسعة، وهو ما يتطابق مع عدد الكواكب التسعة الرئيسية، وتوضح لنا أوجه التشابه هذه أن لابلاس استمد فرضيته من فقه إلهيات ممفيس، أو من مصادر مصرية أخرى.

وطبيعي أن فقه إلهيات ممفيس، وحسب رواية فرانكفورت في كتابه «المغامرة الفكرية للإنسان القديم»، ص٥٤، لم يذكر شيئًا عن خلق الكواكب. ومع هذا فحيث إن الطريقة المصرية تمثَّلت في إخفاء الحقيقة عن طريق استخدام الأساطير وحكم وأمثال تلخص مبادئ سحرية «المنهج العلمي البدائي، وفلسفة العدد واللغة المقدسة الهيروغليفية»؛ فإن بالإمكان أن نتبين — في سهولة ويسر — أي الطرق التي استخدمت قبل أن نصل إلى ترجمة أفضل لفقه إلهيات ممفيس.

وعلى أية حال، فإن البنية العامة لفقه إلهيات ممفيس هي — في مجملها — بنية فلكية، وأي شيء يمكن أن يكون طبيعيًّا أكثر من توقع تأويل فلكي؟ ومن ثَم، فقد يبدو مقبولًا — عقلًا — النظر إلى التاسوع باعتباره نظامًا عن مركزية الشمس في التاريخ. أتوم الإله الشمس خلق ثمانية آلهة آخرين، أو الكواكب من جسده، وذلك باعتباره المحرك الذي لا يتحرك، وهذه رؤية منسوبة — زيفًا — إلى أرسطو.

(ب) التطابق بين أتوم Atum الإله الشمس المصري، وبين أتوم Atom الذرة في العلم الحديث

شيئان أود أن أبرزهما، فيما يختص بالعلاقة بين أتوم Atum الإله الشمس المصري، وبين الذرة Atom في العلم الحديث، هذان هما:

(١) تشابه الصفات. (٢) تشابه منطوق الأسماء.

(١) تشابه الصفات

الإله المصري القديم أتوم يعني خالق ذاته بذاته، وخالق الوجود والعدم، وجماع المبادئ الأساسية السالبة والموجبة.

المحيط بكل شيء والفراغ، الصانع البارئ مالك قوى الخلق، الشمس الخالقة (انظر [٦٨]، ص٥٣؛ [٨٢]، ص١٨٢).

وأتوم تعني — أيضًا — الكل، والذي لم يصبح وجودًا بعد ([٨٢]، ص١٦٨)، ويمثِّل أتوم Atum من حيث هو إله مبدأ الأضداد، وكذلك الذرة Atom في الفلسفة اليونانية هي أساس المادة. وحدد ديمقريطس معناها بقوله إنها حركة ذلك الذي أصبح موجودًا داخل ذلك الذي لم يصبح موجودًا بعد، أو لنقل إنها حركة الموجود وسط العدم. وهي — لذلك — تمثِّل مبدأ الأضداد، وتبين التطابق بين الإله الشمس المصري وبين قوام المادة. علاوة على هذا، فقد تحدد معنى الذرة بأنها «الملء والفراغ»، الوجود والعدم ([٢]، ص٣٨) وتتطابق هذه التعريفات مع كل الوجود والعدم والمحيط بكل شيء والفراغ، وهي صفات الإله الشمس المصري.

(٢) تشابه الأسماء بين الإله الشمس المصري أتوم وبين الذرة «أتوم» في العلم

والآن ونحن نتحدث عن التشابه بين هذين الاسمين حري بنا، أولًا أن نتذكر أن لكليهما صفات متطابقة، على نحو ما أشرنا من قبل. ومن ثَم نحن مضطرون إلى استنتاج أن ذرة العلم هي الاسم المطابق للإله الشمس المصري: أقدم الآلهة، فيما عدا الإله بتاح، الذي كان موجودًا مع أتوم عند الخلق. والشيء الثاني، الذي يتعين علينا أن نتذكره، هو حقيقة أن اسم الإله أتوم (الذي يُكتَب أحيانًا Atom بمعنى ذرة، وأحيانًا أخرى Atum) خاص بكوزمولوجيا أو بنظرية تفسير نشأة الكون ونواميسه، في فقه إلهيات ممفيس، والذي يرجع تاريخه إلى ٤٠٠٠ق.م. ولم يكن الإغريق معروفين في ذلك التاريخ. وبناءً عليه، لا مناص من استنتاج أن الإغريق حصلوا على الاسم الأصلي، وعلى صفات الإله الشمس أتوم من المصريين.

إضافة إلى ما سبق، لم يكن لدى الإغريق دراية باللغة المصرية خلال الفترة التاريخية الخاصة بما يُسمى الفلسفة اليونانية، والتي يرجع تاريخها إلى القرن السادس ق.م. ونتيجة لذلك، فقد نقلوا منطوق أحرف الكلمات المصرية، دون اعتبار لمشتقاتها القبطية. ونورد، فيما يلي، روايات هومير التي تؤكد صحة ممارسة الإغريق لعملية نقل منطوق أحرف الكلمات المصرية، وانتحال الأساطير المصرية.

(أ) يروي هومير أن بروتيوس كان إلهًا بحريًّا يطعم بلدته فوكاي على الشاطئ المصري، وأنه كان يتمتع بموهبة التنبؤ بالغيب الذي كان يمارسه اضطرارًا، ولكن بروتيوس كان فرعونًا مصريًّا ارتقى العرش خلفًا للفرعون فيرون بن سيزوستريس عقب

وفاته، وكان بروتيوس معبودًا في ممفيس، والملاحظ أن الإغريق لم يكتفوا بترجمة منطوق أحرف اسم هذا الملك المصري، بل انتحلوه في الأسطورة ([٣١]، ص١١، ١١٢).

(ب) وهناك بالمثل قصة يو الأميرة الأرجوسية (نسبة إلى أرجوس، وهي مدينة قديمة تقع في الجنوب الشرقي من بلاد اليونان. (المترجم)) التي تحوَّلت إلى بقرة صغيرة، وبعد تطواف — على غير هدى — وصلت إلى مصر، حيث أنجبت إلهًا، وحيث عبدوها هناك باعتبارها الإلهة إيزيس. هذه القصة تشير — بوضوح — إلى دخول عبادة الإلهة إيزيس أو أثور مرموزًا إليها ببقرة خلال فترة قديمة من تاريخ المدينة أرجوس. ويتعين أن نوضح هنا أن الاسم يو io هو الاسم القبطي للقمر، وأن الكلمة ذاتها بقيت في لهجة أرجوس، دون أي علاقة لها بأي جذر إغريقي. وكانت عادة الإغريق إضفاء الصبغة الهللينية على الكلمات المصرية، وذلك بنقل منطوق الأحرف المصرية وفقًا للنطق الإغريقي، وإضافتها إلى مفردات اللغة اليونانية.

(ج) واستمرت عادة استعارة كلمات من البلدان المجاورة حتى زمن العهد القديم. ففي أعمال الرسل في العهد الجديد اليوناني، الإصحاح ١٣: الآية ١، نجد كلمة نيجر Niger (أي إنسان أسود) ضمن اسم سيمون الزنجي هي كلمة رومانية أو لاتينية Nigrum و Nigra و Niger وتعني أسود. وكان سيمون، بطبيعة الحال، أستاذًا مصريًّا التحق بكنيسة روما.

وذرة العلم، هي في واقع الأمر اسم الإله الشمس المصري، وقد انحدر إلى عصرنا الحديث عبر ما سُمِّي بالفلسفة اليونانية، ويحمل هذا الاسم نفس صفات الإله الشمس (انظر [٧]، ١، ٢٩؛ [٢٤]، ج٢، ص٥–٢٥).

ملحوظة

يجب ألا ننسى أن ما نسميه — خطأ — الفلسفة اليونانية كان بداية العلم أو بداية بحث الطبيعة، ومن ثَم ليس لنا أن نفصل العلم الحديث عن الفلسفة اليونانية.

(٣) فقه إلهيات ممفيس يتيح إمكانات كبيرة للبحث العلمي الحديث

(أ) خطأ المفهوم الإغريقي لمعنى ذرة.

اشتق اليونانيون — قديمًا — معنى الذرة من:

(١) ألفا Alpha أي من بادئة سالبة للكلمات تعني لا أو ليس.

(٢) من «تمنين Temnein» أي مصدر الفعل الحاضر من تمنو Tomno، وتعني يقطع. والاشتقاقان — معًا — في كلمة واحدة يعنيان ذلك الذي لا يمكن فصمه أو قطعه.

وظل العالم — قرونًا طويلة — مضللًا بهذا الفهم الخاطئ للإغريق، وهذه حقيقة أعاقت — دون ريب — تقدم البحث الذري على أيدي الباحثين الغربيين الذين صدقوا المنشأ اليوناني للفلسفة أو العلم البدائي.

ولكن المفهوم الإغريقي للذرة لم يعد مقبولًا اليوم، بعد أن نجح العلم في تحطيم الذرة.

(ب) أسرار علمية كبرى في فقه إلهيات ممفيس بحاجة إلى اكتشاف.

أعتقد أنه قد حان الوقت الذي يتسنى فيه للإنسان أن يكشف أغلب أسرار الطبيعة الخافية عنه حتى الآن، وقد أوضحت أن الفرض السديمي في العصر الحديث يتطابق مع تعاليم فقه إلهيات ممفيس، الذي يقول إن أتوم الإله الشمس خلق ثمانية آلهة آخرين، وألَّفوا — معًا، في وحدتهم مع الإله الأكبر — التاسوع المصري، الأمر الذي يتطابق مع الكواكب التسعة الكبرى في تعاليم العلم الحديث .

ونحن نعرف كذلك أنه ظهر زوج من الآلهة من بين العماء الكوني الأزلي ومحيط الماء الأزلي، وهذان الإلهان هما التل الأبدي وأتوم الإله الشمس. ونعرف أنه، من خلال اتصال أتوم بالتل، تلقى — سبحانه — قوةً خلق بها الكواكب الثمانية الرئيسية الأخرى، وهذا يشير في ظاهره إلى:

(١) الطاقة الذرية تولَّدت — أصلًا — من الماء والأرض، حيث إن أ يد ٢ واليورانيوم يمثِّلان مقومًا أساسيًّا لا غنى عنه في الطاقة الذرية، ونجده في باطن الأرض. ونلاحظ أن كلًّا من أتوم والتل صدرا عن محيط الماء الأزلي.

(٢) أربعة أزواج من الأرباب يمثلون مبدأي السالب والموجب لا يزالان في الماء في صورة ذكور وإناث الضفادع والثعابين، ويؤلفون أربعة أخماس أسرار الخلق التي يتعين على الإنسان سبر أغوارها.

(٣) البحث العلمي الناجح في مبادئ وأسرار الطبيعة يكمن في دراسة فقه إلهيات ممفيس، والذي يستلزم تأويل طلاسمه ورموزه الاستعانة بمفتاح مبادئ السحر.

ويستطيع رجال العلم، بفضل هذا النهج، أن يفتحوا الأبواب المغلقة دون أسرار الطبيعة؛ وبذا يغدون أمناء على معارف لا حدود لها.

ههذا هو تراث القارة الأفريقية إلى أمم العالم. لقد أرست هذه القارة الأسس الثقافية للتقدم الحديث، ومن ثَم، فإنها — هي وأهلها — جديرون بالتكريم والثناء اللذين أُسبِغا — زيفًا — على اليونانيين القدماء، قرونًا طويلة. كذلك فإن الهدف من هذا الكتاب أن يجعل من هذا الكشف المفاجأة بداية لحركة إصلاح عالمية فيما يخص العلاقات بين الأعراق.

وإني على ثقة من أن هذا الإصلاح سيكون بداية لحل مشكلة القلاقل العالمية.

الجزء الثاني

الفصل التاسع

الإصلاح الاجتماعي من خلال فلسفة جديدة لتحرير أفريقيا

الآن، وقد وضح أن الفلسفة والفنون والعلوم إنما ورثتها الحضارة عن شعب شمال أفريقيا، وليس عن شعب اليونان، أصبح لزامًا — تصحيحًا للوضع — أن يتحوَّل بندول الثناء والتكريم من شعب اليونان إلى شعب القارة الأفريقية، الورثة الحقيقيين والجديرين بهذا الثناء والتكريم.

وسوف يعني هذا تحولًا مهولًا في رأي العالم وفي موقفه؛ إذ يتعين على كل الشعوب والأعراق الذين قبلوا فلسفة الوفاء والانعتاق لأفريقيا الجديدة، أي قبول حقيقة أن الإغريق ليسوا أصحاب الفلسفة اليونانية، وإنما أصحابها شعب شمال أفريقيا. وهذا من شأنه أن يغيِّر رأي العالم ليتحول من تحقير إلى احترام للشعوب السوداء، في جميع أنحاء العالم، وأن يعاملوهم على هذا الأساس.

وسوف يعني — أيضًا — تحولًا — هو الأخطر شأنًا — في عقلية الشعوب السوداء؛ تحوُّل من عقدة النقص إلى إدراك ووعي بأنهم أنداد لشعوب العالم العظيمة الأخرى الذين شيدوا حضارات عظيمة، وإن هذا التحول في عقلية الشعوب السوداء والبيضاء سيفضي إلى تحولات هامة عظيمة في مواقف كل تجاه بعضهم البعض، وفي المجتمع إجمالًا.

شهدت دراما الفلسفة الإغريقية ثلاثة ممثلين أو عناصر فاعلة، أدوا — جميعًا — أدوارًا متمايزة، ونعني بهم الإسكندر الأكبر، الذي شنَّ عدوانًا غزا به مصر عام ٣٣٣ق.م. ونهب المكتبة الملكية بالإسكندرية، هو ورفاقه وأخذوها غنيمة حرب، واستولى هو ورفاقه على كنوز من الكتب العلمية والفلسفية والدينية. وهكذا سرقوا مصر وضمُّوها إلى إمبراطورية الإسكندر ولاية تابعة، ولكن خطة الغزو تضمنت ما هو أكثر — كثيرًا — من مجرد التوسع الإقليمي؛ ذلك لأنه مهَّد ويسَّر سبل الاستيلاء على ثقافة القارة

الأفريقية. وينقلنا هذا إلى الفاعل الثاني، ونعني به مدرسة أرسطو التي انتقل تلامذتها من أثينا إلى مصر، وحوَّلوا المكتبة الملكية — أول الأمر — إلى مركز أبحاث، ثم بعد ذلك إلى جامعة، وأخيرًا، وفي المرة الثالثة، جمعوا كم المعارف العلمية الهائلة التي اكتسبوها عن طريق البحث، هي والتعاليم الشفاهية التي تلقاها التلاميذ اليونانيون على أيدي الكهنة المصريين، وصنَّفوا حصاد هذا كله فيما سمَّوه تاريخ الفلسفة اليونانية.

وهكذا سرق الإغريق تراث القارة الأفريقية، وادَّعوه لأنفسهم. وكما أشرنا — آنفًا — أسفرت هذه الخيانة للأمانة عن اختلاق رأي عالمي خاطئ، وخلاصة هذا الرأي أن القارة الأفريقية لم تسهم بنصيب في الحضارة لأن شعوبها متخلفة ومنحطو الذكاء والثقافة.

هذا الرأي الخاطئ عن الشعوب السوداء قد أساء إليهم إساءة خطيرة على مدى القرون الماضية حتى عصرنا الراهن؛ حيث بلغت هذه الإساءة ذروتها في تاريخ العلاقات البشرية. وننتقل الآن إلى العامل الثالث، ونعني به روما القديمة التي ألغت نظام الأسرار السائد في القارة الأفريقية عن طريق مرسوم الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس، في القرن الرابع الميلادي، ومرسوم الإمبراطور جوستنيان في القرن السادس الميلادي. ولقد كان نظام الأسرار هو النظام الثقافي في العالم القديم. إن المبادئ الميتافيزيقية الأسمى لنظم الأسرار تلك ليس بالإمكان استيعابها وفهمها، وتفيد أن الكهنة كانوا يتمتعون بقوًى روحية خارقة، هذا فضلًا عن أن السحر المقترن بالشعائر والاحتفالات ملأ نفوس الناس رهبة. ولقد كانت مصر الأرض المقدسة في العالم القديم، وكان نظام الأسرار المصري هو العقيدة الدينية القديمة العالمية والمقدسة وصاحب السلطان والهيمنة العليا. وإن هذا النظام الثقافي الرفيع للشعب الأسود ملأ روما حقدًا. وبناء على هذا، شرَّعت المسيحية، التي ظلَّت تضطهدها طوال خمسة قرون، وفرضتها — باعتبارها دين الدولة والمنافس لنظام الأسرار — على الرغم من أنه هو الأم. وهذا هو السبب في نظرة الازدراء لنظام الأسرار. ولهذا السبب — أيضًا — ينظرون بازدراء إلى الديانات القديمة الأخرى للشعوب السوداء؛ حيث إنهم — جميعًا — من ذرية نظام الأسرار الأفريقي، الذي لم يفهمه — أبدًا وبوضوحٍ — الأوروبيون، واستثار هذا في الأوروبيين حقدهم واحتقارهم.

وحرص ثيودوسيوس وجوستنيان على الالتزام بسنة الأباطرة الآخرين، ومن ثَم عمدوا إلى أن يستأصلوا ويقمعوا — مرة وإلى الأبد — ثقافة القارة الأفريقية. وفي سبيل ذلك أقامت الكنيسة المسيحية مشروعها التبشيري لمحاربة ما أسمته الديانة الوثنية. وبناء

على هذا انطلقت الإرساليات التبشيرية إلى ميادين التبشير، تحفزهم عقدة التفوق وليدة التعليم الخاطئ ومشاعر الازدراء، وأدى هذا الانحياز إلى أن أصبح من رابع المستحيلات إنجاز الأمجاد والبركات، التي كان بإمكان مشروع الإرساليات التبشيرية أن ينجزه على نحو آخر. ولهذه الأسباب نرى أن مشروع الإرساليات التبشيرية هو المسئول عن الأضرار التي لحقت بالشعوب الأفريقية، والتي تتمثل — أساسًا — في تلك الصورة الساخرة التي اصطنعت للثقافة الأفريقية، في الآداب وفي المعارض، وهي صورة تستثير الضحك والازدراء. وليس هذا سوى تلخيص موجز للأدوار التي لعبها أشخاص مسرحية الفلسفة الإغريقية، والآثار الناجمة عنها، والتي أضرَّت بالشعوب السوداء. ويمكن أن نسمي هذه المسرحية قضية القضايا Causa causarum في الأزمة الاجتماعية للشعوب المتحررة من أفريقيا. ذلك لأنها جعلت الأعراق البيضاء والسوداء ليسوا فقط ضحايا مشتركة لتراث عرقي زائف عن القارة الأفريقية، بل وشركاء في حل مشكلة ما يمكن أن نسميه إصلاح الوضع بين الأعراق.

وأعتقد أن إصلاحًا من هذا النوع ممكن إذا ما تعاونت خيرة العقول من أبناء الفريقين العرقيين في سبيل إنجاز هذا الهدف. لقد كان كلا الفريقين ضحية معًا لتعليم شائه نابع من تراث زائف عن قارة أفريقيا، أفضى إلى تولد مواقف واتجاهات تتسق مع هذا الاعتقاد المشترك؛ الشعوب البيضاء وعقدة التفوق، والشعوب السوداء وعقدة النقص المقابلة لتلك. وإذا شئنا إنجاز إصلاح في العلاقات بين الأعراق، فمن الواضح أنه سيكون لزامًا على كل من العرقين — الأسود والأبيض — حشد جهودهما في سبيل التخلي عن هذه العقلية وتدميرها، وهي العقلية التي أودت بالشعوب السوداء إلى مهاوي الأزمة الاجتماعية التي يعانون منها .

وأرى أن يتم هذا من خلال غرس ونشر الحقيقة في كل أنحاء العالم، عن طريق نظام لإعادة التعليم، يستحث ويشجع على تغيير اتجاهات ومواقف كل من العرقين تجاه الآخر، ثم، وفي سبيل حشد الجهود يتعين على كلا العرقين ألَّا يقنعا بالمواعظ وتعليم الحقيقة، التي تؤكد أن نظام الأسرار في القارة الأفريقية وَهَبَ العالم الفلسفة والدين والفنون والعلوم، بل والسعي جاهدين من أجل محو كل مظاهر الثناء — الزائفة — للإغريق من الكتب الدراسية في مدارسنا وجامعاتنا؛ إذ إن هذا الأسلوب — في الممارسة — هو الذي طمس الحقيقة، وأخفاها عن العالم، ووضع الأسس للعلاقات المؤسفة بين الأعراق في العالم الحديث.

(أ) إذ يجب — على سبيل المثال — شطب اسم فيثاغورس من كتب الرياضيات المدرسية، فالشائع في هذه الكتب أن نظرية المربع القائم على وتر المثلث قائم الزاوية توصف بأنها نظرية فيثاغورس، وهو قول غير صحيح.

(ب) يجب أن توضح للعالم الخداع الماثل في القول إن سقراط صاحب شعار «أيها الإنسان اعرف نفسك»، أو كذلك في القول إن أفلاطون صاحب فكرة الفضائل الأربع الرئيسية هذا طالما وأن سقراط عرف شعار اعرف نفسك من المعابد المصرية الذي كان منقوشًا على جدرانها، وأفلاطون اختزل الفضائل العشر إلى أربع، وهي الفضائل التي كان يدعو لها نظام الأسرار في شمال أفريقيا.

(ج) ويجب أن نبرهن للعالم أن مبادئ ما يسمى الفلسفة اليونانية إنما نشأت في أحضان نظام الأسرار القديم في شمال أفريقيا، هذا البرهان عرضناه في الفصول ٥، ٦، ٧، ٨ من كتاب «التراث المسروق».

وحتى نضطلع بحربنا الصليبية على اتساع العالم كله نوصي بإقرار كتاب «التراث المسروق» وتدريسه في المدارس والجامعات لجميع الشعوب، التي تضم العرقين، الأبيض والأسود، وإشاعته بين الجماعات؛ حتى يتسنى لجميع أبناء جيلنا — شبابًا وشيوخًا — معرفة الحقيقة، ومن ثم يستطيعون نقله إلى أجيال المستقبل. وأعتقد أن هذه الطريقة ذات فائدة جمة؛ إذ تساعد على جعل عملية إعادة التربية والتعليم عملية عالمية وفعالة في سبيل إنجاز الإصلاح اللازم بإلحاح في العلاقات بين العرقين. إن الشعوب البيضاء — في عصرنا الحديث — لا يمكن اعتبارها وحدها المسئولة — جميعها وبالكامل — عن الأوضاع الاجتماعية الناجمة عن التراث العرقي الزائف، فإن هذا هو ما يجعل العلاقات العرقية تحديًا يواجه أفضل العقول لدى الجماعات العرقية من الجانبين بغية حشد الجهود وصولًا إلى حل للمشكلة.

ولكن ثمة علة أخرى وراء علاقاتنا العرقية المضطربة والمتردية، وأود أن أقرر هنا أن هذه علة تكميلية ومؤكِّدة لما ذهبنا إليه؛ ذلك لأن التراث الزائف عن تخلف القارة الأفريقية، وهو التراث الذي اختلقه الإسكندر الأكبر ومدرسة أرسطو، قد ضخمته الآداب والبعثات التبشيرية، مثلما ضاعفت منه إرادة أباطرة الرومان، واتخذوه — جميعًا — مصدرًا للسخرية والازدراء، وليس ثمة شك في أن هذه السياسة خلقت مرارة واستياءً في عقول المواطنين الذين اضطروا إلى الشك في إخلاص البعثات التبشيرية يم، واكتسب — في هذه الأثناء — المشروع التبشيري تعاطفًا ودعمًا من عالم تعلَّم تعليمًا شائهًا ومضللًا بغية المضي — قُدمًا — في برنامجه.

وما الذي يمكن أن نعمله من أجل استئصال هذا الشر الثاني والأكثر خبثًا؛ التهويل من تراث زائف ليبدو وكأنه حقيقة واقعة؟ أقترح ما دام التبشير يعمد إلى التهويل من شأن تراث زائف حتى يتسنى له أن يقتنع به هو نفسه أيضًا، لذلك يتعين أن تتضافر جهودنا، أولًا، من أجل إعادة تعليم القائمين به حتى يعرفون هم الحقيقة، ويغيرون من مشاعر عقدة التفوق في نفوسهم، والمسئولة عن تلك السياسة الخاطئة التي انتهجوها. وإعادة التربية والتعليم هنا لن تقوم فقط على أساس دراسة شاملة للأفكار والحجج الواردة في كتاب «التراث المسروق»، بل تقوم كذلك على التثقيف تثقيفًا خاصًّا على لغة وأعراف وعادات الأفريقيين ومُثُلهم العليا، حتى نغرس فيهم موقف الاحترام لثقافة القارة الأفريقية باعتبارها الثقافة الأقدم للبشرية، وباعتبار تلك القارة مهد ومهبط نظم الأسرار القديمة. وحين يتهيأ عالم مستنير إزاء الحقيقة الواقعة بشأن مكانة القارة الأفريقية في تاريخ الحضارات فسوف ينتفي دور التراث الزائف، وينتهي الإيمان به، وتختفي مشاعر الازدراء والانحياز، وتنزع العلاقات العرقية إلى أن تكون علاقات سوية وسلمية.

يقودنا هذا إلى المشكلة الأخيرة، وهي مشكلة الوفاء والانعتاق لأفريقيا. إن هدف كتاب «التراث المسروق» ليس فقط الحث على إصلاح العلاقات بين العرقين الأبيض والأسود، وتصحيح وضع البحث العلمي، بل هدفه — أيضًا — غرس مشاعر كبرياء عرقي في نفوس السود أنفسهم، وأن يقدم لهم فلسفة جديدة مرتكزها الوفاء والتحرير لأفريقيا، باعتبارها نموذجًا للعمل المنشود من أجل إنجاز الإصلاح بين الأعراق.

وفلسفة الوفاء والتحرير الجديدة هذه قوامها فرض بسيط هو ما يلي:

«الإغريق ليسوا هم أصحاب الفلسفة اليونانية، وإنما أصحابها الشعب الأسود في شمال أفريقيا وهم المصريون.»

والآن، لكي نوضح قيمة هذا الطرح، يتعين أن نسأل ثلاثة أسئلة، وأن نجيب عليها:

(أ) من حيث هو طرح بسيط ما هي أهميته ودلالته؟

تكمن أهميته في أنه بيان يقرر حقيقة هامة، هي فضح التضليل الإغريقي.

(ب) لماذا نسمي هذا الطرح فلسفة؟

الفلسفة اعتقاد مقبول، وهذا الطرح فلسفة لأنه معروض باعتباره اعتقادًا جديرًا بأن يكون موضع قبول.

(جـ) ما هي فلسفة الوفاء والتحرير؟

فلسفة الوفاء والتحرير ليست مجرد قبول اعتقاد، بل هي اعتقاد يحيا — أيضًا — ابتغاء الاستمتاع بمنافع تعلُّمه.

وهذا الطرح سبيله إلى أن يكون فلسفة وفاء وتحرير لجميع أبناء الشعوب السوداء حين يرتضونها اعتقادًا، ويحيا لتحقيق موضوعه وهدفه، ويسلمنا هذا إلى سؤالنا الأخير، وهو كيف نضطلع بفلسفة الوفاء والتحرير هذه؟ أو بعبارة أخرى، كيف سيعمل الشعب الأسود وصولًا إلى خلاصه؟

ويتعين منذ البداية تذكرة قرائي ومعاوني في سبيل حل مشكلة عامة، أن فلسفة الوفاء والتحرير التي نقترحها هي عملية سيكولوجية تنطوي على تغير الاعتقاد أو الذهنية، لكي يعقبها تغيير مطابق في السلوك. إنها تعني — حقًّا وصدقًا — تحريرًا عقليًّا يتحرر فيه الشعب الأسود من أغلال الزيف التقليدي، الذي أبقاهم — قرونًا طويلة — أسرى سجن عقدة النقص والمرذلة والاحتقار، ويجب ألَّا ننسى أن هذا التحرير أو الانعتاق الذهني له وظيفتان، أنه من ناحية تحرير عام عندما ننظر إلى ظاهرة علاقاتنا العرقية الضارة باعتبارها مشكلة عامة بحاجة إلى تحرر كلا العرقين بغية الوصول إلى حل. وحسب هذا المعنى العام يتجاوز التحرير حدود ومعالم العرق، ومن ثَم يتسع مداه ليشمل العالم كله، شعوبًا بيضاء وسوداء معًا، ما دمنا جميعًا ضحايا نفس أغلال الزيف التقليدي، الذي وضع العالم الحديث أسيرًا له. والتحرير أو الانعتاق هو، من ناحية أخرى، عملية خاصة ونوعية، وذلك عندما نشير إلى النتائج المترتبة على ظاهرة العلاقات العرقية الضارة، وأثرها على الشعوب السوداء، إنه حرية أو تحرر من قيود هذه الأوضاع، وهذه الحرية هي قوام الوظيفة النوعية والخاصة بالتحرير أو الانعتاق.

لقد استطردنا قليلًا في حديثنا بهدف بيان معنى مصطلحي فلسفة وفلسفة التحرير اعتقادًا منَّا بضرورة ذلك قبل الشروع في الإجابة على السؤال التالي: كيف نضطلع بفلسفة التحرير والوفاء الجديدة هذه؟ وكيف يتعيَّن إنجازها؟

يتعين بداية تحرير الشعوب السوداء من عقدة النقص الحاكمة لهم عن طريق فلسفة جديدة هي فلسفة التحرير والوفاء، والتي استهدفت تحطيم أغلال التراث الزائف الذي وضعهم أسرى له، بعد ذلك يجب أن يواجهوا ويفسروا العالم وفقًا لرؤيتهم وفلسفتهم الجديدة. إن الملاحظ على مدى القرون الماضية، وحتى عصرنا الحديث، أن الظروف العالمية تأثرت بظاهرتين، أثَّرتا — بدورهما — على العلاقات الإنسانية:

(١) توجيه ثناء زائف إلى الإغريق: وهذه عادة أو تقليد يبدو أنه سياسة تعليمية تربوية أحكمتها ووجَّهتها المؤسسات التعليمية، وأفضى هذا إلى عبادة زائفة وخادعة لكل من سقراط وأفلاطون وأرسطو، باعتبارهم أرباب الفكر والعقل في جميع الجامعات

الكبرى في العالم. وفي سبيل دعم هذه العبادة الفكرية عمدت تلك المؤسسات — أيضًا — إلى تنظيم ما يُعرف باسم جماعات الأُخوَّة والأخوات اليونانية المثقفة، باعتبارها رموزًا لتفوق العقل والثقافة اليونانيين.

(٢) الظاهرة الثانية هي المشروع التبشيري الذي أفضى إلى صياغة ثقافة الشعب الأسود صياغة ساخرة في الآداب وفي المعارض، على نحوٍ يستثير الازدراء والسخرية، ودعونا لا ننسى — أبدًا — أن اثنين من أباطرة الرومان، هما ثيودوسيوس وجوستنيان، مسئولان عن إلغاء نظم الأسرار المصرية، أي القضاء على النظام الثقافي للشعب الأسود، ومسئولان — كذلك — عن التدعيم الرسمي للمسيحية؛ لضمان قهر تلك الثقافة إلى الأبد.

ودعونا — بالمثل — لا ننسى — أبدًا — ونحن نستعرض هذه الفترة القصيرة من التاريخ أن اليونانيين كانوا يسمون المصريين Hoi Aiguptoi والتي تعني الشعب الأسود. ووصولًا إلى فلسفة التحرير الجديدة هذه، ستغدو حياة الشعب الأسود حياة مناهضة لهاتين المجموعتين من الأوضاع. إذ يتعين في المقام الأول أن يتخذ أبناء الشعوب السوداء موقفًا سالبًا تجاه هذا النمط من الظواهر، بعد أن أصبحوا واعين — تمامًا — بأن هذه الظواهر هي نتاج تراث زائف، ولذلك يشاركون — أيضًا — في طبيعة الزيف والخداع. والتزامًا بهذا الموقف السالب يجب على أبناء الشعب الأسود تجنُّب التراث الزائف، وأن يعلِّموا أبناءهم الحقيقة، التي هي فلسفة الانعتاق والتحرر الجديد، ويتعيَّن البدء بتنفيذ ذلك من البيت، مع الأطفال في سن التنشئة، وفي المدارس والمعاهد والكليات مع الطلاب، وفي المحافل والنوادي وأماكن التجمعات من الرجال والنساء والشباب. وحيث إن فلسفة الانعتاق والتحرر والوفاء الجديدة هي كشف عن الحقيقة في تاريخ حضارة الشعب الأسود؛ فإنه لا بد وأن تمثِّل جزءًا ضروريًّا ولازمًا في نظامهم التعليمي، ويجب تعليمها على مدى أجيال وقرون قادمة، حتى يكون ذلك مصدر إلهام وكبرياء وتحرير لهم من العبودية العقلية. ثانيًا، يجب على أبناء الشعوب السوداء، في هذا الموقف السالب، أن يؤكدوا — بالدليل القاطع — رفضهم وكفرهم بالعبادة الزائفة للعقل اليوناني، ويتأتى هذا بالطرق الثلاث التالية:

(أ) يجب الكف عن عادة الاقتباس من سقراط وأفلاطون وأرسطو باعتبارهم نماذج للتفكير العقلي، بعد أن عرفنا أن فلسفاتهم فلسفات مسروقة.

(ب) يجب التخلي عن العضوية في كل جمعيات الأُخوَّة والأخوات اليونانية الثقافية.

(ج) يجب إلغاء كل جمعيات الأُخوَّة والأخوات اليونانية الثقافية من معاهد الملونين؛ لأنها كانت أحد مصادر دعم عقدة النقص، وتعليم أبناء الشعب الأسود ما يناقض تاريخهم ويعارض مصلحتهم.

ونصل الآن إلى مناهضة مجموعة الظواهر الثانية، وهي النشاط التبشيري في الآداب الشائه، وفي المعارض سيئة السمعة، التي تستثير الازدراء والسخرية من الشعوب السوداء.

إن ما حدث للمجموعة الأولى من الظواهر هو عينة بالنسبة للمجموعة الثانية؛ حيث يجب على أبناء الشعب الأسود اتخاذ موقف سالب في محاولتهم الاضطلاع بفلسفة التحرر والوفاء هذه. وطبيعي أنهم يدركون — تمامًا — أن أنشطة الإرساليات التبشيرية هي نتاج تعليمهم الشائه عن تراث زائف خاص بالشعب الأسود.

ولكن حيث إن مشكلتهم هي — أيضًا — مشكلة تحرر من شرور اجتماعية معينة؛ لذلك فإن أبناء الشعب الأسود منوط بهم تغيير سياسة التبشير. ولهذه الأسباب أقترح أن يقوم الموقف السالب لأبناء الشعب الأسود على أساس؛ أولًا مقاطعة الآداب التبشيرية ومعارضتها، وثانيًا، المعارضة — دائمًا وأبدًا — ضد أشكال السياسة التبشيرية إلى أن يحدث تغيير فيها. إذ ما دام المشروع التبشيري مبقيًا على سياسة الاشتباك القتالي ضد الثقافة الأفريقية؛ سيظل الشعب الأسود موضع ازدراء. وإن أقل ما يستحقه أبناء الشعب الأسود؛ معاملة محترمة لأنهم ممثِّلو أقدم حضارة في العالم، والتي استعارت منها جميع الثقافات الأخرى. ولكم شاهدت وطالعت في مجلات لأبرشيات تابعة لبعض الكنائس الأوروبية صورًا تتضمن الوصف التالي: رئيسًا أفريقيًّا غطى رأسه بقبعة جديدة من الحرير، ولكنه لا يرتدي سروالًا أو معطفًا وحافي القدمين. ولعل الهدف من ذلك إدخال السرور على نفوس أعضاء الأبرشية، واستثارة عطفهم ورثائهم، وهذا هو ما يجب، على أبناء الشعب الأسود، أن يناهضوه ويحتجُّوا عليه، وهذا ما يجب عليهم أن يفعلوه للنهوض بفلسفة التحرير والوفاء وإنجازها.

صفوة القول إن علينا أن نتذكر أن الوضع التعس للكنيسة الحديثة في ارتباطها بدراما الفلسفة اليونانية ممكن اغتفاره؛ لأن وظيفتها التبشيرية قامت بناء على أوامر ومراسيم خاطئة للسلطة الأمنية، ممثَّلة في الأمراء والأباطرة الذين كانت لهم السيادة على الكنيسة وقتما كانت إحدى إدارات الدولة. وهذه الفترة القصيرة من التاريخ الكنسي كانت — ولا ريب — معروفة لدى الأفرع الأولى للكنيسة المسيحية؛ ومن ثَم كانوا هم العناصر

الذين توقع منهم، عصرنا التنويري، أن يشرعوا في إحداث تغيير في السياسة التبشيرية، التي يمكن أن تحررهم من الخطأ والخرافة في العلاقات البشرية.

وحري بأن تقتدي البروتستانتية بمسيرة الأفرع المختلفة للكاثوليكية في هذا الاتجاه، وهو ما يعني أن تتوحد جميع الكنائس في بقاع الأرض، وتنضم إلى هذه الحركة الإصلاحية لإصلاح الوضع بين الأعراق، وتنقل إلى مجال التبشير إنجيلًا عمليًّا يستهدف السعادة البشرية هنا على الأرض ... إنجيلًا يعنيه الرفاه الكامل لكل الشعوب. إن كتابًا مقدسًا ينكر على المواطنين حقوقهم الاجتماعية والاقتصادية، ويؤكد السعادة فقط في عالم آخر، إنما هو أحادي الجانب ومناهض للمسيحية، عقيدة فكرية وممارسة عملية. إن المسيحية الأولى هي التي أقامت نظامًا يستهدف — صراحة — حل المشكلات الاقتصادية لأنصارها؛ حتى يمكنهم أن يبدءوا في حياتهم على الأرض تجربة السعادة بمعناها الحق.

ومن الواضح أن المستهدف أن يتسع نطاق الدين ليتطابق مع حاجات الإنسان، وما لم تغير العقيدة المسيحية من سياستها التبشيرية إزاء ثقافة الشعوب السوداء ذات الأصالة التاريخية؛ سيكون عسيرًا عليهم التحرر — كاملًا — من المضار الاجتماعية التي خلَّفتها لهم روما القديمة.

ملحق

هدف هذا الملحق هو عرض تحليل موجز، وفكرة مختصرة للحجج والاستنتاجات والاستدلالات ذات الصلة بموضوعنا الذي تناولناه، والمأمول كذلك أن يفيد بالنسبة لهدف آخر ثانوي، وهو التبسيط.

الحجة ١: الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة

نظرًا لأن التاريخ يروي لنا.

(١) أن تعاليم نظام الأسرار المصري انتقل من مصر إلى جزيرة ساموس، ومن ساموس إلى كروتون وإيليا في إيطاليا، وأخيرًا من إيطاليا إلى أثينا في اليونان، عن طريق فيثاغورس والإيليين وفلاسفة أيونيا المتأخرين. وبناء على هذا، كانت مصر هي المصدر الحقيقي للتعاليم السرية. ومن ثَم، فإن أي زعم ادَّعاه الإغريق القدماء عن أنهم هم المصدر والمنشأ ليس فقط زعمًا خاطئًا مجافيًا للحقيقة، بل قائمًا على دوافع تضليلية غير أمينة.

(٢) يعرض كذلك التاريخ الحياة والتعليم في القرون الأولى لفلاسفة اليونان، باعتبارها صفحة بيضاء خالية من أي معالم أو إشارات، كما يعرض أحداث التاريخ باعتبارها ضربًا من التخمين. ومن ثَم أعطى التاريخ العالم فكرة أن الفلاسفة اليونانيين، باستثناء الثلاثة الأثينيين، ربما لم يكن لهم وجود البتة، وربما لم يعلِّموا أبدًا المبادئ المنسوبة إليهم. أو لنقل — بعبارة أخرى — إن التاريخ يعرض فلاسفة ما قبل سقراط في صورة أشخاص مشكوك في وجودهم أصلًا، وأنه في ضوء تلك الملابسات يمكن القول

إنهم لم يبدعوا فلسفة، مثلما لا يمكن الزعم بأنهم — حقًّا — أصحاب ما هو منسوب إليهم، إلا أن يكون وصلهم بوسائل مثيرة للشك وخادعة.

(٣) يبدو أن تصنيف الفلسفة اليونانية كان فكرة أرسطو وإنجاز خريجي مدرسته، ولم تكن الحركة مأذونًا بها من السلطة الحاكمة اليونانية، التي اعتادت كراهية واضطهاد الفلسفة لأنها مصرية وأجنبية. وأن تنظيم وتوجيه، وإدارة، وتشغيل نظام الأسرار أعطى المصريين حق ملكية الفلسفة، وبالتالي فإن أي ادعاء من جانب اليونانيين القدماء بأنهم أصحاب الفلسفة يجب النظر إليه باعتباره ادعاء غير مشروعٍ وباطلًا ومضللًا.

الحجة ٢: الفلسفة الإغريقية المزعومة كانت غريبة على الإغريق

والأسباب:

(١) فترة الفلسفة الإغريقية (من طاليس إلى أرسطو) كانت فترة حروب داخلية بين الدول-المدن ذاتها، وحروب خارجية ضد عدوهم المشترك؛ الفرس. وكان الإغريق ضحايا نزاعات داخلية أبدية، وخوف أبدي من أن يقضي عليهم عدوهم المشترك، ولم يكن لديهم وقت ينذرونه لدراسة الطبيعة؛ إذ إن هذا يحتاج إلى أغنياء وطبقة من ذوي الثراء والفراغ، ولكنهم كانوا فقراء على نحوٍ يحُول دون انكبابهم على مثل هذا العمل. وهذا أحد الأسباب في أن الفلاسفة الإغريق كانوا قلة محدودة للغاية، وفي أن الإغريق لم يكونوا على دراية بالفلسفة.

(٢) لم يكن لدى الإغريق القدرة الوطنية الأصيلة لاستحداث وتطوير فلسفة، وإن موت أرسطو، الذي ورث كمية هائلة من الكتب عن مكتبة الإسكندرية، والتي وصلته بفضل صداقته للإسكندر الأكبر، هذا الموت أعقبه — أيضًا — موت الفلسفة الإغريقية، التي سرعان ما تحللت، وتحوَّلت إلى نظام من الأفكار المستعارة الذي عُرِف باسم التلفيقية. ولم يتضمن هذا النظام فكرًا جديدًا، على الرغم من توفر ثروة هائلة من المعارف التي حصلوا عليها بفضل الصداقة التي جمعت بين الإسكندر وأرسطو، واحتلال الإسكندر لمصر.

(٣) رفض الإغريق الفلسفة واضطهدوها بسبب أنها وافدة من الخارج ومن مصدر أجنبي، وتشتمل على أفكار غريبة لا دراية لهم بها. وأفضى هذا الانحياز إلى اتباع سياسة اضطهاد ضد الفلسفة. ولهذا حُوكِم أناكساجوراس، وهرب من السجن، وفرَّ إلى أيونيا

واتخذها منفًى له. ولهذا — أيضًا — حُوكم سقراط وأُعدِم، ولاذ أفلاطون بالفرار إلى ميجارا ملاذ إقليدس، وحوكم أرسطو وهرب إلى منفًى اختاره لنفسه، ومثل هذه السياسة التي استنها الإغريق ستكون بغير معنًى ولا هدف، إذا لم تكن تشير إلى أن الفلسفة كانت غريبة على العقلية الإغريقية.

الحجة ٣: الفلسفة اليونانية هي نتاج نظام الأسرار المصري

ذلك بسبب التطابق الكامل الذي وجدناه بين نظام الأسرار المصري والفلسفة اليونانية، وباستثناء وحيد خاص بالعمر، مثل العلاقة بين الأب وابنه. ذلك أن نظام الأسرار المصري سابق — في التاريخ — على الفلسفة اليونانية بآلاف السنين. وفيما يلي ملابسات وظروف هذا التطابق.

(١) توافق تام بين النظرية المصرية عن الخلاص وهدف الفلسفة اليونانية، وهو أن يتشبَّه الإنسان بالله، وأن سبيله إلى ذلك التزام بنظام الفضائل ونظام تعليمي تربوي.

(٢) توافق كامل بين شروط التحاق المبتدئين من المريدين في كلٍّ من النظامين، أي التحضير والتهيئة (مراحل متدرجة من الفضيلة) قبل كل التحاق.

(٣) توافق كامل في المعتقدات والممارسات.

(٤) يروي لنا التاريخ أن أطلال معبد الأقصر الكبير القديم كانت تمتد على طول ضفتي النيل في مدينة طيبة القديمة، وعلى بُعد مسافة قصيرة من دندرة في صعيد مصر، ويروي — أيضًا — أن هذا المعبد الضخم بناه فرعون مصر أمنحتب (أو أمينوتيس الثالث)، الذي بدأ تشييده ثم أكمله رمسيس الثاني. وفي الوقت الذي سادت فيه الفلسفة اليونانية كان نظام الأسرار المصري هو النظام الوحيد في العالم القديم، ومن ثَم كانت قيادته ومركزه الرئيسي هو هذا المعبد دون سواه؛ إذ كان مقر الحكم له الولاية على جميع المقار الأدنى، أي الأفرع والمدارس، أيًّا كان مكانها في العالم، وسواء سمَّينا هذا النظام الأسرار أو الفلسفة اليونانية، فإن النظام واحد تفرَّعت عنه، وتتبع له، جميع الأفرع الأخرى في العالم.

(٥) تأكد التطابق بين نظام الأسرار المصري والفلسفة اليونانية من خلال ما حدث حين أصدر الإمبراطوران الرومانيان ثيودوسيوس وجوستنيان مرسوميهما بإغلاق نظم الأسرار المصرية؛ فامتد الأمر نفسه — تلقائيًّا — إلى المدارس الفلسفية في اليونان، وكان

لا بد من إغلاقها. وطبيعي أن الأشياء التي تتأثر بنفس الدرجة من علة واحدة هي أشياء متماثلة.

الحجة ٤: المصريون علَّموا الإغريق

ذلك لأن التاريخ يدعم الحقائق التالية:

(أ) نتائج الغزو الفارسي لمصر

(١) ألغى قيود الهجرة المفروضة ضد اليونانيين.
(٢) فتح أبواب مصر للبحوث التي أجراها اليونانيون.
(٣) شجع طلاب أيونيا، وغيرها، على زيارة مصر لغرض التعلُّم.

(ب) نتائج غزو الإسكندر الأكبر مصر

(١) كانت — عادة — الجيوش — قديمًا — عند غزو البلاد، البحث عن كنوزها في المكتبات وفي المعابد، وبناء على هذا، فإن المعتقد أن الإسكندر وأصدقاءه الذين صحبوه قد نقبوا في مكتبة الإسكندرية، وفي غيرها من المكتبات، ونهبوا منها ما شاءوا من الكتب. ومن المعتقد أيضًا أن هذه هي الطريقة التي حصل بها أرسطو على كميات الكتب المهولة التي زعموا أنه صاحبها ومؤلفها؛ وبذا اكتسب — زيفًا — شهرة واسعة لا يستحقها.

(٢) استحوذ خريجو وتلامذة مدرسة أرسطو على مكتبة الإسكندرية، وحوَّلوا المكتبة إلى مركز أبحاث وجامعة لتعليم الإغريق الذين اضطروا إلى الاستعانة بأساتذة مصريين بسبب صعوبات اللغة ولأسباب أخرى.

(٣) كان لدى الإغريق وسيلة أخرى للاستحواذ على ثقافة المصريين، علاوة على نهب الكتب وأخذها غنيمة، وتحويل مكتبة الإسكندرية إلى جامعة لتعليمهم. فقد اعتاد البطالمة إكراه كبار الكهنة المصريين على الإفضاء بما لديهم من معلومات مفيدة. وقد رُوي أن بطليموس الأول — المُلقَّب بالمخلص — أصدر أمره إلى كبير الكهنة المصريين مانيتو أن يدوِّن تاريخ الديانة والفلسفة عند المصريين، وأنجز مانيتو هذه المهمة، وأصبحت مؤلفاته هي المنهج الرئيسي في جامعة الإسكندرية.

(ج) المصريون أول من أدخل الحضارة والمدنية في اليونان

يروي التاريخ أن اليونانيين تأثَّروا بالحضارة من ثلاثة مصادر:

أولًا: المستعمرون المصريون.

ثانيًا: المستعمرون الفينيقيون.

ثالثًا: المستعمرون من تراقيا.

ويروي التاريخ — أيضًا — أن هذه المستعمرات خضعت لسلطان وحكم رجال حكماء خفَّفوا من غلواء وحشية عامة الناس الجهلاء، ولم يكن سبيلهم إلى هذا هو فقط المؤسسات المدنية، بل وأيضًا لجام الدين القوي، والخوف من الآلهة، وكان على رأس هؤلاء المستعمرين كيكروبس من مصر، وكادموس من فينيقيا، وأورفيوس من تراقيا.

الحجة ٥: مبادئ فلاسفة اليونان هي مبادئ نظام الأسرار المصري

برهان هذا الطرح هو في الحقيقة أحد الأغراض الرئيسية لهذا الكتاب، ولذلك خصصنا الفصول الخمسة أو الستة الأولى لهذا الغرض. جرت عادة المصريين على التعبير عن تعاليمهم برموز مختلفة الطرز، ومن ثَم يمكن بيان أصولها بالرجوع إلى رمز مميز خاص بالموضوع، ولهذا لم نقتصر، في هذه الفصول، على ذكر أسماء الفلاسفة الإغريق والمبادئ المنسوبة إليهم، بل قرنا هذا بالإشارات الضرورية إلى أنماط الرموز المميزة تأكيدًا لَمنشئها المصري، وعرضناها في موجز الاستنتاجات على النحو التالي:

(١) فلاسفة أيونيا القدماء

منسوب إليهم القول بالمبادئ التالية:

(أ) الماء مصدر جميع الموجودات.
(ب) جميع الموجودات نشأت من العماء البدائي أو اللامحدود.
(ج) جميع الموجودات نشأت من الهواء.

بيد أن هذه المبادئ لا يمكن أن تكون مبادئ قال بها فلاسفة أيونيا، نظرًا لأننا نجد المبادئ ذاتها يحدثنا عنها — صراحة — الإصحاح الأول من سفر التكوين؛ إذ نطالع فيه

أن بداية العالم كانت حالة من العماء دون شكل محدد، والفراغ الكامل (اللانهاية غير المحدودة). ويصف لنا — أيضًا — كيف تحركت روح الله (الهواء) فوق سطح الماء الأزلي وفصله عن اليابسة، وفصل الأرض عن السماء. ويحدثنا أيضًا كيف خرجت الموجودات، رويدًا رويدًا، من الماء، وكيف ظهر الإنسان إلى الوجود أخيرًا بفضل نسمة الحياة (أي الهواء). وسفر التكوين هو أول كتاب في أسفار موسى الخمسة، ويرجع تاريخه — حسبما حدد المؤرخون — إلى القرن الثامن ق.م. ولم يكن في هذه الفترة قد ظهر فلاسفة أيونيا القدماء، وبالمثل، فإن سفر التكوين منسوب إلى موسى الذي يحكي لنا عنه فيلو السكندري، قائلًا إنه كاهن مصري أو أحد كبار الكهنة أو الفقهاء العارفين بالرموز السرية، والمحيط — علمًا — بحكمة المصريين، ولكن العصر الذي عاش فيه موسى لا بد من ربطه بخروج الإسرائيليين الذي قاده موسى في عهد الأسرة ٢١، المصرية، أي حوالي عام ١١٠٠ق.م. في عهد بوكوريس.

ولكن قصة الخلق في سفر التكوين تطابق قصة الخلق في فقه إلهيات مدرسة ممفيس عند المصريين، الأمر الذي يعود بنا إلى الوراء إلى فترة بين ٤، ٥ آلاف سنة ق.م. معنى هذا أن مبادئ فلاسفة أيونيا القدماء لم تظهر لأول مرة في عصرهم (القرن الخامس ق.م.) ولا في عصر أسفار موسى الخمسة (القرن الثامن ق.م.) بل ظهرت في عصر فقه إلهيات مدرسة ممفيس (فيما بين ٤، ٥ آلاف سنه ق.م.) ومن ثَم فهي — بكل يقين — مصرية المنشأ.

(٢) الفلاسفة الإيليون وأسماؤهم

(أ) زينوفانيس، وكان شاعرًا هجَّاء.

(ب) زينو الذي أفضى أسلوبه في تناول مسألتي الزمان والمكان إلى قياس الخلف.

(جـ) بارمينيديس، وهو الوحيد بينهم الذي يستحق الإشارة إليه، ومنسوب إليه تعريف الوجود والعدم بقوله «الوجود هو ما هو موجود»، والعدم هو ما ليس موجودًا. أو بعبارة أخرى، أن الطبيعة أو الواقع قوامه خاصيتان:

الإيجاب والسلب. ولكن بارمينيديس لم يقدم مبدأ جديدًا عند تحديده لمبدأ الأضداد، وقد استخدم فيثاغورس هذا المبدأ في نظريته عن الأعداد، واستخدمه سقراط في برهانه على خلود النفس، واستخدمه أفلاطون في نظريته عن المثل والتمييز بين الوجود الظاهر والوجود في ذاته. واستخدمه أرسطو في تحديده لصفات الوجود، وأوضحنا — في جميع هذه الحالات — أن مبدأ الأضداد نشأ — أصلًا — في نظام الأسرار المصري؛ حيث جرى

تمثيل الأرباب في صورة الذكر والأنثى، وحيث أقيم أمام واجهة المعابد زوج من الأعمدة إشارة إلى المبدأين: الإيجابي والسلبي في الطبيعة.

(٣) فلاسفة أيونيا المتأخرون

وأسماؤهم:

(أ) هيرقليطس، الذي قالت تعاليمه إن النار منشأ العالم عبر عملية تحول، وحيث إن جميع الموجودات نشأت من النار إذن فإن النار هي اللوجوس.

(ب) أناكساجوراس، وكان يعلم أن العقل أو العقل الكوني (Nous) هو مصدر الحياة في الكون.

(ج) ديمقريطس وكان يعلم أن الذرات أساس جميع الموجودات المادية، وأن الحياة والموت ليسا سوى تغييرات بفعل تباين مزيج الذرات التي لا تموت لأنها خالدة، والآن، وبعد أن أخذنا هذه المبادئ، حسب الترتيب الذي ظهرت به، تأكد لنا — تمامًا — منشؤها المصري:

(أ) فقد تتبعنا تاريخ مبدأ النار إلى أن عاد بنا إلى المصريين، وتبين أن نظام الأسرار المصري يأخذ بفلسفة النار وعبادة إله النار في الأهرامات. وإن كلمة أهرام Pyramid هي كلمة يونانية الأصل، مشتقة من «بير Pyr» وتعني النار، ويعود بنا هذا المبدأ إلى عصر الأهرامات في مصر ٣٣٠٠ سنة ق.م. ولم يكن اليونانيون معروفين في هذا الزمن.

(ب) يجب الإشارة إلى أن مبدأ اللوجوس Logos قد طابق هيرقليطس بينه وبين مبدأ النار، وسبب ذلك ...

(ج) أنه في مبدأ الأرباب المخلوقة المنسوب إلى أفلاطون نجد أن الله أتوم Atum أو Atom (والتي تعني الذرة) أو إله النار يقوم بدور الصانع الأول أو البارئ Demiurge في خلق الأرباب.

(د) وبالمثل، في مبدأ المحرك غير المتحرك، المنسوب إلى أرسطو، نجد أن أتوم إله النار، وقد استوى فوق التل الأزلي، ودون أن يتحرك؛ خلق الأرباب بكلمة منه؛ إذ أمرهم بالصدور عن الأعضاء المختلفة بجسمه سبحانه. وبهذا أصبح الإله أتوم ذاته هو المحرك غير المتحرك. ويوضح هذا — بجلاء — أن اللوجوس عند هيرقليطس يطابق الصانع عند أفلاطون، ويطابق المحرك غير المتحرك عند أرسطو. ووظيفة أتوم، من حيث هو الإله

الصانع، وطريقته في الخلق نجدهما — تفصيليًّا — في فقه إلهيات مدرسة ممفيس عند المصريين. وهنا أريد أن أوجه أنظار الطلاب المهتمين بدراسة وتتبع أثر الفلسفة المصرية على الفكر المسيحي، إلى أن يقرءوا هذا الجزء من الكتاب، جنبًا إلى جنب مع الإصحاح الأول من إنجيل القديس يوحنا. كذلك فإن مشكلة الدوام أو الثبات والتغيير يمكن أن نتتبع بدايتها — أيضًا — في قصة الخلق في فقه إلهيات مدرسة ممفيس، حيث نجد المادة الخالدة يمثلها العماء البدائي، والتغيُّر يمثِّله التكوين التدريجي للنظام.

(هـ) مبدأ العقل الكوني Nous لم ينسب فقط إلى أناكساجوراس، بل — وأيضًا — إلى ديمقريطس، الذي تحدث عنه باعتبار أنه مؤلف من ذرات نارية موزعة في جميع أنحاء الكون. ومنسوب أيضًا إلى سقراط، على أساس أنه مقدمة مطلقة غائية، حيث إن كل ما هو موجود لغرض نافع فهو من عمل العقل. وأمكن تتبع تاريخ هذا المبدأ إلى أصوله في مذهب الأسرار المصري القديم؛ حيث كانت العين المبصرة تمثل الإله أوزيريس. والعين البصيرة لا تعني — فقط — المعرفة المحيطة بالكل أو الإله البصير بالكل، بل وتعني أيضًا الوجود في الكل.

(و) مبدأ الذرة، وهو منسوب إلى ديمقريطس، الذي لم يحدد معناه، وإنما وصف خصائصه: إنها أساس الحياة وخالدة لا تموت أبدًا. وحين تمتزج ذرات كثيرة بطريقة معينة يسفر المزيج عن تحول جذري. وتتطابق هذه الخصائص مع خصائص أتوم الإله الشمس والصانع أو بارئ الخلق عند المصريين، والذي خلق الأرباب الآخرين من أعضاء جسده، لقد كان أساس ومبدأ الحياة وواهبها. بيد أن أتوم الإله الشمس نجده في قصة الخلق في فقه إلهيات ممفيس، ويكشف لنا عن الأصل المصري لمعنى الذرة.

(٤) مذهب فيثاغورس

ويبدو مذهبًا شديد الشمول حتى إن جمع الفلاسفة — تقريبًا — الذين أتوا من بعده عمدوا إلى محاكاة أفكاره الواردة في تعاليمه، وحيث إن فيثاغورس حاول تفسير الطبيعة في صورة رياضية، فقد نسبوا إليه تعليم المبادئ التالية:

(أ) خصائص العدد: وتشمل عناصر الأضداد: الزوجي والفردي، المتناهي واللامتناهي، الإيجابي والسلبي. واستنسخ مبدأ الأضداد، وأفاد به في تعاليمه كلٌّ من هيرقليطس وبارمينيديس وديمقريطس وسقراط وأفلاطون وأرسطو.

(ب) مبدأ التناعم: وتحدد معناه بأنه وحدة الأضداد. واستنسخ هذا المبدأ، وأفاد به في تعاليمه كلٌّ من هيرقليطس وسقراط وأفلاطون وأرسطو.

(ج) النار المركزية والمحيطية: وتم تعليم هذا المبدأ على أنه أساس الخلق. وأفاد به في تعاليمه كل من هيرقليطس وأناكساجوراس وديمقريطس وسقراط وأفلاطون.

(د) خلود النفس والخير الأسمى: وكان فيثاغورس يعلِّم هذا المبدأ في صورة تناسخ الأرواح. وكان يعلِّمه — أيضًا من بعده — سقراط باعتباره غرض الفلسفة التي تتغذى عليها النفس باعتبارها الحقيقة التي هي من جنس الطبيعة الإلهية. وبذا يمكن للنفس — بفضل هذا الغذاء — أن تنجو من عجلة إعادة الميلاد، وتبلغ غاية الكمال بالوحدة مع الله. وأوضحنا أن جميع مبادئ فيثاغورس نشأت — أصلًا — في نظام الأسرار المصري، فالعدد قوامه عناصر متضادة، ومبدأ الأضداد مبدأ خاص بنظام الأسرار المصري، ويمثِّلونه بأرباب ذكور وإناث. وحيث إن التناغم مزج بين الأضداد، فإن الأمر ليس بحاجة إلى مزيد، والنار — بالمثل — تعود بنا إلى نظام الأسرار المصري الذي كان فلسفة تؤمن بالنار مبدأ للوجود، وكان المريدون المبتدئون عبدة نار. وأخيرًا فقد كان غرض الفلسفة خلاص النفس، ويتحقق هذا بفضل طرق التطهر التي تحددها نظم الأسرار المصرية، التي رفعت الإنسان من الصعيد الفاني إلى الصعيد الخالد، وكان هذا هو الخير الأسمى.

(٥) سقراط

(أ) حياته.
(ب) مبادئه.
(ج) محاكمته وإدانته وإعدامه.
(د) أحاديث الوداع.

(أ) التزم سقراط في حياته بالسرية والفقر؛ رغبة منه في تجنُّب غواية الثراء والأثرياء، وتمكينًا لنفسه من غرس الفضائل التي تتطلَّبها نظم الأسرار.

(ب) جميع مبادئه تقرنه — أيضًا — بنظم الأسرار المصرية.

(١) مبدؤه عن العقل Nous باعتباره العقل أو الذكاء الكوني أساس الخلق، وكانت تمثِّله في المعابد المصرية القديمة «عين أوزيريس البصيرة» إشارة إلى المعرفة المحيطة بالكل والوجود في الكل.

(٢) مبدؤه عن معرفة النفس: «أيها الإنسان اعرف نفسك»؛ وهو مبدأ منقول مباشرة أو على نحو غير مباشر من بين النقوش المكتوبة على الجدران الخارجية لمعابد نظام الأسرار في مصر القديمة.

(٣) مبدؤه عن الأضداد، وكذا مبدؤه عن التناغم، هما بيِّنة واضحة على عادة نظم الأسرار، وتثبت مبدأ الأضداد في الطبيعة في صورة أزواج من الأرباب الذكور والإناث، وأيضًا أزواج من الأعمدة في واجهة المعابد.

(٤) مبادئه عن خلود وخلاص النفس والخير الأسمى هي تلخيص لنظرية الخلاص، كما كانت تعلمها نظم الأسرار المصرية، وأوضح سقراط نفسه ذلك. وكان غرض الفلسفة خلاص النفس عن طريق عملية التطهر التي تسمو بالإنسان، وترفعه من المستوى الفاني إلى مستوى الخلود. وبلوغ الإنسان هذا المستوى يعني تحقق الخير الأسمى.

(ج) إن اتهامه وإدانته وموته ملابسات توضح — أيضًا — ارتباطه بنظم الأسرار؛ فقد اتُّهم بإدخال آلهة أجنبية وإفساد الشباب الأثيني وأُدين وأُعدم. والمقصود بالآلهة الأجنبية آلهة نظم الأسرار، وإذعانه للشهادة يرجع من ناحية إلى تحيز سلطات أثينا، كما يرجع من ناحية أخرى إلى فضيلة الشجاعة في نفسه، وهي من شروط نظم الأسرار.

(د) أحاديث الوداع التي أدلى بها قبيل الوفاة تبين — أيضًا — انتماءه — عضويًّا — إلى النظام المصري للأسرار. وثمة روايتان لهذه المحادثات، إحداهما رواها كريتو، والأخرى رواها فيدو. ويصف كريتو السلوك الأخوي لمجموعة من الأصدقاء الأوفياء والمبتدئين الذين اعتادوا زيارته يوميًّا، وقتما كان رهين السجن ينتظر تنفيذ حكم الإعدام. واستهدفت هذه الزيارات تأمين هرب أحد الإخوة، ولكن جهودهم باءت بالفشل لأنه رفض الإذعان لتوسلاتهم. ويذكر فيدو أن موضوع المحادثات الأخرى هو خلود النفس، وقد سعى سقراط — جاهدًا — لكي يقدم لهم خلالها بعض البراهين ممثَّلة في تطبيقه لمبادئ الأضداد. وقيل لنا أيضًا، إنه قرب نهاية المحادثات، وقبيل تجرعه للسم مباشرة، رجا سقراط صديقه كريتو أن يسدد عنه دينًا محددًا كان مدينًا به، وتكشف هذه المحادثات عن الحقائق التالية:

(أ) الحب الأخوي للزائرين من الأعضاء المبتدئين في محاولاتهم تأمين هرب أخيهم سقراط.

(ب) مجموعة دراسية أخيرة يوجهها سقراط؛ إذ يحدِّثهم عن مبدأ الخلود: المبدأ الرئيسي في نظم الأسرار المصرية.

(ج) الرجاء الأخير من سقراط لسداد دين عليه.

(د) تؤكد هذه الأحاديث — معًا — عضوية سقراط في نظم الأسرار المصرية، لقد كانت أُخوَّة هذا النظام أُخوَّة عالمية، وتستلزم غرس المحبة الأخوية بين الأعضاء. ويمثِّل موضوع خلود النفس محور التعليم في هذا النظام مثلما كان يتطلب من المبتدئين ممارسة فضائل العدل والأمانة؛ ولذا كان لزامًا سداد الدين.

(هـ) من المعتقد أن سقراط لم يدوِّن تعاليمه، وجاء هذا انصياعًا لسرية نظم الأسرار.

(٦) أفلاطون

(أ) حياته الباكرة وتعليمه، شأن جميع الفلاسفة الآخرين، مجهولان للتاريخ الذي يصوِّره هاربًا من أثينا عقب إعدام سقراط. وبعد اثني عشر عامًا، زار خلالها إقليدس في ميجارا، وزار الفيثاغوريين في إيطاليا، وديونيسيوس في صقلية، ونظام الأسرار في مصر، وعاد بعد ذلك إلى أثينا، وافتتح أكاديمية مارس فيها التعليم ٢٠ عامًا.

(ب) مبادئه المتناثرة على نطاقٍ واسعٍ في أعمال أدبية، تضم ٣٦ محاولة مشكوكًا فيها ومتنازعًا بشأنها من قِبَل الباحثين المحدثين، ومن المفترض أن تلامذة سقراط، خاصة أفلاطون، قد نشروا تعاليمه، وغير معروف كم من هذا الأدب الجم الكثير خاص بأفلاطون، وكم منه خاص بسقراط، وأمكن الرجوع بجميع مبادئ أفلاطون إلى مَنشئها المصري.

(١) نظرية المثل التي عبَّر عنها، موضحًا لها بالإشارة إلى ظواهر الطبيعة هي تمييز بين المثل أو الوجود في ذاته، وبين الظواهر التي هي محاكاة لها. وهي — أيضًا — تمييز بين الواقعي وغير الواقعي عن طريق تطبيق مبدأ الأضداد، والذي كان يفسره ويوضحه نظام الأسرار المصري بأزواج الأرباب الذكور والإناث، وأزواج الأعمدة عند واجهات المعابد.

(٢) مبدأ العقل الكوني Nous أمكن الرجوع به إلى «العين البصيرة» المستخدَمة في المعابد المصرية، والتي ترمز إلى علم الإحاطة بالكل، وإلى الوجود في الكل للإله المصري أوزيريس.

(٣) مبدأ الصانع الأول والأرباب المخلوقة، وقد رجعنا به إلى أتوم الإله الشمس في قصة الخلق في فقه إلهيات ممفيس عند المصريين.

(٤) مبدأ الخير الأسمى؛ وقد أوضحنا أنه مطابق لنظرية الخلاص في نظام الأسرار المصري. فخلاص النفس هو غاية الفلسفة، التي تنص على طرق للتطهر، تسمو بالمرء من مستوى الفناء، وترقى به إلى مستوى الأرباب، وهذا الهدف هو الخير الأسمى.

(٥) مبدأ الدولة المثالية، وقد قارنَّا بين صفاتها وصفات النفس والعدالة. وهاتان الصفتان تمثِّلها الصورة المجازية لسائق العربة ذات الجوادين المجنَّحين، وتكشف هذه الصورة المجازية عن أصلها المصري بعد أن تعقَّبنا تاريخها، ورجعنا بها إلى مشهد يوم الحساب في الآخرة، حسب رواية كتاب الموتى المصري.

(٦) مبدأ الفضيلة والحكمة، وقد أوضحنا أنه نشأ — أصلًا — في نظام الأسرار المصري، الذي كان يشترط الالتزام بعشر فضائل لإخضاع وتذليل العوائق البدنية العشرة.

(٧) أرسطو

(١) حياة أرسطو حافلة بالتناقضات والشكوك.

(أ) بينما يجهل التاريخ كل شيء عن حياته الباكرة وتعليمه، شأن غيره من الفلاسفة اليونانيين الآخرين، إلا أنه يروي لنا قصة غريبة تحكي أنه قضى عشرين عامًا تلميذًا على يدي أفلاطون، وأنه لم يذهب أبدًا إلى مصر، وأن الإسكندر الأكبر منحه المال اللازم للحصول على العدد الضخم من الكتب المقترنة باسمه. ولكن التاريخ يروي كذلك أن أفلاطون كان فيلسوفًا، بينما كان أرسطو عالمًا، ومن ثَم لا مناص من أن نسأل السؤال التالي: لماذا يضيِّع رجل، مثل أرسطو، ٢٠ عامًا من حياته متتلمذًا على معلم غير أهل لتعليمه؟ أفضت هذه الملابسات إلى الشك في أن أرسطو لا بد وأن قضى الشطر الأكبر من هذه السنوات العشرين للارتقاء بتعليمه في مصر، وفي مصاحبة الإسكندر الأكبر خلال غزوه لمصر؛ حيث أتيحت له الفرصة للتنقيب في مكتبة الإسكندرية، والاستحواذ على الكتب التي يريدها. والملاحظ أن القصة التي يرويها التاريخ لا تشفي غليلًا، ولكنها — لسوء الحظ — تلقي بظلال كثيفة من الشك حول حياة أرسطو.

(ب) تناقض آخر نجده فيما يتعلق بقوائم الكتب التي يقال إنها تخصه، ولكنها متباينة من حيث المصدر والتاريخ والعدد. (١) القائمة التي كتبها بنفسه، والتي لا بد وأن يكون تاريخها أثناء حياته، أي في القرن الرابع ق.م. وتشتمل على أقل عدد من الكتب. (٢) قائمة مأثورة عن هيرمبوس السكندري، ويرجع تاريخها إلى ما بعد ذلك بقرنين، وتشتمل على ٤٠٠ عنوانًا. (٣) قائمة من مصادر عربية، تم تصنيفها في الإسكندرية بعد هذا التاريخ بثلاثة قرون، أي في القرن الأول الميلادي، وتضم ألف عنوان. ولا يسع المرء إلا أن يسأل الأسئلة التالية:

هل حقًّا ألَّف أرسطو ألف كتاب في حياته؟ وكيف زادت قائمته الصغيرة بعد وفاته إلى ٤٠٠ عنوان عقب مضي قرنين، ثم إلى ألف عنوان بعد مضي خمسة قرون؟ هذه الملابسات من شأنها إثارة شكوك قوية في صحة تأليف أرسطو لهذه الكتب؛ إذ من غير المعقول أن يستطيع شخص واحد — بمفرده — أن يؤلف ألف كتاب في مجالات مختلفة من العلوم على مدار حياته.

(٢) وضح أن جميع مبادئ أرسطو نشأت في نظام الأسرار المصري

(أ) مبدأ الوجود في عالم ما وراء الطبيعة جرى تفسيره على أساس العلاقة بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل، والذي يعمل حسب مبدأ الأضداد. ولقد كان المصريون هم أول علماء يكتشفون مبدأ الاثنينية في الطبيعة؛ ولهذا مثَّلوها بأزواج من الأرباب الذكور والإناث، وبأزواج من الأعمدة المقامة عند واجهات المعابد، وهذا هو مصدر المبدأ.

(ب) في برهان وجود الله استخدم أرسطو مبدأين:

(١) الغائية، موضحًا الغرض والتدبير والتعميم في الطبيعة باعتبارها أفعال عقل كوني. (٢) المحرك غير المتحرك. وأمكن تتبُّع كلا المبدأين — تاريخيًّا — والرجوع بهما إلى قصة الخلق في فقه إلهيات ممفيس عند المصريين القدماء، والذي يقرر أن الخلق تحوَّل من حالة العماء البدائي إلى حالة النظام، مما يدل على وجود عقل كلي أو كوني، وأيضًا حيث أتوم الصانع الأول، واللوجوس الذي استوى، دون أن يتحرك، فوق التل الأزلي، وصدرت عن أعضاء جسده — سبحانه — ثمانية آلهة، وبذلك أصبح المحرك غير المتحرك.

(ج) مبدأ أصل الكون، يقرر أرسطو أن العالم خالد لأن المادة والحركة والزمان — جميعًا — خالدة وأبدية. وهذه النظرة — ذاتها — عبَّر عنها ديمقريطس في ٤٠٠ سنة ق.م. في عبارته «لا وجود يصدر عن عدم» مشيرًا إلى أن المادة أبدية وخالدة، وتتبعنا نفس النظرة تاريخيًّا، ورجعنا بها إلى قصة الخلق في فقه إلهيات ممفيس عند قدماء المصريين، وفيها نجد العماء أو المادة الأزلية يمثِّلها المحيط الأزلي نون، والذي خرج منه التل الأزلي، والمفترض أن هذه جميعها أزلية خالدة.

(د) مبادئ صفات الطبيعة، ويرى أرسطو أن الطبيعة قوامها حركة وسكون، وأن الحركة نقلة، من الأقل كمالًا إلى ما هو أكثر كمالًا، حسب قانون محدد، وأنا أفترض هنا قانون التطور. غير أن هذه التعاليم لم تنشأ على يدي أرسطو، ذلك لأن مشكلة الحركة والسكون، وكذلك الثبات والتغير، لم يبحثها فقط الفلاسفة الإيليون وفلاسفة

أيونيا المتأخرون، بل بحثها — أيضًا — المصريون القدماء في قصة الخلق في فقه إلهيات ممفيس؛ إذ يوضح فقه إلهيات ممفيس أن الطبيعة تتحرك من العماء إلى النظام بخطوات تدريجية، والشيء اليقيني أن مبدأ صفات الطبيعة منحدر عن المصريين القدماء.

(هـ) مبدأ النفس. يقرر أرسطو أن النفس مبدأ أولي أساسي للحياة التي تطابق البدن، وأن لها خمس صفات؛ الحسية، العقلانية، الغذوية، الشهوية، الحركية، وحدد فلاسفة آخرون النفس بأنها:

(أ) مادية مؤلفة من ذرات نارية. (ب) تناغم الجسد على أساس من مزيج الأضداد. (ج) نسمة الحياة في قصة الخلق في سفر التكوين. والمصدر الحقيقي لمبدأ أرسطو عن النفس أمكن الرجوع به إلى فلسفة النفس في كتاب الموتى عند المصريين القدماء؛ إذ نجد هنا النفس وحدة من تسعة أنفس، لا انفصال بينها، في نفس واحدة، شأنها شأن التاسوع أو الربوبية الواحدة المؤلَّفة من تسعة أرباب في واحد، مع الأبدان اللازمة. ونجد صفات النفس للبدن الطبيعي في هذه الفلسفة المصرية تطابق صفات النفس التي قال بها أرسطو، مما يبين معه — بوضوح — المصدر المصري لمبدأ أرسطو، والذي يمثِّل جانبًا صغيرًا من الفلسفة المصرية عن النفس.

الحجة ٦: تعليم الكهنة المصريين ومناهج التعليم في نظام الأسرار المصري يوضحان أن مصر هي مصدر التعليم العالي في العالم القديم وليست اليونان

الفكرة الأولى التي نخلص إليها من الفصل السابع هي حقيقة أن مؤسسة النظم الأخوية أو الطبقات الكهنوتية المقدسة نشأت عن نظم الأسرار المصرية؛ حيث اعتاد الكهنة الأفارقة أن ينتظموا في طبقات كهنوتية أو نظم أخوية مختلفة الدرجات والتثقيف، كل حسب مرتبته.

وهذا من شأنه أن جعل الكهنوتية هي القيِّم والحارس الأمين على التعليم حتى فجر العصر الحديث، وأوضح هذا — أيضًا — أن الأفارقة هم أول أساتذة في التعليم العالي. والفكرة الثانية التي نخلص إليها هي أن الفنون العقلية الأربعة[١] نشأت أصلًا هي الأخرى داخل نظام الأسرار المصري؛ ذلك لأن هذه الموضوعات شكَّلت أساس تعليم الكهنة الذين

[١] كل ما يختلف عن الدراسات المهنية والتقنية من لغات، تاريخ، فلسفة، علوم نظرية تجريدية. (المترجم)

كان عليهم، بالإضافة إلى ذلك، استظهار ٤٢ كتابًا هي كتب هرمس، وأن يتخصصوا في السحر وفي اللغة الهيروغليفية واللغة السرية والرمزية الرياضية. ثالث الأفكار التي نخلص إليها هي أن منهاج التعليم في نظام الأسرار المصري كان متسعًا، بحيث يطابق حاجات ومتطلبات أرقى حضارة في العالم القديم. وتألفت الكتب الدراسية مما يلي:

(١) ٤٢ كتابًا تُعرف باسم كتب هرمس.
(٢) الاستخدام العلاجي للفنون العقلية السبعة من أجل شفاء النفس.
(٣) العلوم والفنون التطبيقية على نحو ما كشفت عنها الآثار، مثل النحت والرسم والتصوير والعمارة والهندسة.
(٤) العلوم الاجتماعية الخاصة بالتجارة والتسويق، مثل الجغرافيا والاقتصاد وبناء السفن.

الحجة ٧: فقه إلهيات مدرسة مفيس يتضمن إلهيات وفلسفة وكوزمولوجيا المصريين، ولهذا هو مصدر ثقة لأصول المبادئ

يحاول الفصل ٧ إثبات أن فقه إلهيات ممفيس في مصر القديمة هو مصدر:

(١) الفلسفة الإغريقية، عن طريق بيان أن مذاهب الفلاسفة، كل على حدة، إنما هي أجزاء من تعاليم ذلك الفقه، وهو مصدر (٢) الفروض العلمية الحديثة، عن طريق بيان أن (أ) الفرض السديمي و(ب) القول بوجود تسعة كواكب رئيسية في المجموعة الشمسية منشؤهما أتوم الإله الشمس المصري أو إله النار الذي أثبتنا أنه يتطابق مع مفهوم الذرة في العلم الحديث. وبسبب هذا الإلهام العظيم، أعني تطابق أتوم الإله الشمس المصري مع الذرة في العلم الحديث؛ أوصيتُ بأن يكون فقه إلهيات مدرسة ممفيس مجالًا لبحث علمي جديد؛ وأن يكون السحر قديمًا، من حيث هو منهج بحث في نظم الأسرار، مفتاحًا للتفسير والتأويل. والسبب الثاني عندي أن فقه إلهيات مدرسة ممفيس هو أول نظرية تقول بمركزية الشمس للكون، والسبب الثالث عندي أن تاريخ الفلسفة إنما هو تاريخ العلم.

(٩) الفلسفة الجديدة للتحرر الأفريقي:

يتناول الفصل ٩ الفلسفة الجديدة للتحرر الأفريقي، والهدف هو تحرر عقلي واجتماعي عن طريق تحوُّل العالم إلى الفلسفة الجديدة القائلة إن الشعب الأسود — في شمال أفريقيا

— أعطى العالم فلسفة، وليس الإغريق، وأيضًا، عن طريق رفض عبادة العقل الإغريقي؛ لأن ما يجري هو عملية تضليل تعليمي، وأيضًا رفض الخضوع بعد ذلك لسياسة التبشير. إن فلسفة التحرر الأفريقي الجديدة هي المهرب وملاذ النجاة الذي لا فكاك منه للشعب الأسود لينجو من ورطته الاجتماعية، الناجمة عن تراث زائف خاص به، أطلقه وبعث به (أ) الإسكندر الأكبر. (ب) أرسطو ومدرسته. (ج) الإمبراطور ثيوداسيوس، والإمبراطور جوستنيان؛ إذ أصدر كلٌّ منهما مرسومًا يقضي بإلغاء نظم الأسرار المصرية — أعظم نظام تعليمي وإكليريكي أو ديني عرفه العالم — ووضعا المسيحية منافسًا أبديًّا له.

ملاحظات

الفصل الأول

(١) تعاليم المصريين كان اليونانيون يسمونها سوفيا Sofia وتعني تعليم الحكمة، واشتملت على (أ) الفلسفة والعلوم والفنون. (ب) الدين والسحر. (ج) طرق التواصل السرية سواء لغوية أو رياضية. (اقرأ [٦٤]، ك٦، ص٧٥٦، ٧٥٨؛ [٧] ج١، ص٨٠؛ [١٢]، ص٢٢، ٢٣؛ [٦٤]، ك٥، ف٧، ٩).

(٢) Peri Physeos هذا هو اسم واحد من أقدم كتب العلم، منفصلًا عن مخطوطات المصريين. ومعنى الاسم «عن الطبيعة» (انظر [١٢]، ص١٦).

الفصل الثاني

كانت حقبة الفلسفة اليونانية غير ملائمة لظهور فلاسفة يونانيين، والسبب:

(أ) الهيمنة الفارسية استعبدت اليونانيين، ووضعتهم في حالة خوف دائم.

(ب) جعلتهم مشغولين دائمًا في تنظيم روابط وتحالفات للدفاع عن النفس ضد العدوان.

(ج) عجزت الدول-المدينة عن الاتفاق، وجعلتهم حروب البليبونيز في حالة حرب دائمة ضد بعضهم البعض (انظر [١]، ف١٢،٢٠٣، ٢٠٥، ف١٣، ١٥، ص٢٢٥، ٢٥٥، ف١٨، ص٣١٧).

الفصل الثالث

(١) Sumum Bonum وتعني (أ) الخير الأسمى. (ب) السمو بالإنسان من مستوى الكائن الفاني، والارتقاء به إلى مستوى الإله. (ج) خلاص النفس. (د) غاية الفلسفة. (هـ) هدف نظرية الخلاص المصرية (انظر [١٢]، ص٢٥).

(٢) المحفل الكبير في الأقصر أطلال المحفل الكبير القديم في الأقصر نشاهدها اليوم على ضفتي النيل في صعيد مصر في مدينة طيبة القديمة، بناه الفرعون أمنحوتب الثالث. إنه المحفل الكبير الوحيد في العالم القديم، وكانت له فروع أو محافل صغرى في جميع أنحاء العالم القديم، في أوروبا، وفي آسيا، وفي أفريقيا، وفي أمريكا الشمالية، وفي أمريكا الجنوبية، وربما في أستراليا. وإليك أسماء بعض الأماكن التي كانت تعمر بمحافل صغرى أو فرعية: (أ) فلسطين في جبل الكرمل. (ب) سوريا في جبل هرمان في لبنان. (ج) بابل. (د) ميديا قرب البحر الأحمر. (هـ) الهند على ضفتي نهر الجانجز. (و) بورما. (س) أثينا. (ص) روما. (ع) كروتون. (ط) رودس. (ف) دلفي. (ك) ميليتوس. (ل) قبرص. (م) كورنث. (ن) كريت. (ي) أمريكا الوسطى والجنوبية، خاصة بيرو. (أ) بين الهنود الأمريكيين وبين قبائل المايا والأزتكس والأنكاس في المكسيك (انظر[٨٣]، [٣٤]، [٨٤]). وإن اكتشاف أطلال الأقصر على ضفتي النيل، وتنظيم الأسرار المصرية في محفل كبير، تتبعه محافل فرعية صغرى في جميع أنحاء العالم القديم، شاهد على أن مصر هي مهد نظم الأسرار ونظم الأخوة الدينية.

(٣) إعادة بناء معبد دلفي:

احترق هذا المعبد عن آخره في عام ٥٤٨ق.م. وأحرقه اليونانيون الذين ناصبوا — دائمًا — نظم الأسرار المصرية العداء، وحاول الإخوة — أول الأمر — جمع تبرعات من المواطنين اليونانيين؛ ولكن باءت محاولاتهم بالفشل، ومن ثم قرروا الاتصال بالمعلم الكبير أماسيز، أو أحمس ملك مصر، وفاتحوه في الأمر، فلم يتردد، ومنحهم ثلاثة أضعاف المبلغ اللازم. وهذا العمل، من جانب ملك مصر، يوضح عالمية الأخوة في نظام الأسرار المصري (انظر [١]، ص١٣٥، ١٣٩؛ [٢٤]، ك٢، ص٣٦٣).

(٤) إلغاء الفلسفة اليونانية جنبًا إلى جنب مع نظم الأسرار المصرية.

النتائج المتطابقة نتاج علل متطابقة؛ لذلك فإن مرسومي ثيودوسيوس — في القرن الرابع الميلادي — وجوستنيان — في القرن السادس الميلادي — واللذين تم، بناءً عليهما، إغلاق نظم الأسرار المصرية؛ أفضيا في الوقت ذاته إلى نفس النتيجة بالنسبة للفلسفة اليونانية، مما يثبت التطابق والوحدة بينهما (اقرأ المرسومين، وقد نشرهما W. K. Boyd (وانظر [٢٥]، ف١٣، ص٢٤١–٢٤٥؛ [١]، ص٥٠٨، ٥٤٨، ٥٥٢–٥٦٨)).

(٥) تمثال الربة إيزيس تحمل طفلها حورس بين ذراعيها:

كانت هذه أول صورة للسيدة العذراء وطفلها في التاريخ البشري، وكانت عذراء سوداء، وطفلها أسود البشرة (انظر [٢٥]، ف١٣، ص٢٤١–٢٤٥؛ [١]، ص٥٥٢–٥٦٨)

ولنتذكر أن اسم إجيبشيان Egyptian وتعني مصريًّا، هي كلمة يونانية Aiguptos وتعني أسود، وأن الإنسان البدائي اعتاد أن يتصور الله حسب صفاته هو الإنسانية، بما في ذلك اللون.

(٦) كل القادة وزعماء الأديان العظماء من موسى إلى المسيح كانوا من مريدي نظم الأسرار المصرية.

هذا الرأي استدلال من طبيعة نظم الأسرار المصرية والعرف السائد.

(أ) نظام الأسرار المصري هو أقدم عقيدة دينية مقدسة واحدة عالمية شاملة.

(ب) أقامت نظم الأسرار المحفل الكبير (أو لنقل دار البابوية أو المشيخة أو الإمامة الكبرى) مقرًّا مركزيًّا قياديًّا في الأقصر، وله الهيمنة على أفرعه في أنحاء العالم القديم.

(ج) كان المحفل الكبير أول جامعة في التاريخ، وجعل المعرفة سرًّا من الأسرار. ومن ثَم فكل من شاء الالتحاق في سلك الكهنة والمعلمين، عليه أن يحصل — أولًا — على التثقيف والتدريب اللازمين في نظام الأسرار، سواء محليًّا أو في محفل فرعي في الخارج، أو السفر إلى مصر الأم.

ونحن نعرف أن موسى عمل كاهنًا مصريًّا، أو كان أحد كبار الكهنة العارفين بالرموز السرية، ونعرف أن المسيح، بعد أن لازم فترة محفل جبل الكرمل، سافر إلى مصر لتحصيل دورة التلمذة النهائية التي تمت داخل هرم خوفو الأكبر. وهناك زعماء دينيُّون آخرون تلقَّوا مرحلة التثقيف التحضيري في محافل أخرى أكثر ملاءمة لهم.

(د) يوضح لنا هذا السبب أن جميع الأديان، وإن اختلفت في ظاهرها، لها نواة مشتركة تجعلها متماثلة: الإيمان بالله – الإيمان بالخلود – وقوانين أخلاقية (انظر [١٢]، ص٦١؛ [٨٥]؛ [٢٩] ص١٠٧، ١٢٨–١٢٩، تحت عنوان فيلو، واقرأ حاشية، في فصل ٣ عن المحافل الفرعية في العالم القديم).

الفصل الرابع

(١) سفر التكوين للتنوير اليوناني.

في عهد الملك المصري أماسيز أو أحمس غزا الفرس مصر بقيادة قمبيز عام ٥٢٥ق.م. ونتيجة لذلك:

(أ) ألغيت القيود المفروضة على هجرة اليونانيين.

(ب) والسماح لهم بالاستيطان في نوكراتيس، وعمل أبحاثهم.

(جـ) تمكَّن اليونانيون، بفضل هذا الاتصال، من الشروع في اقتباس الثقافة المصرية ومن ثَم الاستنارة (انظر [٣١]، ك٢، ص١١٣؛ [٣٢]، ص٣٨٠؛ [٣٤]، ك٩، ص٤٥؛ [٣٠]، ص٣٣٨).

(٢) كيوبس وكيكروبس هذان اسمان يونانيان للاسم المصري خوفو، أحد ملوك مصر في الأسرة الرابعة، وكان ذلك في عصر الأهرامات. واسم كيوبس هو — أيضًا — اسم الهرم الأكبر الذي تلقى فيه المسيح دورة التلمذة الختامية في نظم الأسرار المصرية (انظر [٤١]؛ [٨٥]).

الفصل الخامس

(١) الرسم البياني للكيفيات الأربع والعناصر الأربعة.

هذا دليل هام على أن تعاليم من يُسمون فلاسفة أيونيا القدماء، وكذا تعاليم هيرقليطس نشأت في كنف نظم الأسرار المصرية (انظر [١٢]، ص٦؛ [٥٠] قصة الخلق).

(٢) نظرية فيثاغورس:

سافر فيثاغورس إلى مصر، وتعلم الهندسة على أيدي الكهنة المصريين، وقدم الأضحيات والقرابين إلى الآلهة قبل أن يكشفوا له عن برهان نظرية المربع المقام على وتر المثلث قائم الزاوية. لم يكن فيثاغورس هو مكتشف هذا البرهان، ومن ثَم فإننا نخطئ؛ إذ ننسب النظرية إليه، ونقرنها باسمه (انظر [٣٢]، ك٣، ص١٢٤؛ [٣٤]، ك٨، ص٣؛ [٣٢]؛ [٣٧]).

الفصل السادس

(١) مبدأ معرفة النفس

أيها الإنسان اعرف نفسك Seauton gnothi هذا المبدأ منسوب — زيفًا — إلى سقراط. لقد كان نقشًا على جدران المعابد المصرية، وحاكاه سقراط عنهم مباشرة، أو على نحو غير مباشر (انظر [٢]، ص١٠٥؛ [٦٢]؛ [٢٥]).

(٢) أحاديث الوداع التي أدلى بها سقراط إلى تلامذته وأصدقائه

هذه الأحاديث أهميتها تتمثَّل في الجوانب التالية:

(أ) لقد تحدد أن سقراط كان عضوًا في نظم الأسرار المصرية.

(ب) الكتب التي وردت بها هذه الأحاديث هي كتب أفلاطون: كريتو، فيدو، أيوثيفرو، الدفاع، طيماوس. وهذه من أقدم نماذج أدب الكتابات السرية للمصريين.

(ج) من بين فلاسفة أثينا، يقف سقراط الأكثر شموخًا من حيث الالتزام بقواعد وأخلاقيات سلوك نظم الأسرار المصرية؛ فهو لم يخش الموت، ولم يكشف المعارف التي استأمنته النظم عليها، وكان رجلًا أمينًا (اقرأ لأفلاطون: كريتو – فيدو).

(٣) نظرية المثل عند أفلاطون

بعد أن اكتشف الكهنة المصريون المبدأ الأساسي للأضداد باعتبار أنه مرتكز الحياة في الكون، عمدوا إلى تطبيقه في تأويلاتهم للظواهر الطبيعية، ومن ثَم فإن هذا الطراز من التأويل تبدَّى في تعاليم من سُموا فلاسفة اليونان الذين اكتسبوا تعليمهم في نظام الأسرار المصري . اقرأ مبادئ بارمينيديس، الذي يمايز في مشكلة الوجود بين الوجود والعدم، واقرأ — أيضًا — هيرقليطس في مشكلة السيال الوجودي والتغير عبر عملية التحول أو الصيرورة. وأيضًا سقراط وبرهان الخلود؛ وأفلاطون في نظريته المزعومة، نظرية المثل، حيث مايز بين (أ) الواقعي وغير الواقعي. (ب) مثال الشيء والشيء ذاته. (ج) الوجود في ذاته والظواهر. نجد في جميع هذه الأمثلة مبدأ الأضداد مستخدمًا منهجًا في التأويل، وهذا منهج مصري وليس أفلاطونيًّا.

(٤) جمهورية أفلاطون: الدولة المثالية

ثمة خلاف بشأن تأليف أفلاطون لكتاب الجمهورية، وذلك للأسباب التالية:

(أ) صفات الدولة المثالية، أو الدولة الفاضلة، نجدها بادية — بوضوحٍ — في الصورة المجازية للعربة ذات الجوادين المجنحين، وهي الصورة التي أخذت صيغة مسرحية في دراما أو مشهد يوم الحساب في الآخرة، كما ورد هذا المشهد في كتاب الموتى، وهو ما يثبت أنها صورة مصرية المنشأ.

(ب) العربة لم تكن نمطًا ثقافيًّا، ولا آلة حرب عند الإغريق في زمن أفلاطون، لقد كانت جميع الحروب، التي خاضها اليونانيون ضد الفرس، وكذلك البليبونيز، حروبًا بحرية.

(ج) كان المصريون في هذه الفترة متخصصين في صناعة العربات وتربية الخيل.

(د) صرح المؤرخون ديوجين لايرتيوس وأرستوكينوس وفافورينوس أن موضوع كتاب الجمهورية موجود في المناظرات التي كتبها بروتاجوراس (٤٨٠–٤١١ق.م.)، وقتما كان أفلاطون لا يزال صبيًّا (انظر [٣٤]، ص٣١١، ٣٢٧؛ وكتاب الموتى المصري في ١٧؛ [١١]، ك٣، ص٤١٥، ك٥، ص٤٧٨، ك٦، ص٤٩٠).

(٥) محاورة طيماوس لأفلاطون

القول بأن أفلاطون هو مؤلف محاورة طيماوس مختلف بشأنه للأسباب التالية:

(أ) يوضح المؤرخ ديوجين لاترنيوس في الكتاب الثامن، ص٣٩٩–٤٠١ أن أفلاطون حين زار ديونيسيوس في صقلية، دفع لفيلولاوس الفيثاغوري أربعين وحدة وزن سكندرية (المينا) من الفضة، مقابل كتاب استنسخ منه كل محتويات طيماوس.

(ب) موضوع محاورة طيماوس تلفيقي، اقرأ المحاورة.

(٦) السحر هو مفتاح تأويل الديانة القديمة وفلسفة الطبيعة

وذلك تأسيسًا على تطبيق المبدأ القائل:

إن كيفيات كيانات الوجود، البشرية والإلهية، منتشرة في جميع أنحاء الكيان كله، وإن التواصل مع هذه الكيانات من شأنه أن يطلق كيفياتها. وفي ضوء هذا، يمكن تأويل وفهم الكثير من الظواهر الدينية، وظواهر العلم البدائي.

(أ) شفاء المرأة التي لمست طرف ثياب المسيح (إنجيل مرقس، إصحاح ٥: الآيات ٢٥–٣٤).

(ب) شفاء العديد من الناس ممن لمسوا منديل القديس بولس، أعمال الرسل، إصحاح١٩: آية١٢.

(ج) وصولًا إلى استكمال الخلق، استوى الإله أتوم الإله الشمس المصري فوق الرب بتاح، رب الأرباب، من أجل استيعاب صفاته — سبحانه — المتمثلة في فكره الخالق، وكلمته، ووجوده في الكل. وبفضل هذا الإجراء تأهل ليكون اللوجوس Logos أو الصانع الأول البارئ Demiurge وخلق أول ما خلق الأرباب، ثم خلق — أخيرًا — الكائنات الفانية (اقرأ (٥٠)، (٥٧)).

(٧) الشكوك والتناقضات في حياة وأعمال أرسطو

من سوء الحظ — إلى حدٍّ ما — أن التاريخ عرف حياة وأنشطة أرسطو بصورة مجافية للعقل، مما اضطر العالم إلى الشك في إنجازاته، وفي سمعته، يروي لنا التاريخ:

(أ) أنه قضى ٢٠ عامًا تلميذًا على يدي أفلاطون، الذي نعرف أنه لم يكن أهلًا لتعليمه.

(ب) ويروي لنا أن الإسكندر نفحه أموالًا لشراء العدد الضخم من كتبه، ولكن لم يكن لدى اليونان — آنذاك — مكتبات، ولم يكن من السهل — أيضًا — شراء الكتب التي لم تكن متداولة.

(جـ) ويروي لنا — كذلك — أن القوائم الثلاث، التي تضم عناوين كتبه، وتحمل اسمه؛ تختلف عن بعضها البعض.

(د) تحتوي القائمة الثالثة على ألف عنوان، وهي كمية مستحيلة — عقلًا وعملًا — أن تكون إنتاج امرئ، بذاته، من حيث هو فرد طول حياته.

(هـ) يصمت التاريخ — تمامًا — فلا يذكر لنا شيئًا عن زيارات أرسطو لمصر، على الرغم من أن هذه الزيارات كانت عرفًا وعادة في عصره، بالنسبة لطلاب اليونان؛ إذ كان هؤلاء يقصدون مصر لتلقي العلم (انظر [٢]، ص١٧٢–١٧٣؛ [٣٤]، ك٥، ص٤٤١؛ [٥]، ص٩٢–٩٣).

(٨) المحرك غير المتحرك Proton Kinoun Akineto n

مبدأ منسوب إلى أرسطو في محاولته إثبات وجود الله، فالله في هذا المبدأ هو أتوم الإله الشمس المصري. ويروي فقه إلهيَّات ممفيس أن الإله أتوم استوى فوق رب الأرباب، واستمد منه صفاته الخاصة بالخلق والكلام والوجود في الكل، ومن ثَم أصبح هو اللوجوس، وأتم عمل الخلق بأن صدرت أرباب ثمانية عن مختلف أعضاء بدنه سبحانه. وهذا المبدأ لم ينشأ على يدي أرسطو، وإنما تعقبنا تاريخه، وأرجعناه إلى قصة الخلق في فقه إلهيات مدرسة ممفيس عند المصريين القدماء (اقرأ [٥٠]، ت٢٠، ٢٣، وأيضًا ص٢٥–٢٦؛ [٣]، ص١٤١–١٤٣؛ [٥]، ص١٠٢، ١٠٣).

(٩) مبدأ أرسطو عن النفس

هذا المبدأ هو الوحيد الذي وجدنا أنه لا يتجاوز قطرة من بحر الفلسفة التفصيلية المستفيضة عن النفس، الواردة في كتاب الموتى المصري. وكتاب الموتى هو المصدر الأصلي الذي استقى منه أرسطو مبدأه المزعوم (اقرأ كتاب الموتى المصري، ترجمة سير إي إيه بودج، ص٢٩–٦٤).

الفصل السابع

المنهاج التعليمي في نظم الأسرار المصرية

إن ما نعرفه — الآن — بشأن المنهاج التعليمي في نظم الأسرار المصرية هو أن القارة الأفريقية قدمت التراث التالي لحضارة العالم، وتمثِّل الأنماط الثقافية التالية قوام هذا التراث:

(١) الأخويات العالمية المقدسة — جنبًا إلى جنب — مع النظام الكهنوتي المقسَّم إلى مراتب، حسب مستوى التثقيف والتدريب.

(٢) العبادات العالمية المقدسة، وقوامها شعائر وطقوس واحتفالات تضم مواكب وملابس خاصة بالكهنة.

(٣) الفلسفة اليونانية والفنون والعلوم، بما في ذلك الفنون العقلية السبعة، أي مجموعة الدراسات الرباعية (الحساب والموسيقى والهندسة والفلك)، ومجموعة الدراسات الثلاثية (النحو والبلاغة والمنطق)، وهي أساس تثقيف وتدريب التلاميذ المبتدئين من مريدي نظم الأسرار المصرية، وكانت هذه الدراسات ضمن مواد الكتب الـ ٤٢ المعروفة باسم كتب هرمس.

(٤) العلوم التطبيقية التي أنتجت الأهرامات والمقابر والمكتبات والمسلات وتماثيل أبي الهول والعربات الحربية والسفن ... إلخ.

(٥) العلوم الاجتماعية، وتتلاءم مع أرقى الحضارات في العصور القديمة (اقرأ [٦٤]، ف٦، ص٧٥٦، ٧٥٨؛ [٧]، ك١، ص٨٠؛ [٧٦]؛ [٨١]).

الفصل الثامن

فقه إلهيات مدرسة ممفيس

(١) التعريف

فقه إلهيات ممفيس هو نقش على حجر، يشتمل على الكوزمولوجيا (نظرية عن أصل الكون وبنيته ونواميسه) والإلهيات والفلسفة عند المصريين القدماء (اقرأ [٥٦]، ت٢٠، ٢٣؛ [٥٠])، والحجر المشار إليه محفوظ بالمتحف البريطاني.

(٢) الأهمية

تكمن أهميته في:

(أ) أنه مصدر ثقة للفلسفة المصرية والكوزمولوجيا والدين.
(ب) وبرهان على المنشأ المصري للفلسفة اليونانية.

(٣) أنه مصدر المعرفة العلمية الحديثة

(أ) أتوم إله الشمس المصري، وهو اللوجوس عند هيرقليطس والصانع الأول البارئ عند أفلاطون، والمحرك غير المتحرك عند أرسطو. يخلق ثمانية أرباب آخرين؛ إذ أمر سبحانه، بفكره أو بكلمته، بفصل صدورهم عن جسده، وبذلك ينتج تسعة آلهة في واحد أو التاسوع ... ويطابق هذا الفرض السديمي عند لابلاس الذي يقول فيه إن الشمس في البدء نتج عنها ثمانية كواكب أخرى؛ إذ انطلقت منها حلقات غازية، وبذلك تكوَّنت الكواكب التسعة الكبرى، حسب الاعتقاد العلمي الحديث.

(ب) أوضحنا في هذا الفصل أن اسم أتوم إله الشمس بمنطوقه اللاتيني Atom, Atum هو ذات الاسم المستخدم لكلمة أتوم Atom في العلم الحديث بمعنى الذرة، وأن صفات كليهما متطابقة (اقرأ [٥٠] ص٥٣؛ [٨٢]، ص١٨٢؛ [٣١]، ك٢؛ [٧]، ك١ ص٢٩).

(٤) يهيئ إمكانات للبحث العلمي الحديث

إن ما يعرفه العلم الحديث عن (أ) عدد الكواكب الكبرى الرئيسية، (ب) كيف نشأت عن الشمس، (ج) صفات الذرة، وقد رجعنا بها إلى كوزمولوجيا فقه إلهيات ممفيس، الذي يفيد أن (د) العلم يعرف فقط خمسة أسرار الخلق، ومن ثَم فإن أربعة أخماس هذه الأسرار لا تزال بحاجة إلى اكتشاف.

(هـ) بناء على ما سبق، فإن فقه إلهيات ممفيس يهيئ إمكانات عظيمة للبحث العلمي الحديث.

الفصل التاسع

دراما الفلسفة اليونانية

(١) قوامها ثلاثة ممثِّلين:

(أ) الإسكندر الأكبر الذي غزا مصر، وهيَّأ نهب المكتبة الملكية بالإسكندرية.

(ب) أرسطو وتلامذة مدرسته الذين استحوذوا على المكتبة الملكية، واغتصبوا كميات كبيرة من الكتب العلمية، وحوَّلوا المكتبة إلى مركز أبحاث وجامعة.

(ج) الحكومة الرومانية؛ إذ عن طريق مرسوم الإمبراطور ثيودوسيوس ومرسوم الإمبراطور جوستنيان، تم إغلاق نظم الأسرار المصرية، جنبًا إلى جنب، مع مدارسها وجامعتها في العالم القديم، ونظام الثقافة الأفريقي.

(٢) أسفر هذا عن:

(أ) التشويه، وشيوع رأي خاطئ يقول إن القارة الأفريقية، وشعب أفريقيا متخلفان ثقافيًّا، ولم يسهما في الحضارة الإنسانية بشيء.

(ب) قيام المسيحية كمنافسٍ ضد نظم الأسرار أو النظام الثقافي الأفريقي بهدف ترشيح هذا الرأي الخاطئ، وضمان استمراره.

(٣) ونتيجة أخرى هي:

(أ) التقديس الزائف للعقل الإغريقي.

(ب) أنشطة المشروع التبشيري الذي صوَّر ثقافة الشعوب السوداء في صورة ساخرة، سواء في الأدب أو في المعارض.

(٤) ونتيجة رابعة هي:

(أ) الشعور العام الذي ساد بين أبناء الشعب الأسود في العالم، بأنهم في حاجة ماسة إلى التحرر من أزمتهم الاجتماعية.

(ب) أن قدَّم كتاب «التراث المسروق» فلسفة جديدة للتحرر الأفريقي؛ لكي تفي بالحاجة العالمية الملحة، وهي الإصلاح الاجتماعي.

(٥) طبيعة ومناهج هذه الفلسفة الجديدة والإصلاح الاجتماعي المطلوب:

(أ) الفلسفة الجديدة، وهي فلسفة الانعتاق أو التحرر الأفريقي هي — ببساطة — افتراض يقضي بأن «الإغريق ليسوا أصحاب الفلسفة المعروفة باسم الفلسفة اليونانية أو الإغريقية»، وإنما أصحابها هم أبناء شمال أفريقيا، أعني المصريين. وهذه هي الفلسفة التي ينبغي أن نبشِّر بها، ونذيعها، ونروِّج لها، وننشرها على مدى قرون قادمة.

(ب) النتائج المحتملة لهذه الفلسفة هي:

(١) تغيير عقلية كل من الشعوب البيضاء والسوداء، وتغيير اتجاهاتهم ومواقفهم من بعضهم البعض، في سبيل النهوض بحركة إصلاح اجتماعي.

(٢) حفز الشعب الأسود إلى التخلي عن تقديسه الزائف للعقل اليوناني، ونبذ الصورة الساخرة عن ثقافته، التي روَّج لها المشروع التبشيري، والمطالبة بتغيير السياسة التبشيرية.

المراجع وأرقامها المثبتة في متن الكتاب

(1) Sandford; the Mediterranean World.
(2) Zeller; Hist. of Phil.
(3) William Turner; Hist. of Phil.
(4) Roger; Student Hist. of Phil.
(5) Alexander B. D.; Hist. of Phil.
(6) Breadsted; Conquest of Civilization.
(7) Diodorus.
(8) Manetho.
(9) Strabo.
(10) Dicaearchus.
(11) Plato; Republic.
(12) Vail C. H.; Ancient Mysteries.
(13) Alfred Weber; Hist. of Phil.
(14) Theophrastus; Fragments.
(15) Couch W. H., Hist. of Greece
(16) Botsford & Robinson;. Hellenic Hisy.
(17) Bury T. B.; Hist, of Greece.
(18) Woodhouse, W. J.; The Tutorial Hist. of Greece.

(19) Plato; Apology.
(20) Aristophaues; Frogs.
(21) Plato; Timaeus.
(22) lamblichus; Correspondence between Anebo and Prophyr.
(23) Wilmshurt W. L; On Meaning of Masonry.
(24) John Kendrick; Ancient Egypt.
(25) Max Muller; Egyptian Mythology.
(26) Sedgwick & Tyler; Hist. of Science.
(27) Adult; Europe in the Middle Ages.
(28) Hitti; Hist. of the Arabs.
(29) Annie Besant; Philo, Esoteric Christianity.
(30) Ovid Fasti III
(31) Herodotus.
(32) Plutarch.
(33) Erato Sthenes, Strabo.
(34) Diogenes Laertius; Life of Eminent Philosophers.
(35) Backwell; Source Book of Phil.
(36) Philarch de Repugn. Stoic.
(37) Demetrius; Antisthenes; Cicero de Natura, Deorum III.
(38) Plato: Phaedo.
(39) Bunsen.
(40) Leem an; Amstelod, 1935, Translated by Cory.
(41) Brucker; Historia Critica Philosophiae, Translated by W. M. Enfield.
(42) Ruddick; Hist. of Phil.
(43) Fuller, Hist. of Phil.
(44) Aristotle, Metaphysics.
(45) Alexander B. D.; Hist. of Phil.

(46) Burnet, Greek Phil.

(47) Chaereman; Jos. C. Apion.

(48) Hasting; Bible Dict.

(49) Frankort; Memphite Theology: Intellectual Adventure of Primitive Man.

(50) Rosellini; Mon del Sults.

(51) Xenophan; Memorabilia.

(52) Plato; Meno.

(53) Plato; Symposium.

(54) Aristotle; Ethics.

(55) Frankfort; Egyptian Religion.

(56) Frazer; Golden Bough.

(57) Antisthenes; Treatise on Succession.

(58) Rosicrucian Digest.

(59) Church, F. J.; Trial and Death of socrates.

(60) Plato; Crito.

(61) Clymer; Swinburne; Fire Phil.

(62) Aristophanes; Clouds.

(63) Clement of Alexandria; Stromata.

(64) Will Durant; Story of Phil.

(65) Plato; Phaedrus.

(66) Plato; Theaetetus.

(67) Frankfort; Intellectual Adventure of Man.

(68) Genesis.

(69) Homer.

(70) The Egyptian Book of Dead.

(71) Alfred Weber; Hist. of Phil.

(72) Aristotlo; Physics.
(73) Plato; Parmenides.
(74) Frankfort; The Gods and Symbols of Ancient Egypt.
(75) Barber M.; The Mechanical Triumphs of the Ancient Egyptians.
(76) Moret; The Book of the Foundation of temples.
(77) Ball W. R.; A Short Hist. of Mathematics.
(78) Engelbach R.; The Problem of Obelisks .
(79) Davidson D.; The Great Pyramid, and Its Divine Message.
(80) Florian Cajori; Hist. of Mathamatic.
(81) Frankfort; Kingship and the Gods.
(82) Jas–Hastings; Encyclopaedia of Religion and ethics.
(83) Thomas Stanley; Hist. of phil.
(84) Spencer Lewis H.; Mystical life of Jesus.

ثبَت أبجدي للمصطلحات العربية والأسماء الواردة بالكتاب، ومقابلها الإفرنجي

أ	
أبديرا	Abdera
أبيس	Abis
أبوللودوروس	Apollodorus
أبازيا	Apasia
أتيكا	Attica
أتوم (الإله-الذرة)	Acum-Atom
الآب «أحد أجزاء النفس»	AB
أثينا	Athena
أثور	Athor
إخناتون	Ikknaton
أخيل	Achilles
إراتوستين	Eratosthenes
أرجوس	Argos
أرسطو	Aristotle
أريزو	Arizzo
أرسطوجوارس	Aristogoras

أ	
أرتيميزيوم (خليج)	Artemisium
أرسطوخينوس	Aristoxenus
الأزتكس (قبائل)	Aztecs
الإسكندر	Alexander
إسبرطة	Sparta
أشيكراتيس	Echecrates
أسكليبيوس	Asclepius
اعتدال	Temperance
إفسوس	Ephesus
أفلاطون	Plato
أفلوطين	Plotinus
إقليدس	Euclid
اكزيركس	Xerxes
أكايا	Achaea
أكزينوفان	Xenophanes
ألوبيكي	Alopece
آمون	Amon
آمونيت	Amounet
أمونيوم (بلدة مصرية)	Ammonium
أمبيدو قليس	Empedocles
أمفيبوليس	Amphipolio
أمنحتب/أمينوتيز	Amenothis
أماسيز/أحمس	Amasis
أمينتي	Amenthe
أمينتاس	Amenthas
أنيبو	Anebo

أ	
أنيتوس	Anytus
أنثيديموس (محاورة)	Enthydemus
أنوبيس	Anubis
أنكاس (قبائل)	Incas
أنيتستين	Antisthenes
أناكساركوس	Anaxarchus
أناكساجوراس	Anaxagoras
أناكسيماندر	Anaximander
أناكسيمانز	Anaximanos
إندوس (وادٍ)	Induo
أندرونيكوس الروديسي	,Andronicus of Rhodes
أنتيجونوس دوسن	Antigonus Doson
أورفيوس	Orpheus
أوكيانوس	Oceanus
أوريجين	Origen
أوزيري	Osiride
أوزيريس	Osiris
إيزيس	Isis
الأوزيرياكا	Osiriaca
الأودوس-المرتل	Odus
أوش (كثير)	Osh
إيري (بمعنى أفعل)	Iri
أيوثيفرو	Eythyphro
إيوبويا	Euboea
أيزوكرات	Isocratcs
أيجينا	Aegina

أ	
أيونيا	Ionia
إيوديموس	Eudemus
أياتوليا (تحالف)	Aetolian
إيليا	Elea

ب	
بارايتونيوم (بلدة مصرية)	Paraetonium
بيلوزيوم (بلدة مصرية)	Pelusium
بوليكراتس	Polycrates
بروزربين	Proserpine
بودا	Buddha
بيكون. روجر	Bacon, Roger
بسماتيك	Psammitichus
بارمينيديس	Parminides
بروقلوس	Proclus
باجازاي (خليج)	Pagasae
البليبونيز	Peloponnesus
البا «أحد أجزاء النفس»	BA
بريكليس	Pericles
بوتيدايا	Potidaea
بيوتيان	Boetian
بلاتايا	Plataea
بيرايوس	Peiraeus
بيلوس	Pylos
براسيداس	Prasidas

ب	
بيتشمان	Piexschman
بريتاني (مقاطعة)	Britanny
بروديكوس	Prodicus
بيتيس	Pithis
بليال-بعلزيول	Belial
بريكتيوني	Perictione
بروتا جوراس	Protagoras
بيثيمبامنتيس	Pethempamenthes
الباستوفوري (مرتبة)	Pastophori
بابريميس	Papremis
بوبسطة	Pubastis
بليني	Pliny
بلوتارك	Plutarch
بوكوريس	Bocchoris
باخوس	Bacchus
بلزوني	Belzoni
بطليموس	Ptolemy I Soter
بوبسطة	Pubastis
بروتيوس	Proteus
البليميون	Blemmyes
(قبائل حبشية)	Blemmians

ت	
التاسوع	Ennead
تقمص روحي	MetempsychossTth

ت	
تراقيا	Race
تحوت	Thot
تحوتمس ٣	Tuthomsis III
توت	Toth
التلفيقية	Eclecticism
تفنوت	Tefnut
تيرانيو	Terannio

ث	
ثراسيلوس	Thrasyllus
ثيودوسيوس	Theodosius
ثيوفراستوس الليسيوس	Theophrastus of Isbos
ثيرموبيلاي	Thermopylae
ثيسالي	Thessaly
ثياتوس	Theaetus
الثماني (الربوبي الموحد)	Ogdoad

ج	
جابلونسك	Jablonsk
الجانجز (نهر)	Ganges
جوستنيان	Justinian
جوبيتر	Jupiter
جيديو (راهب)	Gideo
جروت	Grote

ج	
جورجياس	Georgius
الجمهورية (محاورة)	Rupublic
جوهر فرد	Monad
جب (الأرض)	Geb
جوهر	Substance

ح	
الحبثيون	Hittites
حورس	Horus
حامل الأرواب المزركشة	Stoluit

خ	
خوفو	Khufu
خانتيب	Xanthippe
الخات (أحد أجزاء النفس)	Khat
الخو (أجزاء النفس)	Khu

د	
دلفي (معبد)	Delphi
ديمتريوس	Demetrius
ديمقريطس	Democritus
ديوجين لايريتوس	Diogenes Laeritus
ديلوس (اتحاد)	Delos

د	
ديموستين	Demosthenes
ديانا	Diana
ديديما	Didyma
دليوم	Delium
ديون	Dion
ديونسيوس	Dionysius
الدفاع (محاورة)	Apology
ديودور	Diodorus

ر	
رأس أرتيميزيوم	Artemisium
الرن	Ren

ز	
زرادشت	Zoroaster
زينو	Zeno
زينوتان	Zenophanes
زيوس	Zeus

س	
سنوسرت	Senusert
سيكلاديس	Cyclades
سكستوس	Sextus

س	
سمبليكيوس	Simplicius
سترابو	Strabo
سيرين	Cyrene
سوينبرن كليمر	Swinburne Clymer
ساموتراقيا	Samotrace
ساف (إلهة)	Saf
سيبيتيتوس (مدينة مصرية)	Sebennytus
سينكيلوس	Syncellus
سرقوسة	Saragossa
سقراط	Socrates
سلاميس	Salames
سيمون	Cimon
سايس	Sais
سوفرونيسكس	Sophroniscus
سيمياس الطيبي	Simmias of Thehes
سولون	Solon
سيراقوزة	Syracuse
ستاجيرا	Stagira
سنزار (لغة)	Senzar
الساهو	Sahu
السيخيم	Sekhem

ش	
شارشمدت	Schaersmidt
شو (الهواء)	Shu

ص	
صولا	Sulla
صقلية	Sicily
الصانع البارئ	Demiurgo
صورة	Form
ط	
طليطلة	Toledo
طيبة	Thebes
طيماوس	Timaeus
ظ	
الظاهر	Phenomena
ع	
العرابة المدفونة	Nysa Arabia
العقل الكوني	Nous
العارف بالرمز السرية (كاهن)	Hierogrammat
علة غائية	Final Cause
العلم الكافية	Efficient Cause
عقل فعال	Active intellect
عقل منفعل	Passive intellect
عرض	Accident

ف	
فيثاغورس	Pythagoras
فينيقيا	Phoenicia
فورونيوس	Phoroneus
فوسيس	Phocis
فورفير	Porphyr
فيدو (محاورة)	Phaedo
فيدر (محاورة)	Phaedrus
فيليبوس (محاورة)	Philebus
فايناريت	Phaenaret
فافورينوس	Favorinus
فيلولاوس	Philolaus
فيلو	Philo
فوكاي	Phocae
فيرون	Pheron
فقه إلهيات	Theology
فقه إلهيات ممفيس	Memphite Theology

ق	
قرطبة	Cordova
قبرص	Cyprus
قمبيز	Cambyses
القوانين	Lows

ك	
Calchis	كالشيس
Ka	الكا
Canopic	كانوبي (فرع دمياط)
Caria	كاريا
Carians	الكاريون
Cadmus	كادموس
Crito	كريتو
Cratylus	كراتيلوس
Calcis	كالكيس
Clement of Alexandria	كليمنت السكندري
Kaibit	الكيبيت
Clazomenae	كلازومينايي (بلدة)
Cyrene	كرين
Cecrops	كيكروبس
Cheops	كيوبس
Colophon	كولوفون
Ceres	كيريس
Chios	كيوس (بلدة)
Kepler, gahann	كيبلر (جوهان)
Copernicus	كوبرنيك
Croton	كروتون
Cleon	كليون
Cythera	كيتيرا
Crotona	كروتونا
Coronea	كورونيا
Corinth	كورنثة
Corcyra	كورسيرا

ل	
لاكونيا	Laconia
لاكيس (محاورة)	Laches
ليوكيبوس	Leucippus
ليوناردو	Leanardo
ليد	Lade
ليونيديس	Leonides
ليسبوس	Lesbos
لوكريس	Locris
ليكون	Lycon
ليزيس (محاورة)	Lysis
اللوكيوم	Lyceum

م	
مانيتو	Manetho
ماراثون (خليج)	Marathon
مارس	Mars
المائدة (محاورة)	Sym Posium
ماكس موللر	Max muller
مارشام آدمز	Marsham Adams
مايا (قبائل)	Mayes
مادة	Matter
ميليسوس	Mclissus
ميروي	Meroe
ممفيس	Memphis
مينيفثيون	Menephetheion

م

Mithra	ميترا
Christ Menes	المسيح مينا
Methradorus	ميترودوروس
Memnon	ممنون
Miletus	ميليتوس
Ideals	المثل (نظرية)
Mitylene	ميتلين
Teleological Premise	المسلمة الغائية
Megara	ميجارا
Macedonia	مقدونيا
Mysia	ميسيا
Minae	المينا
Minerva	مينيرفا
Horoscopus	المنجم
Metaphysics	ميتافيزيقيا

ن

Napoleon	نابليون
Naucratis	نوكراتيس
Nuba	النوبة
Nobodians	النوبوديون
Nobotia	نوبوتيا
Nicias	نيكياس
Naupactus	نوباكتوس
Nun	نون

ن	
نونيت	Nunet
نظرية المثل	Ideals
نظام الأسرار	Egyptian Mystery
نيوماخوس	Neomachus
نوت (السماء)	Nut
نفتيس	Nephthys

هـ	
هليوبوليس	Heliopolis
هرمودور	Hermoderus
هوك	Huk
هوكيت	Hauket
هوه	Huh
هوهيت	Huhet
هيجسستراتوس	Hegesistratus
هيراقليطس	Heraclitus
هورابولُّو	Horapollo
هومير	Homer
هيرميا	Hermia
هيرمبوس السكندري	Alexandrine Hermippus
هيرودوت	Herodotus
هرمس	Hermes
الهيرية–الكهنونية	Heratic

و	
وجود في ذاته	Noumena
وجود بالقوة	Potentiality
وجود بالفعل	Actuality

ي	
يورميدون (نهر)	Eurymedon
يامبليكوس	Jamblichus
يو (اسم أميرة)	Io

هنـــداوي